دراسات
في
الترجمة والمصطلح والتعريب

شحادة الخوري



دمشق ــ أوتوستراد المزة

هاتف

٢٤٤١٢٦ ــ ٢٤٣٩٥١ ــ ٢١٣٨٢١

تلكس: ٤١٢٠٥٠

ص.ب: ١٦٠٣٥

العنوان البرقي

طلاسدار

TLASDAR

ربع الدار مخصص

لصالح مدارس ابناء الشهداء في القطر العربي السوري

دراسات
في
الترجمة والمصطلح والتعريب

الطبعة الثانية /١٩٩٢/

شحادة الخوري

خبير الترجمة في المَنظمَة العَربيَّة

للتربية والثقافة والعلوم ــ تونس

دراسات في الترجمة والمصطلح والتعريب

قدم له

الدكتور عبد الكريم اليافي

تقـــديـــم

بقلم الدكتور عبد الكريم اليافي

من أجود الأمور وأكثرها سداداً وصحة أن يعالج الباحث موضوعاً يدخل في صُلْبِ اختصاصه وفي حَلْبة ممارسته وكفاحه. والأستاذ البحاثة شحادة الخوري أديب بارز، وأستاذ فاضل سلخ في تدريس الأدب العربي واللغة العربية سنين عديدة من حياته العلمية امتاز في إبّانها بالروح العلمية والتنقيب الدقيق وبالأخلاق الطيّبة والسيرة الحسنة والإخلاص العميق والوفاء الصادق في عمله الدؤوب وفي سلوكه الفردي والقومي وعلاقاته الاجتماعية والإنسانية.

إنه في الوقت الحاضر خبير الترجمة في المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. وقد ألّف أثناء عمله الراهن في المنظمة فصولاً «في أوقات مختلفة لمؤتمرات وندوات واجتماعات متنوعة» ضمّها في إطار واحد وفي طاقة شائقة هما هذا الكتاب الذي نقدّمه لمن تهمه شؤون المصطلح والترجمة والتعريب في رحاب الوطن العربي الواسعة، وكثير ما هم.

تتسم هذه الفصول بالتركيز وابتغاء خدمة اللغة العربية والسعي في إلحاقها بركب الحضارة العلمية الإنسانية الحديثة، وهي القمينة بذلك والقويّة عليه.

إن اللغة وطن الأمة الروحي، وخزانة تراثها الفكري، ووعاء ثقافتها وآدابها وعلومها، وحاملة هوّيتها وشعائرها في الماضي والحاضر والمستقبل. ولهذا تحرص الأمة على سلامة لغتها حرصها على ذاتها، وتتمسك بها تمسكها بحقيقتها، وتدافع عنها دفاعها عن حماها.

وتأتي اللغة العربية في طليعة اللغات العالمية غنى وبلاغة وطلاوة وطواعية وسلاسة وحسن أداءٍ، ودقة بيان وملاءمة لمختلف الأغراض، ومواتاة لمقاصد الفكر، قرباً وبعداً، خفاءً وإعلاناً، إحاطة وتلميحاً، حقيقة ومجازاً وكناية. ولا نجد لغة من اللغات مثلها أمدت العلوم والآداب والفلسفة والقانون والأديان واللغات الأخرى أحقاباً متطاولة بمعين لا ينضب، وزوّدتها بكنوز لا تحصى، ورفدتها بقيم وشروح وتعليقات لا تعد ولا تحصى.

ولقد ألـمّـت بالعالم العربي صروف جعلت هذه اللغة تتوارى بعض الشيء عن ميدان الحضارة الحديثة، ودفعت أبناءها إلى التواني في تداولها على المستوى الحضاري العلمي والتقني الراهن وإلى أن يغفل أكثرهم عن التعليم العالي بها في جامعاتهم ومعاهدهم ومؤسساتهم العليا وإلى توهّم عجزها، لا عجزهم، عن استيعاب العلوم الحديثة ومصطلحاتها وبحوثها المُسْتَجِدَّة.

ولقد تصدى لدفع هذا الوهم كتاب ومفكرون يحدوهم الإخلاص والغيرة على حضارة أمتهم وثقافتها ولغتها وواقعها فكانوا فريقين: فريق سارع إلى الدفاع عن لغته بمنطق العاطفة والشعور فسلك سبيل التهجم والغلوّ المفضي إلى الانطواء والتحجر وإلى

إيجاس الخيفة من كل محاولة تسير باللغة وعلومها في ركاب العصر وتتطور بتطوره وتتسع حنايا صدرها باتساعه .

وفريق آخر آثر منطق العقل وأساليب العلم ووضْعَ الخطط والمناهج لصهر المجتمع العربي بالثقافة العربية المتطورة وجعل اللغة العربية لغة الحياة والمجتمع والدولة بدءاً من إتقانها والتفكير بها ، إلى التعليم والتعلم والبحث الدقيق المرن والاستيعاب الرحب اعتماداً على التراث وعلى الاجتهاد وسيراً نحو التحديث والمعاصرة .

والأستاذ شحادة الخوري من الفريق الثاني يؤهله إلى الريادة إخلاصه وعلمه وخبرته . ويتبدى ذلك في الموضوع الحيوي الخطير الذي اختاره وتأمّل جوانبه وخبر مشكلاته وهو « الترجمة والتعريب والمصطلح » . وتلك قضايا قديمة جديدة ، تالدة وطارفة ، وطنية واقليمية وعالمية تتطلب دائماً ومن حين إلى آخر حلولاً عملية جدّيّة عاجلة قبل أن يتسع الخرق على الراقع .

والباحث في موضوع ما يلزمه إدراك واقع المشكلة وتحديدها وامتلاكه وفرة من المعلومات المتصلة بها ، ثم اجتهاده في إضفاء هذه المعلومات على المشكلة التي يعالجها مُعْملاً فيها فكره ، مقلباً فيها رأيه ، باذلاً جهده ، متبصراً ما في حلّها من عقبات ، معتمداً على رصيده من الخبرة والمعرفة ، متمسكاً بما عنده من القيم القومية العليا والمثل الرفيعة .

وقد تيسر للأستاذ الخوري من هذه الملامح ما جعله متميزاً في بحثه ، لا لأنه يطرقه أُنُفاً بكراً — لم يسبق إليه — بل لأنه تناوله تناول العارف البصير ، المجرب الواعي الذي أدرك الخطر فهو يشير إليه وينذر بمغبّاته ويبدىء فيه القول ويعيد .

رسم واقع المشكلة : إنها نشوء علوم ومخترعات وهيئات وعلاقات

حديثة تزداد مع مشرق كل شمس ومغربها إذ يقوم العلماء والمخترعون وأرباب الهيئات وأصحاب العلاقات بوضع تسميات جديدة لما أضافوه في علومهم وميادينهم من شؤون ولما ابتكروه من أشياء وما تواطؤوا عليه من مصطلحات، فيحتاج غيرهم في الأمم الأخرى متقدمة أو نامية إلى أن تسلك مسالكهم وتقبس من علومهم وتفيد من مبتكراتهم فلا تجد مناصاً من نقل المصطلحات والتسميات إلى لغتها نقلاً يوائم طبيعة اللغة المنقول إليها ويجري مجراها وينساب في بِناها وتراكيبها.

والعرب في هذا العصر جديرون بهذا النقل، نقل العلم والتقنية والمصطلحات وأمثالها، إلى لغتهم لتكون أداة طيعة في الإعراب عن دقائق العلم وأغوار المعرفة وآفاق التقنيّة، ومطيّة ذلولاً للبحث الجديد والتنقيب المبتكر ولكي تعمّ الفائدة وتَغْنَى اللغة نفسها وتُثْري وليكون ذلك منطلقاً لدخول مضمار التقدم الحثيث الذي نشهد مجالِيَهُ وآفاقه في العصر الحاضر. ولا بد في ذلك من تعريب الحياة بنواحيها المختلفة واتجاهاتها المتعددة، وأهدافها القريبة والبعيدة، ومن إحلال العربية الصحيحة محالّ اللهجات المحلية واللغات الأجنبية الهجينة في النطق والتعليم والتفكير والمعاملات والعلاقات وأمثال ذلك.

ورأى الأستاذ الخوري أنه لا بد من العودة إلى التراث العربي الواسع والزاخر نتخذه أساساً ونبراساً. وفي سبيل ذلك عرض أكثر من مرة تاريخ الترجمة والتعريب منذ عهد خالد بن يزيد وعبد الملك بن مروان وهارون الرشيد إلى عهد المأمون الزاهر وتوقف طويلاً عند دار الحكمة التي أنشأها المأمون داراً للترجمة والتعريب ومكتبة عامة عامرة ومرصداً فلكياً، وأبان أن موضوع نقل العلوم إلى العربية أمر بديهي لا يحتاج إلى برهان. إنه وضع للأمور في نصابها وعودة إلى السبيل القويم واقتداء بالسلف الذين

نقلوا علوم الأمم القديمة والأمم التي عاصرتهم من فرس وهنود ويونان ولم يجدوا في العربية ضيقاً عن استيعابها بل أداة لإغنائها وتعميماً لاستعمالها لغة تستوعب العلوم والآداب والمبتكرات وتسير مع الحياة وتحفز على الإتيان بالجديد .

ووقف المؤلف مراتٍ لينوه بتعريب التعليم في سورية بفروعه جميعها ، ليتخذ منه دليلاً على قدرة العربية على استيعاب العلم المعاصر والتقنية الحديثة إن خلصت النّيات وتنزهت الأغراض وبذلت الجهود . وأشار إلى جهود المجامع العربية في دمشق والقاهرة وبغداد وعمان وإلى مكتب تنسيق التعريب بالرباط التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم وإلى غيره من المؤسسات الرسمية في وضع المعجمات والمصطلحات ، ودعا إلى التنسيق بينها حتى لا تضيع الجهود ، ولا تتبعثر الأعمال ، ولا تتشتت المقاصد .

نعم إن في الكتاب تكراراً لا يخفى إذ هو مجموعة من المحاضرات والدراسات قُرن بعضها ببعض . ولا شك أن التكرار ، على عيوبه ، يرسخ المعنى ويؤكد القصد ويوضح الهدف .

وليس لنا في الختام إلا الإشادة بإخلاص الأستاذ الخوري وغيرته على حضارة الأمة العربية وعلى لغتها ، وإلا التنويه بعرضه المشتمل على الوضوح والبساطة والسلاسة ، وإلا الثناء على الروح العلمية ترفدها خبرة المؤلف وثقافته واطلاعه على جوانب الموضوع بحكم الأعمال التي وليها في المنظمة العربية .

المقدمة

هذه دراسات كتبتها في أوقات مختلفة، لمؤتمرات وندوات واجتماعات متنوعة، خلال عملي خبيراً لوحدة الترجمة بإدارة الثقافة في المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ١٩٨١ ــ ١٩٨٧، ولكنها، مع ذلك، تشكل سياقاً موحداً ونسيجاً متلاحماً لأنها تعالج موضوعات يتصل بعضها ببعض اتصالاً وثيقاً هي موضوعات: الترجمة والمصطلح والتعريب.

إن كل باحث يتصدى لمعالجة موضوع من هذه الموضوعات، لا مندوحة له من التطرق إلى الموضوعين الآخرين، بحكم الترابط القائم بينها. ولئن تكررت في هذه الدراسات بعض العبارات والأمثلة، أو عرضت بأشكال متقاربة، فليس من شأنها إلا أن تكون بمثابة تأكيد على أهميتها وتثبيت لمؤداها في ذهن القارىء.

إن الصلة بين هذه الموضوعات الثلاثة: الترجمة والمصطلح والتعريب هي صلة تقوم على الترابط والتلازم.

إن الترجمة تتطلب أن يتوافر للمترجم المقابل العربي للمصطلح الأجنبي في مختلف ميادين المعرفة، وهي تنمو

وتزدهر إذا كان التعليم معرباً في جميع مراحله وأنواعه، إذ يكون الكتاب المترجم إذ ذاك، أداة من أدوات التعليم ولاسيما في المستوى الجامعي.

والمصطلح يتأثر بحركة الترجمة، إذ هي تحثّ على وضعه واستنباطه ثم تنقله من حيّز المعجم لتجعله جارياً على الألسنة والأقلام، كما يؤثر في التعريب لأنه إحدى وسائله، إذ لا تعريب دون ألفاظ عربية أو معربة للأعيان والمعاني.

وأما تعريب التعليم، فإنه يستلزم بدوره أن تنشط الترجمة لرفد الجهد الذي يبذل من أجله بتأمينها الكتاب والبحث المنقولين إلى العربية، وأن تتوافر له المصطلحات التي هي أدوات التعبير، ولا سيما في ميدان العلوم والتكنولوجيا المعاصرة، مع التذكير بأن المطمح الواجب تحقيقه ليس تعريب التعليم فحسب، بل تعريب المجتمع بمختلف أنشطته الاقتصادية والمالية والاجتماعية والفكرية.

إن هذه الموضوعات الثلاثة ليست من قضايانا اللغوية والثقافية المهمة التي تستحق أن يبذل لها الجهد فحسب، بل هي من همومنا القومية والحضارية، لاتصالها بثقافتنا العربية المعاصرة: لغة ومضموناً، وبتنمية مجتمعاتنا العربية: أفراداً وجماعات، وتأثيرها في بناء الإنسان العربي الذي نرجوه مؤتلف الفكر واللسان، أميناً لتراثنا المجيد، ومتطلعاً لبناء مستقبل زاهٍ يكون امتداداً لأمسنا الزاهر.

وإنه لواجب عليّ أن أزجي الشكر خالصاً إلى المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ومديرها العام المفكر الرائد الأمين والمخطط العارف البصير الدكتور محي الدين صابر الذي يقود سفينتها بعزيمة الربان القادر، على ما أتاحت لي من مصادر المعرفة والمعلومات والإسهام في الاجتماعات والندوات، فكان من أثر ذلك هذا الحصاد المتواضع، الذي

آمل أن يجد فيه القارىء العربي العزيز قبساً على درب مسيرتنا الجاهدة لبناء ثقافة عربية أصيلة ، جذورها في الأمس الزاهر وفروعها في مستقبل نرجو أن يكون زاهياً مجيداً .

شحادة الخوري

الترجمة ولغة العلم

دراسة قدمت في «الملتقى الدولي الأول حول المطبوعة الجامعية والعلمية العربية» الذي دعت وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ـــ ديوان المطبوعات الجامعية ـــ في الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية إلى عقده بمدينة الجزائر من ٢٨ | ١١ إلى ٢٣ | ١٢ | ١٩٨١.

أولاً ـــ حلم المأمون

قال أبو الفرج محمد بن إسحق النديم في كتابه الفهرست «أحد الأسباب الذي من أجله كثرت كتب الفلسفة وغيرها من العلوم القديمة في البلاد العربية، أن المأمون رأى في منامه كأن رجلاً أبيض اللون مشرباً حمرة واسع الجبهة مقرون الحاجب أجلح الرأس، أشهل العينين حسن الشمائل جالس على سريره. قال المأمون: وكأني بين يديه قد ملئت له هيبة. فقلت له: من أنت؟ قال: أنا أرسطاليس! فسررت به وقلت: أيها الحكيم أسألك؟ قال: سل، قلت: ما الحَسَنُ؟ قال: ما حَسُنَ في العقل! قلت: ثم ماذا؟ قال ما حَسُنَ في الشرع، قلت: ثم ماذا؟ قال: ما حَسُنَ عند الجمهور! قلت: ثم ماذا؟ قال: ثم لا ثم! وفي رواية أخرى: قلت: زدني، قال: من نصحك في المذهب فليكن عندك كالذهب، وعليك بالتوحيد! فكان هذا المنام من أوكد الأسباب في إخراج الكتب».

إن هذا الحلم، إذا صح، لا يكون سبباً لاهتمام الخليفة العباسي بنقل كتب الإغريق الفلسفية إلى اللغة العربية أو باعثاً عليه، بل على عكس ذلك يكون نتيجة لذلك الاهتمام وانعكاساً له، وإشارة تدل على رغبة المأمون الشديدة في الاطلاع على ثقافة اليونان ولا سيما فلسفة أرسطو. والحق أن هذا الاهتمام وهذه الرغبة، تشترك فيهما معه النخبة التي تكونت آنذاك في المجتمع العربي وتطلعت إلى حياة عقلية غنية بالمعارف المتنوعة.

وإني لأتساءل أكان ممكناً ألا يتوافر لذلك الخليفة المستنير، الذي عرف بحرية الفكر والشغف بالمعرفة ذلك الاهتمام وتلك الرغبة؟! ثم إن المأمون لم يكن البادىء في بعث حركة الترجمة، الوسيلة الرئيسية في نقل المعرفة الإنسانية من لغة إلى لغة ومن أمة إلى أمة، ولكنه أكمل ما كان قد بدىء به من قبل، ومنح هذه الحركة دعمه ورعايته فنشطت في زمانه، فكان أن نقلت إلى العربية أفضل المؤلفات التي تضم ثقافات الأمم المجاورة، ولا سيما اليونان الذين ازدهرت الفلسفة والعلوم في ربوعهم، فاغتنت الثقافة العربية بما نقل، وتقبل الفكر العربي معارف الشعوب السالفة وتمثلها، فكان ذلك منطلقه إلى الكشف والإبداع، وبنى العرب بعد ذلك حضارة إنسانية شامخة كانت المشعل الوضاء في العالم مئات من السنين.

ثانياً ـــ المواجهة الحضارية

إن الإنسان بطبعه تواق إلى ارتياد المجهول واكتناه أسرار الكون، والعقل يلح في طلب المزيد من المعرفة وكشف ما استتر وراء حجاب، ثم فوق ذلك سمع العرب المسلمون الآية الكريمة ﴿ هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ تطرق آذانهم وتقر في قلوبهم، فخفوا إلى طلب العلم لا تقعدهم عن الطلب مشقة ولا يصدهم عنه عناء مرددين ﴿ وقل رب زدني علماً ﴾، العمر كله قصر أم طال «اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد»، وقرب المطلب أم بعد «اطلبوا العلم ولو في الصين».

لقد شهدت العصور القديمة فتوحات كثيرة، قبل الفتوح العربية وبعدها، فكان الفاتحون يدمرون حضارات البلدان التي يدخلونها ويبيدون معالم ثقافتها، ولكن العرب لم يدمروا حضارة ولا أبادوا ثقافة، بل حفظوا كل خيِّر ومفيد في حضارات من سبقهم، واقتبسوا ثقافاتهم وتمثلوها خالصة من الشوائب، فصارت جزءاً من ثقافتهم وبعداً من أبعادها، ثم ما لبثوا أن أغنوا الثقافة الإنسانية بما كشفوا عنه وما أبدعوا فيه، فأعطوا أضعاف ما أخذوا، وصبغوا كل نوع من أنواع المعرفة بلون عبقريتهم الفذة.

كانت المعرفة مطلبهم وغايتهم، والترجمة وسيلتهم في نقل هذه المعرفة، واللسان العربي المبين أداة التعبير والإفصاح والشرح والإيضاح، وكان ذلك في القرن الثاني للهجرة.

وواجه المترجمون آنئذ العديد من أسماء الأعيان والمعاني التي لم تكن العربية تشتمل عليها،

ولا سيما في ميدان الفلسفة والعلوم ، فلم يثنهم ذلك عن القصد ، ذلك أن العربية أفسحت صدرها للألفاظ الجديدة تعريباً حيناً ، وفاضت من داخلها توليداً واشتقاقاً ومجازاً ونحتاً بالعديد من الألفاظ التي أوجدها المترجمون واصطلحوا عليها أحياناً ، فلم تبق لغـةَ الشعر والنثر والدين والفقه فحسب بل صارت لغة الفلسفة والطب والهندسة والكيمياء والحساب والفلك وغير ذلك من صنوف المعارف والعلوم .

الثقافة صرح يُبنى ، والبنّـاء الماهر يبتدع المواد مما تهبه له أرضه ، أو يستعيرها من أرض مجاورة ، إذ لا بد له من أن يرسي الأسس ويرفع العمدان ويكمل البنيان . والمترجم البارع بنّـاء يشيد صرح الثقافة ، فيبحث بلا كلل عن الألفاظ يستولدها من لغته أو يأخذها من لغة أخرى ، كيما يسمي المسميات ويعبر عن المعاني ، فيحقق الغاية التي إليها يصبو ، ويبلغ القصد الذي إليه يتطلع .

لقد ألحت الترجمة في تلك الحقبة من الزمن كيما تكون اللغة العربية لغة علم فكانت .

وها نحن اليوم في مطلع القرن الخامس عشر الهجري ، نعيش مرحلة مماثلة لتلك التي عاشها أجدادنا في القرن الثاني ، نجدّ في طلب المعرفة والعلم ، والترجمـةُ وسيلة نقلها إلى لساننا من لغات الشعوب التي أحرزت في ميدان المعارف والعلوم سبقاً ، وسيكون المآل إذا صح منا العزم ، أن تصبح لغتنا العربية لغة العلم في المستقبل القريب وتغتني ، كما اغتنت فيما مضى من الزمن ، بالمفردات والمعاني التي تحتاج إليها .

إن اللغة العربية لم تقـصِّـر عن استيعاب العلم في الماضي ، ولا تقصر عن استيعاب العلم اليوم لما أوتيت من خصب وغنى وقدرة على التوليد والاشتقاق ، ولكننا نحن الذين نقصر في درسها والتعمق فيها والكشف عن كنوزها ، والإفادة مما يمكن أن تقدمه من عون على التعبير والإفصاح .

ثالثاً ـــ تجربة الأمس

ولنعد خطوات إلى الوراء نتقـرّى ما حدث ، فإن في أحداث الأمس هدى وعبرة ترشد إلى ما ينبغي أن نفعله اليوم . ولئن كانت أحداث التاريخ لا تتكرر فإنها في بعض مراحل الزمن تتشابه وتتماثل .

أ ــ في عهد الأمويين

بدأت الترجمة في عصر بني أمية، إلا أن الأمويين كانوا مشغولين بالفتوح وتوطيد أركان الدولة فلم يتح للترجمة أن يتسع أفقها، ومع ذلك فقد خطت في أيامهم أولى خطواتها.

إن أكثر الكتب التي ترجمت في هذا العهد إنما دعا إلى ترجمتها الأمير الأموي خالد بن يزيد بن معاوية (ت ٨٥ هـ)، الذي أخفق في نيل الخلافة فانصرف إلى العلم. يقول ابن النديم «كان خالد يسمَّى حكيم آل مروان وكان فاضلاً وله همة ومحبة للعلوم. وخطرت بباله الصنعة فأمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونان ممن كان ينزل مدينة مصر وقد تفصح بالعربية، وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني واللسان القبطي إلى العربي، وكان هذا أول نقل في الإسلام من لغة إلى لغة». وكانت الكتب التي ترجمت لخالد بن يزيد تتعلق بالكيمياء، لأن خالداً كان يعتقد بإمكان تحويل المعادن إلى ذهب، وممن نقل له أصطفن القديم مترجم كتب الصنعة.

ويذكر القفطي أنه في زمن خلافة مروان بن الحكم (٦٤ ــ ٦٥ هـ)، نقل أول كتاب طبي إلى العربية، وهو كناش أهرن القس بن أعين، وقد احتوى على ثلاثين مقالة نقلها ماسرجويه الطبيب البصري من السريانية إلى العربية وزاد عليه مقالتين، ويقول ابن أبي أصيبعة «إن الخليفة عمر بن عبد العزيز أمر بنشر هذا الكتاب وقد وجده في خزائن الكتب بالشام».

ومن أشهر المترجمين في العصر الأموي يعقوب الرهاوي، الذي ترجم كثيراً من كتب الإلهيات اليونانية إلى العربية.

ويروي ابن النديم أنه في زمن بني أمية نقل الديوان في العراق من الفارسية إلى العربية بأمر الحجاج، وناقله هو صالح بن عبد الرحمن مولى بني تميم وأصله من سجستان وقد بذلت له الفرس مئة ألف درهم على أن يظهر العجز في نقله فأبى. وفي أيام عبد الملك نقل الديوان في الشام من الرومية إلى العربية، وناقله هو أبو ثابت سليمان بن سعد.

وهكذا غدت العربية لغة الإدارة في الدولة العربية الناشئة المترامية الأطراف، وزال الوهم الذي ساد فترة من الزمن من أنها لا تصلح لذلك.

ب ـ عهد العباسيين

أما في زمن بني العباس، فقد ازدهرت الترجمة ازدهاراً عظيماً للسببين التاليين:

١ ـ لم يكن العرب قبل عهد العباسيين يهتمون كثيراً بالفلسفة والعلوم لانشغالهم بالفتوح وتوطيد دعائم الحكم، وقرب عهدهم بالتحضر، فلما وجدوا أن الحضارة لا تقوم إلا على العلم مالوا إليه وجـدّوا في ترجمته.

٢ ـ كثر الجدل في عصر بني العباس بين أصحاب الفرق من المسلمين وبينهم وبين أصحاب الأديان الأخرى، مما حدا بهم إلى ترجمة الفلسفة اليونانية بعامة ومنطق أرسطو بخاصة، لاتخاذها وسيلة إلى دعم الرأي وإسناد الحجة.

هذا وينقسم عهد الترجمة زمن العباسيين إلى دورين رئيسيين: أحدهما يمتد من قيام الدولة العباسية إلى بداية عهد المأمون (١٣٢ ـ ١٩٨ هـ)، وثانيهما يبدأ بتولي المأمون الحكم ويمتد طيلة عهده ويستمر بعد ذلك على وهن وضعف.

١ ـ الدور الأول (ما قبل عهد المأمون)

كان الخليفة المنصور شغوفاً بالطب والهندسة والفلك والنجوم، وهو أول من راسل ملك الروم طالباً منه كتب الحكمة، فبعث إليه بكتاب إقليدس وبعض كتب الطبيعيات. وجمع حوله صفوة مختارة من العلماء في مختلف نواحي المعرفة، وشجع على ترجمة العلوم، وأنشأ ديواناً للترجمة.

وقد نقل جورجيس بن جبرائيل للخليفة المنصور كتباً كثيرة من كتب اليونان، وكان قد استقدمه من مدرسة جنديسابور التي كان رئيساً للأطباء فيها فغدا طبيبه الخاص.

واهتم هارون الرشيد بترجمة الكتب، ووسع ديوان الترجمة الذي أنشأه المنصور لنقل العلوم، وطلب من البيزنطيين بعد احتلاله عمورية تسليمه المخطوطات الإغريقية القديمة، وأشهر الكتب التي ترجمت في هذا الدور كتاب المجسطي لبطليموس، ومعنى المجسطي الترتيب الكبير في علم الفلك.

٢ ـ الدور الثاني (عهد المأمون وما بعده)

عندما تولى المأمون الخلافة عام ١٩٨ هـ / ٨١٣ م، اهتم بالترجمة والتأليف ولا سيما ترجمة

كتب الفلسفة . يقول ديورانت « إن أحد شروط الصلح بين المأمون والإمبراطور البيزنطي ميخائيل الثالث ، أن ينزل هذا للمأمون عن إحدى المكتبات الشهيرة في القسطنطينية ، وكان بين ذخائرها كتاب بطليموس في الفلك ، فأمر المأمون بنقله إلى العربية ، وأنه أنشأ في بغداد « بيت الحكمة » وهو مجمع علمي ومرصد فلكي ومكتبة عامة أقام فيها طائفة من المترجمين وأجرى عليهم الأرزاق من بيت المال » ، وكذلك أرسل البعثات إلى بلاد الروم للحصول على الكتب ، يقول صاحب الفهرست « إن المأمون كان بينه وبين ملك الروم مراسلات ، وقد استظهر عليه المأمون ، فكتب إليه في إيفاد من يختار من العلوم القديمة المخزونة في بلده فأجاب بعد امتناع ، فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج بن مطر وابن البطريق وسلما صاحب بيت الحكمة فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا فلما حملوه إليه أمرهم بنقله فنقل » .

وأشهر الكتب التي ترجمت في هذا الدور : كتاب الحكم الذهبية لفيثاغورس ، وكتاب المجسطي الذي ترجم ثانية ، وكتب عديدة لأبقراط وجالينوس ، وكتاب السياسة المدنية المدعو الجمهورية ، وكتاب النواميس لأفلاطون .

ثم عرف العرب أرسطو وأكثروا من ترجمة كتبه ، وصار عندهم (المعلّم الأول) ، وحاولوا أن يوفقوا بين آرائه وبين الدين ، ولكنّهم نسبوا إليه كتباً تبيّن فيما بعد أنها ليست له ، مثل كتاب (الإلهيات) الذي هو في الحقيقة أملية من أمالي رئيس المدرسة الأفلاطونية الجديدة بالإسكندرية أملاها على أحد تلامذته . وكان لهذه النسبة الخاطئة آثار سلبية على فهم نظريات أرسطو في الإلهيات .

ولعل أهم ما ميز حركة الترجمة في هذا العهد ، أن المأمون قد نظمها وجعلها نشاطاً رسمياً ، وصرف من أجلها الأموال الوافرة ، وذكر أنه كان معجباً بحنين بن إسحق إعجاباً جعله يعطيه من الذهب زنة ما ينقله من الكتب العربية مثلاً بمثل ، وكان يحرض الناس على قراءة تلك الكتب المترجمة .

وقد اقتدى بالمأمون في ذلك العهد وبعده كثير من أهل الدولة ورجالها الأغنياء ، فتقاطر على بلاد العباسيين المترجمون من كل حدب وصوب من أنحاء الجزيرة والعراق والشام وفارس ، وفيهم النساطرة واليعاقبة من السريان والصابئة والروم ، يترجمون من اليونانية والسريانية والفهلوية والسنسكريتية والنبطية إلى العربية

قال محمد بن إسحق: ممن عني بإخراج الكتب من بلاد الروم: محمد وأحمد والحسن بنو موسى بن شاكر المنجم، إذ بذلوا الرغائب وأنفذوا حنين بن إسحق وغيره إلى بلاد الروم، فجاؤوهم بطرائف الكتب وغرائب المصنفات في الهندسة والفلسفة والطب والموسيقا والحساب وكانوا يرزقون جماعة النقلة مثل حنين بن إسحق وحبيش بن الحسن وثابت بن قرة وغيرهم، نحو خمسمئة دينار في الشهر للنقل والملازمة.

وجاء في كتاب (شمس العرب تسطع على الغرب) لمؤلفته زيغريد هونكه «إن أبناء موسى بن شاكر قاموا بإيفاد الرسل على نفقتهم الخاصة إلى بلاد الروم بحثاً عن المخطوطات الفلسفية والفلكية والرياضية والطبية القديمة، ولم يتوانوا عن دفع المبالغ الطائلة لشراء الآثار اليونانية وحملها إلى بيتهم قرب باب التاج. وفي الدار التي قدمها لهم المتوكل على مقربة من قصره في سامراء، كان يعمل دون إبطاء، فريق من المترجمين من أنحاء البلاد تماماً كما كان يفعل المأمون بالذات الذي كان يوفد الرسل أيضاً بحثاً عن المخطوطات القديمة، للمترجمين والنقلة».

ولم ينفرد أبناء موسى بن شاكر بذلك، بل صار اقتناء المخطوطات وترجمتها إلى العربية هواية الأمراء والوزراء وسراة القوم، وموضع الفخر والاعتزاز، وقد أرسل هؤلاء البعثات لتحصيل الكتب من بلاد الإغريق وآسية الصغرى، وبذلوا لأجل ذلك المال الوافر، ومن أشهرهم الفتح بن خاقان ومحمد بن عبد الملك بن الزيات الوزيران في بلاط بني العباس.

ج ــ المترجمون ووسائلهم

إن أشهر المترجمين هم: حنين بن إسحق العبادي الذي تتلمذ على يوحنا بن ماسويه في الطب، وعلى تلامذة الخليل بن أحمد وتلامذة سيبويه في اللغة، والذي قيل: إنه ترجم إلى السريانية من كتب جالينوس خمسة وتسعين كتاباً نقل منها إلى العربية تسعة وثلاثين، وراجع وأصلح عشرات من الكتب التي ترجمها آخرون، ويوحنا بن ماسويه الذي كان الرشيد قد عهد إليه بترجمة الكتب الطبية وكان طبيب الخلفاء من عهد المأمون حتى أيام المتوكل، وثابت بن قرة الحراني الذي اكتشفه أبناء موسى وترجم لهم عدداً كبيراً من المؤلفات الفلكية والرياضية والطبية لأبولينوس وأرخميدس وإقليدس وأفلاطون وأرسطو وجالينوس وأبقراط وبطليموس، ثم وضع مئة وخمسين كتاباً بالعربية وعشرة كتب بالسريانية.

ومنهم يحيى بن البطريق الذي ترجم كتاب المجسطي، وجورجيس بن جبرائيل الذي ترجم كتاب المنطق لأرسطو، وقسطا بن لوقا البعلبكي وعبد المسيح بن ناعمة الحمصي والحجاج بن مطر ويحيى بن عدي وجورجيس بن بختيشوع وإسحق بن حنين وغيرهم.

وكان معظم النقلة من السريان، وكان للسريان قبل الإسلام مدارس كثيرة في ديار ربيعة (الجزيرة) خاصة، أشهرها مدرسة الرها ومدرسة نصيبين، وكان لهم أديار تعلم العلوم الدينية والفلسفية، وكان منهم علماء درسوا في مدرسة جنديسابور الشهيرة.

وكان علماؤهم قد نقلوا إلى لغتهم جملة من العلوم العقلية من اليونانية والفارسية والهندية قبيل الإسلام وفي صدره، فلما نشطت حركة الترجمة إلى العربية نقلوها مع غيرها إلى اللسان العربي إما من السريانية أو من اليونانية.

وممن نقلوا إلى العربية من الفارسية آل نوبخت وابن المقفع، ومن الهندية منكة الهندي ومن النبطية ابن وحشية.

وقد استدعت ترجمة علوم القدماء إلى العربية كالطب والفلسفة والرياضيات والفلك والكيمياء والطبيعيات، إيجاد مصطلحات علمية كثيرة للدلالة على الأعيان والمعاني. يقول الأمير مصطفى الشهابي: إن المصطلحات العلمية التي أدمجت في لساننا في تلك الأيام هي آلاف مؤلفة من الألفاظ العربية ومئات من الألفاظ المعربة.

ففي مجال الفلسفة وضعت ألفاظ اصطلاحية معظمها عربي وقليلها معرب. إن كلمة فلسفة ذاتها معربة، وقد اشتق منها فعل هو: فلسف، واستخدمت الكلمات العربية التالية للدلالة على أمور محددة: الأزل، الأبد، القديم، الحديث، العلّة والمعلول، الوجود والعدم، الصورة والجوهر، والعرض، والموضوع والمحمول، والكلي والجزئي، والقياس والاستنتاج، والمقولات وأشباهها من الألفاظ الكثيرة التي صار لها معان اصطلاحية ودلالات محددة.

وفي مجال الطب وضعوا أسماء عربية عديدة كالجراحة والتشريح والكحالة، وسموا بعض الأمراض مثل السرطان والخانوق والذبحة والربو والاستسقاء وذات الجنب والبواسير، ومئات من الألفاظ في أنواع الأمراض وأعراضها وأدويتها ومداواتها، وعمدوا أيضاً إلى التعريب فقالوا: الترياق والقولنج والبرسام وغير ذلك.

ووضعوا أسماء عديدة لأعيان المواليد والمفردات النباتية ، فترجموا بعض الأسماء الأعجمية وعربوا بعضها الآخر ، فمما ترجموه : لسان الثور ، وآذان الفأر ، وكثير الأرجل ، وآذان العنز ، وأنف العجل ، ولسان الكلب ، وهذه كلها أسماء نباتات أعجمية مترجمة . ومما عربوه : الخيار ، والباذنجان ، والمقدونس ، والبابونج ، والليمون ، والأترج ، والأقاقيا ، والأفستين واللوبياء والسوسن والنيلوفر .

وفي علم الرياضيات اتسعت العربية للمصطلحات ، فقالوا : الدائرة والقطر والمثلث والمربع والمخروط والجيب والمماس . وفي الفلك عربوا أسماء بعض النجوم فنقلها علماء الفلك الأوروبيون إلى لغاهم ، ونقلوا معها أسماء عربية لنجوم أخرى كثيرة .

إنّ هذه المصطلحات التي أوجدتها ترجمة العلم إلى العربية ، دخلت اللغة العربية واندرجت مع ألفاظها واشتملت عليها معجماتنا القديمة ، وكانت صالحة للتعبير عن علوم القدماء ، وجعلت من العربية لغة العلم آنذاك ، بل هي ما تزال تصلح للتعبير عن بعض موضوعات العلوم الحديثة .

ولعل السهم الأكبر في وضع المصطلحات العلمية ، يرجع إلى حنين بن إسحق إذ كان المترجمون قبله يبقون على المصطلح اليوناني بلفظه ، في حين أن من يقرأ كتاب « العشر مقالات في العين » لحنين يشعر أنه يقرأ كتاباً عربياً مبيناً . ولذا يرجح أن يكون هو واضع الكلمات التالية : الشبكية والعنبية والرطوبة والزجاجية والبيضية والقرنية والملتحمة ، وأسماء ارمراض كالبردة والشعيرة والشترة ، إذ لم تكن متداولة قبله ، وذلك للدلالة على المعاني التي استخدمها لها ، ويرجح أن يكون أول من استعمل مصطلح السرطان .

ثم ماذا تكون لغة العلم؟ إنها المصطلح الدقيق للدلالة ، والعبارة الواضحة المعنى .

لم يكن في ذلك العهد مجامع لغوية أو لجان جامعية أو مكاتب تعريب أو دوائر معاجم ، ولذا كان جهد الفرد النابه هو الذي يعوض عن ذلك كله ويسد مسده ، ولم يكن بين الترجمة ووضع المصطلح وسطاء أو فجوات ، بل كان ثمة ترابط وتلاحم وتكامل : الترجمة تقتضي اللفظة الدقيقة لتدل على الأعيان والمعاني ، والجملة الصحيحة التي تساعد على الشرح والإيضاح ، فإذا ما تيسرت هذه وتلك ، كانت لغة العلم .

ولكن سؤالاً يطرح : كيف استطاع النقلة في ذلك الزمن إيجاد المصطلح العلمي ؟ يجيبنا عن ذلك الأمير مصطفى الشهابي يقول : إن الطرائق التي اتبعوها في إيجاد المصطلح هي :

١ ــ تحوير المعنى اللغوي الأصلي للكلمة العربية وتضمينها المعنى العلمي الجديد.
٢ ــ اشتقاق ألفاظ جديدة من أصول عربية أو معربة للدلالة على المعاني الجديدة.
٣ ــ ترجمة كلمات أعجمية بمعانيها.
٤ ــ تعريب كلمات أعجمية وعدها صحيحة.

ويعتبر أن هذه الطرائق التي اتبعت آنذاك ما تزال صالحة في يومنا هذا لوضع المصطلحات للعلوم الحديثة.

لقد قدمت حركة الترجمة التي قدّمنا عرضاً موجزاً عنها، خدمة جلّى للثقافة العربية، إذ إن ما ترجم قرأه العرب ودرسوه فوعوه فأفادوا منه، وصار جزءاً من ثقافتهم، واحتضنت لغتنا الفكر الإنساني، وقدمت الترجمة للعقل العربي مادة تمثلها وأفسحت له أفق الإبداع، فجاز مرحلة النقل والاقتباس إلى مرحلة الكشف والإبداع، وانعقدت له الريادة في العالم بالمعارف والعلوم.

د ــ من الأخذ إلى العطاء

ولسنا الآن في معرض التفصيل فيما قدمه العرب للعلم وما أثروا به الثقافة الإنسانية، فذلك مبثوث في كتب تاريخ الحضارة والعلوم، ويشهد به الأعداء قبل الأصدقاء، ويقر به المنصفون من المستشرقين، ونعتز به نحن لأنه مادة تراثنا العلمي الذي يؤلف صفحة نيرة من صفحات الجهد البشري الرائع لكشف المجهول وفهم الطبيعة. وحسبنا أن نذكر بعض الأسماء فتدلنا على الفضل الكبير الذي كان للعرب في كل فرع من فروع العلم، فنذكر الكندي وابن يونس والبيروني وابن الهيثم في الفيزياء والبصريات، وياقوت وأبا الفداء والإدريسي في الجغرافيا، وجابر بن حيان في الكيمياء، والكاشي والخوارزمي والطوسي في الرياضيات، وبني موسى بن شاكر في الفلك، وابن البيطار في الزراعة، والرازي وابن سينا وابن النفيس في الطب، وابن خلدون في التاريخ وعلم العمران وغيرهم كثير.

رابعاً ــ فترة الركود

ثم تتالت الأحداث، وقلب الدهر للعرب ظهر المجن، وجاءتهم عوامل الضعف من الداخل ومن الخارج، فحل الشتات محل الألفة والتجزئة مكان الوحدة، والضعف موضع القوة، فطمع بهم الخصوم، وتتالت عليهم الغزوات والحروب، فخبا الألق الذي سطع قروناً بسبب الدمار الذي حل

بديارهم، وتسلط الأعاجم على الحكم، وضمرت الحياة الفكرية عندهم نتيجة لركود حياتهم العامة.

... واندفع الأوروبيون يغرفون من الثقافة العربية، تسربت إليهم من سورية ومصر إبان الحروب الصليبية، ثم من صقلية ونورمانديا وجنوبي إيطاليا في عهد الأغالبة، ومن الأندلس بشكل خاص، واعتمد هؤلاء على الترجمة في اقتباس علوم العرب، فكان ما نقلوه إلى لغاتهم الأساس في نهضتهم الحديثة التي بدأت منذ بضعة قرون وما تزال مستمرة حتى اليوم، وعن طريق هذه الترجمة دخلت اللغات الأوروبية مئات من الألفاظ العربية ما تزال مستخدمة حتى اليوم، مثل الكافور والزعفران والمر والمن والمسك والترياق والقطن والشاش الغزي والخزام والغول والتمر الهندي.

خامساً ــ النهضة الحديثة

وبعد حلكة الظلام بزغت في الأفق ومضات في مطلع القرن الماضي. فقد تنبه العرب، إثر حملة نابليون على مصر إلى أن العلم هو مصدر القوة، وأن أوروبا قد امتلكت القوة المادية بفضل تقدم العلوم فيها، وقر في أذهانهم أن من واجبهم استئناف ما انقطع ومعاودة السير في طريق التقدم العلمي.

١ ــ الترجمة والتعليم

أ ــ في مصر

كانت مدة الحملة ثم ما أعقبها من حكم محمد علي فترة خصبة، فقد أحضر نابليون معه طائفة من العلماء فأسسوا مجمعاً علمياً فرنسياً ومدارس وصحفاً ومراصد ومطابع، وعكفوا على دراسة نبات القطر وحيوانه وجيولوجيته ومياهه وآثاره، وأنشؤوا معامل للورق والأقمشة، وفتح محمد علي مدارس للعلوم العسكرية، ومدرسة للطب البشري وأخرى للطب البيطري، ومدارس للهندسة والزراعة والصناعات والفنون والترجمة والإدارة، وأصدر جريدة «الوقائع المصرية» وأوفد البعثات للدراسة في الغرب.

وكانت اللغة العربية لغة التدريس في جميع المدارس الحكومية على اختلاف أنواعها ودرجاتها.

وظل الأمر كذلك إلى ما بعد الاحتلال الإنكليزي الذي حصل عام ١٨٨٢ ، إذ تحول إذاك التدريس في الكليات العلمية مثل كلية الطب بالقصر العيني من اللغة العربية إلى اللغة الإنكليزية ، بعد أن استمر بالعربية سبعين سنة ، فكان ذلك ارتداداً للغة الضاد في أرض مصر بسبب سيطرة الاستعمار عليها .

وفي رحاب هذه الكلية ، قبل الاحتلال ، بدأت ترجمة الكتب العلمية ، فقد ألف مؤسسها الدكتور كلوت الفرنسي كتباً طبية بالفرنسية للتدريس فجرت ترجمتها إلى العربية ، وألف الدكتور فيجري كتاباً في النبات فنقل إلى العربية .

ومن الأساتذة المصريين الذين نقلوا إلى العربية أو ألفوا بها ، محمد علي البقلي وكان من أشهر الجراحين ، ومحمد الشافعي وعلي رياض ومحمد الدري ورفاعة الطهطاوي في الطب ، ومحمد ندى في النبات والحيوان ، ومحمد الفلكي ومحمد البيومي في الفلك والهندسة والرياضيات .

وثمة جماعة من الأساتذة جمعوا بين التأليف والترجمة والتصحيح ومراجعة المصطلحات وتدقيقها ، منهم محمد عمر التونسي وإبراهيم الدسوقي ، ومن المترجمين في ذلك العهد يوحنا عنحوري ويوسف فرعون .

كان هؤلاء هم الرواد في مجال الترجمة العلمية . لقد وضعوا المصطلحات اعتماداً على الكتب العلمية القديمة التي رجعوا إليها واستفادوا مما وجدوه فيها من ألفاظ صحيحة . ولا يعني هذا أن جميع المصطلحات التي استخدموها فيما ألفوا وفيما ترجموا كانت صالحة ، بل أن بعضها عدل عنه فيما بعد في الترجمة والتأليف العلميين واستعيض عنه بمصطلحات أخرى . بَيْدَ أن الجهد الذي بذلوه قد آتى أكله ، إذ أوجدوا النواة الجيدة للغة علم عربية الحرف والنطق ، ومهدوا الطريق لمن جاء بعدهم ليكمل البناء .

ب ــ في الشام

وفي بلاد الشام ، في أواخر القرن المنصرم ، خدمت الكلية الأمريكية في بيروت اللغة العربية مدة من الزمن ، إذ جُعِل التعليم فيها بالعربية عند إنشائها ، ووُجِد فيها ثلاثة أساتذة أعلام أتقنوا العربية ونقلوا إليها كتب التدريس وألفوا بالعربية ، وهم فنديك وبوست ورتبات ، ولكن التدريس بالعربية في هذه الكلية لم يطل أمره وتحول إلى الإنكليزية .

وبعد هذه التجربة لتدريس العلوم بالعربية على المستوى الجامعي في القصر العيني بمصر والكلية الأمريكية في بيروت ، والتي لم يقيض لها البقاء والاستمرار ، جاءت كلية الطب بدمشق التي تأسست في أواخر عام ١٩١٩ لتخلفهما وتعوض ما فاتهما ، وبدأت تدريسها بالعربية منذ افتتاحها واستمرت في ذلك باطراد حتى اليوم ، مع الكليات العلمية العديدة التي أنشئت بعدها في القطر العربي السوري .

لقد قامت هذه الكلية بأمر من الملك فيصل الأول على أنقاض كلية الطب التركية بدمشق التي أنشئت بأمر سلطاني عام ١٩٠١ ، وتعاهد أساتذتها منذ البدء على التدريس بالعربية والترجمة إليها والتأليف بها وإيجاد المصطلح الطبي الملائم ، فاستطاعوا بما بذلوا من جهد أن يوفوا بالعهد ووضعوا مؤلفات قيمة بالعربية في مختلف الفروع الطبية .

لقد رجعوا في البحث في المصطلح العلمي إلى ما جاء في الكتب الطبية القديمة ، كقانون ابن سينا وكامل الصناعة ومفردات ابن البيطار وتذكرة ابن داود ، والكتب الطبية التي وضعت من قبل في مصر وفي الدولة العثمانية وكلية بيروت ، وجعلوا في خاتمة كل كتاب مسرداً لمصطلحاته بالفرنسية والعربية ، واشتهر منهم الدكاترة مرشد خاطر وأحمد حمدي الخياط ومحمد صلاح الدين الكواكبي مصنفو النسخة العربية لمعجم كلارفيل الطبي المتعدد اللغات ، والذي طبع بالفرنسية والعربية عام ١٩٥٥ ، وحسني سبح رئيس مجمع اللغة العربية الذي توفاه الله بدمشق منذ أمد قريب .

إن هؤلاء الأساتذة ومن جاء بعدهم حتى اليوم ، قد أعلوا من شأن العربية وعرفوا خصائصها وسبروا مكنوناتها ، فاستخرجوا لآلئها ونشروها في مؤلفاتهم وترجماتهم ، وقد دأبتَ هذه الكلية ما ينوف على ستين سنة تخرج الأطباء باللغة العربية دون أن يقل مستواهم العلمي عن أية كلية للطب في الوطن العربي والعالم . ولئن أرست هذه الكلية الأساس ، فقد جرت مجراها الكليات العلمية الأخرى التي أحدثت في القطر العربي السوري منذ استقلاله حتى اليوم : كلية طب الأسنان وكلية الصيدلة ومدارس التمريض ، وكليات الهندسة بأنواعها المدنية والمعمارية والميكانيكية والكهربائية والنفطية ، والطب البيطري والزراعة ، وكلية العلوم بأقسامها الستة : الرياضيات والفيزياء والكيمياء والجيولوجيا والنبات والحيوان ، بالإضافة إلى العلوم الاجتماعية والإنسانية كالفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع وعلم السكان والاقتصاد والحقوق والتجارة والمحاسبة في كليات الآداب والحقوق والاقتصاد والتجارة . فقد تابعت الكليات جميعها وفي جامعات القطر الأربع خطوات كلية الطب ، واعتمدت

العربية لغة العلم والتعليم، وترجم أساتذتها العلوم المختلفة إلى العربية، وألفوا بها الكتب الجامعية التدريسية، وجدوا في إيجاد المصطلح دون كلل أو هوادة.

ج ـ في الأقطار العربية

في الوقت الذي كان السعي منصرفاً في مصر والشام إلى التعريب وبعث اللغة العربية وإنماء وجودها، كان السعي في أقطار عربية أخرى منصرفاً إلى رد غائلة التغريب والتمسك بالعربية والحفاظ على وجودها.

فقد كان من نتائج السيطرة الفرنسية على الجزائر في منتصف القرن الماضي، أخذ الفرنسيين بسياسة الإدماج والفرنسة في المغرب العربي عامة: الجزائر وتونس والمغرب، مع اختلاف بسيط في الوسائل والطرق المتبعة لبلوغ الهدف، وهو خلق جيل يكون بعيداً عن معرفة لغته وثقافته الوطنية.. إنها قطيعة أراد المستعمر أن يفرضها بين حاضر الشعب وماضيه تنسيه هويته القومية وتفقده صلته بتراثه، ليتلبس ثقافة غير ثقافته وينطق بلغة غير لغته.

بيد أن التمسك باللغة العربية كان جزءاً لا يتجزأ من التمسك بالدين والأرض والحرية والاستقلال، وكان بالتالي عاملاً من العوامل التي أذكت جذوة الكفاح الوطني الرائع لإحباط محاولات الاستعمار وإبراز الشخصية الوطنية.

ففي تونس كانت جامعة الزيتونة العريقة والمدارس الصادقية والخلدونية معاقل الدين واللغة العربية، وتصدى رجالها، أساتذة وطلاباً، لحماية الثقافة العربية وتخليص المجتمع التونسي من التبعية الثقافية.

ومع بداية الاستقلال، اعتبرت اللغة العربية لغة البلاد، بنص الدستور، وبالتالي لغة التعليم، غير أن الافتقار إلى الجهاز التعليمي القادر على التدريس بالعربية جعل خطوات التعريب وئيدة، فعرب التعليم الابتدائي ووسعت رقعة التعريب في المدارس الثانوية والتعليم الجامعي، ولا سيما في كليات الآداب والعلوم الإنسانية، ولا بد أن يتابع السير في طريق التعريب عند توافر الوسائل.

أما المغرب الذي قضى زهاء أربعين سنة تحت الحماية الفرنسية، فقد صان العربية على أرضه على الرغم من جهود السلطات الأجنبية لفرض الفرنسية في الإدارات والمعاهد التعليمية. وثابرت جامعة القرويين ذات الماضي المجيد على نشر العلم والمعرفة، ودرست العلوم العصرية بالعربية، ثم

أنشئت مدارس ابتدائية وثانوية تلقن العلوم بالعربية . وبعد الاستقلال وضعت المغرب خطة لاصلاح التعليم قوامها : تعميم التعليم وتوحيده وتعريبه ومغربة أطره ، وقد تم وفق ذلك تعريب التعليم الإبتدائي كلياً ، والثانوي جزئياً ، والعالي في مجال الآداب والحقوق والعلوم الاجتماعية ، وتستكمل الخطوات تبعاً لتوافر الجهاز التدريسي القادر على تدريس المواد العلمية والتقنية باللغة العربية .

وتعرضت الجزائر لاستعمار استيطاني شرس دام مئة وثلاثين عاماً ، ومارس سياسة غاشمة تقوم على نشر الفقر والجهل وطمس الهوية الجزائرية وتغيير انتماء الجزائر الجغرافي والثقافي والحضاري . ولكن مقاومة هذه السياسة لم يخمد أُوراها وواجه المثقفون المتمسكون بالأصالة والجمعيات الوطنية التي تكونت في الجزائر خطط المستعمر .

وبعد انتصار الثورة المظفرة ونيل الاستقلال ، بذلت الجهود الصادقة لنشر التعليم وتعريبه . وقد جاء في الميثاق الوطني «إن الخيار بين اللغة الوطنية ولغة أجنبية أمر غير وارد البتة ، ولا رجعة في ذلك ، ولا يمكن أن يجري النقاش حول التعريب بعد الآن إلا فيما يتعلق بالمحتوى والوسائل والمناهج والمراحل» . وتسير الجزائر قدماً في تعريب التعليم بمختلف مراحله ، وتسعى جاهدة لتأمين المستلزمات لذلك من مدرسين وكتب مؤلفة أو مترجمة .

ولا بد من الإشارة إلى الجهود التي بذلت وتبذل في الأقطار العربية الأخرى . فقد حاول الاستعمار الإيطالي في ليبيا فرض لغته بالقوة لالحاق البلاد بامبراطوريته ، ولكن بعد انحسار ظله وقيام الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية ، عاد للبلاد وجهها العربي الناصع ، ويتم التعليم ما قبل الجامعي في الجماهيرية بالعربية وكذلك في الكليات الجامعية النظرية ، وأما في كليات العلوم الأساسية والتطبيقية فيتم بالانكليزية في انتظار تأمين مستلزمات تعريبه : المدرسين الأكفياء والكتب والمراجع العلمية . وقد أحدثت الدولة (معهد الإنماء العربي) ، و (مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية) وكلاهما يهتمان بالترجمة والتأليف إلى جانب أغراضهما الأخرى .

وقد اتخذت الجمهورية العراقية عام ١٩٧٦ قراراً سياسياً بتعريب التعليم العالي تعريباً كاملاً ، ورسمت الخطوات اللازمة ، وأحدثت الهيئات المختصة التالية : الهيئة العليا للتعريب ، مركز التعريب بوزارة التعليم العالي والبحث العلمي ، اللجان الجامعية للتعريب ، الهيئات العلمية في الأقسام ، لجنة المناهج الجامعية ، كما أحدثت في وزارة الإعلام دائرتين إحداهما للتعريب ، والثانية للتعجيم ، وأصدرت عام ١٩٧٧ قانون المحافظة على اللغة العربية .

وفي الأقطار العربية الأخرى، كالسودان والأردن والمملكة العربية السعودية والكويت وسائر دول الخليج العربي، تبذل جهود صادقة لنشر التعليم وتعريبه. والتعليم العام فيها بالعربية، وكذلك التدريس في كليات الآداب والعلوم الإنسانية، وتنحصر الصعوبة في نطاق التدريس في الكليات العلمية والتقنية إذ يستأنى في ذلك بغية توفير متطلباته من مدرسين وكتب.

إن تعريب التعليم العالي ليس قراراً يتخذ، وإن كان القرار الركيزة والمنطلق، بل هو عمل شاق وجهد بناء يقتضي توفير القوى البشرية القادرة والوسائل التعليمية الصالحة، ويتطلب توحيد المصطلح وترجمة الكتب والمؤلفات والدراسات والبحوث العلمية، إلا أنه على الأصعدة الوطنية والقومية والحضارية من الأهمية والضرورة بحيث يستساغ معه كل عناء وتهون كل تضحية.

٢ ــ المصطلح العلمي

إن ثلاثة موضوعات بينها ترابط وثيق واتصال مستمر وتكامل دائم هي: الترجمة، ووضع المصطلح، وتعريب التعليم. فالترجمة هي تعريب العلم والسبيل إلى تعريب التعليم، ولا تتم إلا بتوافر المصطلح العلمي، والمصطلح العلمي لا يستقر ولا يعم إلا بالترجمة.

وإذا كنا قد تحدثنا عن الترجمة في القديم التي استقطبها (بيت الحكمة) في بغداد، فقد أشرنا في الوقت ذاته إلى جهد المترجمين الأوائل في إيجاد المصطلح، كما أشرنا إلى أن تلك الترجمات كانت المادة في التأليف والقاعدة التي قام عليها الكشف والإبداع في حقول المعرفة والعلوم.

وفي العصر الحديث كذلك رافق حركة الترجمة في مصر والشام في القرن التاسع عشر والنصف الأول من هذا القرن، سعي حثيث لإيجاد المصطلحات العلمية ومحاولات تدريس العلوم بالعربية، ولئن أصابت هذه النهضة العربية العلمية نجاحاً هنا وإخفاقاً هناك، فمرد ذلك إلى الأحوال الاجتماعية والسياسية التي كانت تكتنف المجتمع العربي فتدفعه حيناً إلى الأمام وترده حيناً آخر عن غايته.

وفي هذا السياق نلمس الجهد الكبير الذي بذل في العصر الحديث لإيجاد المصطلح العلمي، ووضع الموسوعات والمعاجم، وجعل اللغة العربية تستوعب العلوم الحديثة.

فقد ظهر في هذه الحقبة علماء أعلام منهم بطرس البستاني صاحب «محيط المحيط» و«دائرة المعارف» والشيخ إبراهيم اليازجي الذي نسب إليه ألفاظ: الدراجة والمجلة والحساء والمقصف واللولب

والحوذي، وسليمان البستاني مترجم إلياذة هوميروس، والشدياق وبشارة زلزل ويعقوب صروف صاحب المقتطف الذي تنسب إليه ألفاظ: الغواصة والدبابة والرشاش والنواة والكهرب، وجميع هؤلاء أسهموا في إغناء العربية بالمصطلح الجديد.

ومن المعاجم التي بذل فيها الجهد: معجم كازمرسكي ومعجم دوزي بالفرنسية والعربية، ومعجم لين ومعجم بارجر بالانكليزية والعربية، ثم معجم بيلو والمنهل بالفرنسية والعربية، والمورد بالإنكليزية والعربية. ومن المعاجم المتخصصة معجم العلوم الطبية والطبيعية للدكتور محمد شرف، ومعجم أسماء النبات للدكتور أحمد عيسى، ومعجم الألفاظ الزراعية للأمير مصطفى الشهابي، والمعجم العسكري الذي يشتمل على حوالي أربعين ألف مصطلح، والمعاجم التي أصدرتها دائرة المعاجم في مكتبة لبنان في بيروت... إن هذه المعاجم سواء أكانت عامة أم متخصصة، ومهما كان الجهد الذي بذل فيها، لم تبلغ الغاية المرتجاة لأنها من وضع أفراد، والفرد مهما كان ضليعاً ومطلعاً على العلوم لا يستطيع بمفرده أن يجد المصطلحات العلمية الدقيقة التي تحوز القبول وتظفر بالإجماع. ولذلك فإن مسألة وضع معجم عام بالانكليزية والعربية وآخر بالفرنسية والعربية كمرحلة أولى، ثم وضع معاجم متخصصة في كل فرع من فروع العلم، متفق عليه عربياً ما زالت مسألة مطروحة. وقد مهدت لذلك مجامع اللغة العربية ومكتب تنسيق التعريب بالرباط، بالجهود التي بذلتها في وضع منهجيات التعريب ووضع المصطلحات وتنسيقها عن طريق اللجان العلمية والمؤتمرات العربية.

ولا بد في هذا المجال من الإشادة بجهود مجامع اللغة العربية: مجمع اللغة العربية بدمشق تأسس عام ١٩١٩، واتخذ من المدرسة العادلية مقراً، وضم إليه دار الكتب الظاهرية المشهورة، وعمل ومازال على جمع المخطوطات النفيسة، وتحقيق الكتب والمؤلفات وتدقيق المصطلحات، ونشر البحوث اللغوية في المجلة التي يصدرها باسمه، ويعتبر المرجع الأساسي المسؤول عن المصطلح في القطر العربي السوري.

وأنشئ مجمع اللغة في القاهرة عام ١٩٣٢ للمحافظة على سلامة اللغة العربية وجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون، وقد وضع قرارات مهمة تيسر عمل العاملين في وضع المصطلح برسمها قواعد لهم، ووضع مئات من المصطلحات وحقق ألفاظاً وضعها آخرون، ووضع المعجم الوسيط، ومعجماً لألفاظ القرآن ونشر بحوثاً مهمة في مجلته.

وفي عام ١٩٤٧ أنشىء المجمع العلمي العراقي في بغداد، وما برح منذئذ حتى اليوم قائماً

بعمله بنشاط لتحقيق غرضه الأول وهو : العناية بسلامة اللغة العربية وجعلها وافية بمطاليب العلوم والفنون وشؤون الحياة الحاضرة ، وله مجلة ينشر فيها بحوثه العلمية واللغوية .

ومنذ سنوات قليلة أحدث مجمع للغة العربية في عمان بالأردن ، وباشر عمله بهمة عالية ونشاط وافر في عام ١٩٧٦ .

وأقامت هذه المجامع فيما بينها اتحاداً ينسق جهودها ويجمع ما بين نشاطاتها .

وينهض مكتب تنسيق التعريب في الوطن العربي بمسؤولية تنسيق المصطلح العلمي العربي وتوحيده ، وقد انبثق هذا المكتب عن مؤتمر عقد بالرباط عام ١٩٦١ وأوكل إليه تنسيق جهود الدول العربية في ميدان التعريب تحت إشراف جامعة الدول العربية ، ووافقت الدول العربية على إحداثه وجعلت مقره الرباط والتزمت بتمويله . وتطبيقاً لهذه التوصيات نظم المكتب دورة أولى لمجلس تنفيذي له عام ١٩٦٢ ، وأصبح مؤسسة ملحقة بجامعة الدول العربية ثم ألحق بالمنظمة العربية للتنمية والثقافة والعلوم عام ١٩٧٢ .

وقد تنبهت الجامعة إلى خطر ازدواجية المصطلح العلمي العربي الناجمة عن تعدد الجهات التي تضعه ، وتعدد اللغات الأجنبية التي يستقى منها ، والترادف والاشتراك اللفظي في العربية ولغة المصدر ، وإغفال واضعي المصطلح التراث العلمي العربي عند الوضع ، فأسندت إلى المكتب عام ١٩٦٩ مهمة القيام بتنسيق الجهود التي تبذل لإغناء اللغة العربية بالمصطلحات الحديثة ، وتوحيد المصطلح العلمي والحضاري بكل الوسائل الممكنة ، والإعداد لمؤتمرات تعريب دورية .

وقد دعا المكتب حتى الآن إلى عقد أربعة مؤتمرات : الأول في الرباط عام ١٩٦١ وضعت فيه الخطة العامة ، والثاني في الجزائر عام ١٩٧٣ أقرت فيه معاجم للتعليم العام في المواد التالية : الرياضيات ، الفيزياء ، الكيمياء ، الجيولوجيا ، النبات والحيوان ، والمؤتمر الثالث في طرابلس عام ١٩٧٧ أقرت فيه معاجم الجغرافيا والتاريخ والفلسفة والفلك والصحة والإحصاء للتعليم العام والرياضيات والفلك للتعليم العالي ، والمؤتمر الرابع في طنجة عام ١٩٨١ درست فيه معاجم التعليم المهني والتقني في موضوعات الكهرباء ، النجارة ، الطباعة ، البناء ، التجارة ، المحاسبة ، الميكانيك ، ووسائل الإنتاج ، ومعاجم التعليم العالي في الجيولوجيا والنفط والحاسبات الالكترونية .

والمكتب جاد لاستكمال خطته في إنجاز معجمات المراحل التعليمية جميعها، ومثابر على نشر مشروعات المعاجم المتنوعة وإصدار مجلته الشهيرة: اللسان العربي.

سادساً ـــ موقعنا اليوم

بعد هذا العرض، يمكننا أن نطرح السؤال التالي: أين موقعنا اليوم من هذا الموضوع؟ وهل بلغت الترجمة هدفها في نقل المعارف والعلوم الحديثة إلى اللغة العربية؟ وهل صارت اللغة العربية لغة علم في هذا العصر؟ هل نحن في بداية الطريق أو في منتصفه أو نهايته؟ وما هي المعوقات وما هي التدابير التي في مقدورها تذليل تلك المعوقات لإدراك الغاية؟.

بدأت حركة الترجمة بصورة عامة، والترجمة العلمية، بصورة خاصة، في القرن الماضي، ثم توبعت حتى منتصف هذا القرن بجهود أفراد أو مؤسسات للترجمة والنشر خاصة، ومنذ الخمسينات أحدثت في بعض الأقطار العربية مؤسسات رسمية تعنى بالترجمات ونشرها في نطاق وزارات التربية أو الثقافة أو الإعلام أو التعليم العالي والجامعات. ولكن المتتبع لهذه الحركة يلاحظ أن الترجمة في مجال الآداب والفنون والجغرافيا والرحلات ومشكلات التنمية والمذاهب الاقتصادية والاجتماعية تأتي في المقدمة، وتليها الكتب العلمية بمستوياتها الثلاثة: المبسطة والمنهجية والموسعة.

وتفسير هذه الظاهرة أن الترجمة تتأثر بحاجات القراء ورغباتهم وتستجيب لها، ومازال قراء الكتب الأدبية والفنية والكتب ذات الطابع السياسي والاجتماعي والاقتصادي أكثر عدداً في البلدان العربية من قراء الكتب العلمية.

أضف إلى ذلك أن ترجمة الكتب العلمية تكون مطلباً للقراء عندما تدرس العلوم باللغة العربية على جميع المستويات وفي جميع الفروع العلمية، إذ يحتاج إليها آنئذ ويرغب فيها طلاب المدارس الثانوية والمهنية والمعاهد التقنية وطلاب الجامعات والدراسات العليا، للحصول على المعلومات العلمية التي يحتاجون إليها أو للتوسع في المواد العلمية التي يدرسونها.

إن هذا الوضع مازال غير متحقق مادام التعليم باللغة العربية غير معتمد بعد في الاختصاصات العلمية ولا سيما في المستويات الجامعية، ونتيجة لذلك يجد المدرسون والطلاب مطلبهم في الكتب والمراجع الأجنبية باللغة التي يدرسون بها، ولا يجدون الدافع لقراءتها بالعربية.

هذا من حيث الكم، وأما من حيث الكيف فإن الكتب العلمية المترجمة متفاوتة في الجودة

والإتقان، فإن بعضها يتميز بالدقة في الأداء اللغوي واستخدام المصطلح، ولا سيما إذا اجتمعت للمترجم الشروط المطلوبة وهي أن يكون مختصاً في موضوع الكتاب المترجم، وأن يكون متمكناً من اللغة العربية واللغة الأجنبية المنقول منها، قواعد وأسلوباً، ولكن هذه الشروط لا تتوافر دوماً أو لا تتوافر بالقدر المطلوب فتأتي الترجمة مضطربة اللغة متعثرة الأسلوب مشوشة المصطلح.

وربما كان من أسباب الضعف في المستوى الفني أو الأداء اللغوي في الترجمة العلمية، هو الضعف في تكوين المترجمين العلميين أو عدم وجوده أصلاً، إذ لا يتولاه معهد، ولا ينظم فيه تدريب، ولا يرعاه اتحاد أو رابطة، بل الترجمة حتى الآن هواية لدى المترجم أو رغبة لديه في تحصيل كسب معنوي أو مادي، أضف إلى ذلك ضعف الوسيلة، إذ ليس بين أيدي المترجمين العلميين حتى الآن معاجم عامة أو متخصصة لجميع المواد العلمية متفق عليها ومعتمدة من الهيئات العلمية والثقافية والجامعية.

صحيح أن مجامع اللغة العربية الأربعة ومكتب تنسيق التعريب قد قامت بأعمال قيمة ومهمة في ميدان وضع المصطلح وتنسيقه، إلا أنها لم تصل بعد إلى توحيده على مستوى الاختصاصات المعمقة في كل فرع من فروع العلم.

وخلاصة القول أن حركة النقل العلمي إلى العربية ما تزال بعيدة عن الكفاية من حيث الكم، وبعيدة عن الكمال من حيث الكيف، على الرغم مما أنجزت حتى الآن، ولم تصبح العربية لغة العلم على الوجه الأمثل المطلوب.

إننا لسنا في أول الطريق ولا في منتصفه ولا في نهايته، ولكننا في بعض الطريق، ثم إن حجم المعلومات العلمية في العالم حجم هائل وهو ما يزال ينمو ويتزايد بتسارع كبير، ولم نبذل حتى الآن إلاّ جزءاً من الجهد الذي يجب أن نبذله للحاق بالركب وجعل لغتنا تساير العلم في تطوره، وتماشيه في اتساعه وتواكبه في تفرعاته وتشعباته.

أما المعوقات والتدابير فذكرها آت فيما بعد.

سابعاً ــ بين الأمس واليوم

لعلنا إذا قارنا بين حركة النقل إلى العربية في عصر المأمون وما قبله وما بعده، وبين حركة النقل في العصر الحديث نتلمس بعض المعوقات التي نواجهها في دربنا اليوم:

١ ــ ثمة تشابه بينهما من حيث الهدف ، فكلتاهما تبغيان نقل المعارف والعلوم من لغات أجنبية إلى اللغة العربية بقصد اغناء الثقافة العربية بثقافات الأمم الأخرى.

٢ ــ ثمة تشابه بينهما في خط المسير ، فقد بدأت الحركة السابقة بجهود أفراد ، ثم انتقلت إلى مؤسسة ترعاها الدولة وتمدها بكل ما يكفل لها النجاح من أشكال الدعم المعنوي والمادي ، وبدأت حركة الترجمة في هذا العصر بجهود أفراد ودور نشر خاصة ثم تابعتها مؤسسات رسمية ترعاها الدولة وتمدها بالعون.

ولكن ثمة فارقاً كبيراً بينهما يتمثل في أن حركة الترجمة في العصر العباسي قد حققت أغراضها في مدة قصيرة من الزمن ، واستوعب العرب علوم العصر وثقافته خلال فترة محدودة ، وصارت العربية لغة العلم لا في نطاق الدولة العربية والعالم الإسلامي فحسب بل في نطاق العالم كله مدة قرون عدة ، في حين أن حركة الترجمة في العصر الحديث لم تحقق أهدافها بعد ، وقد انقضى عليها أكثر من قرن ونصف القرن ، ولم تصبح العربية لغة العلم حتى في الأقطار العربية ذاتها ، بل هي ما زالت في بعض الطريق إلى هذا الهدف.

قد يقول قائل إن حجم المعارف والعلوم في هذا العصر أكبر منه في ذلك العصر ، وهذا يقتضي مزيداً من الوقت والجهد. ولكن هذه الحجة ضعيفة إذ إن كبر هذا الحجم في هذا الزمن تقابله إمكانيات بشرية وقدرات مالية لدى العرب في الوقت الحاضر هي أضعاف ما كان لديهم في ذلك العصر ، ولعلنا نجد السبب في أمور أخرى :

١ ــ كان العرب في العصر العباسي ، زمن المأمون أو قبله أو بعده يشكلون وحدة سياسية ، أمة واحدة في دولة واحدة ، ونجد اليوم أمة واحدة في أكثر من عشرين دولة.

إنَّ التعددية تعوق اتخاذ القرار في إنجاز الأمور المشتركة ولا سيما على الصعيد الثقافي.

٢ ــ إن المركزية الثقافية إبان الدولة العباسية جعلت الترجمة تتم في بغداد ، عاصمة الدولة ، دون سواها ، وهذا ما سهل تجميع الكتب والمترجمين ووسائل الترجمة في مكان واحد ، وليس بميسور اليوم أن يتكرر العمل على هذا المنوال.

٣ ــ لم يكن ثمة فاصل بين الترجمة ووضع المصطلحات ، فالمترجمون هم الذين يجتهدون لإيجاد المصطلحات للاستخدام المباشر ، وليس الحال كذلك اليوم.

٤ ــ لم يكن في تلك الحقبة مؤمنون بقدرة اللغة العربية على أن تكون لغة العلم ومشككون في

ذلك، بل كان أمراً بدهياً ومسلماً به أن العربية تستطيع أن تتسع لمفردات ومعان أكثر بكثير مما تستطيعه اليونانية أو الفارسية أو السريانية أو الهندية، وأما اليوم فثمة من يؤمن بقدرتها على استيعاب العلم وثمة من يشكك في ذلك، ومن هنا كانت الخطوات المترددة في إطلاق الترجمة إلى هدفها وفي تعريب التعليم والتخلص من سطوة اللغة الأجنبية أو الازدواجية اللغوية في التعليم.

ثامناً ـــ معالم الحل

ومن هذا العَـرْض نستطيع أن نستطلع معالم الحل:

إذا كانت الأمة العربية اليوم تعاني التعددية السياسية وتعدد المراكز الثقافية، فإن ثمة ما يجمع كلمتها ويوحد صفها حول الأهداف القومية الأساسية والشؤون الثقافية المشتركة، وهو وجود جامعة الدول العربية في النطاق السياسي، والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في النطاق الثقافي والعلمي والتربوي.

وأعتقد أن مجلس الجامعة في مقدوره أن يتخذ قرارات في موضوع تعريب التعليم، وتوحيد المصطلح، وإحداث معاهد تكوين المترجمين، وإقامة مؤسسات للترجمة، وإصدار الموسوعة العربية والمعاجم العامة والمتخصصة، وتيسير تبادل الكتاب العربي...

إن هذه القرارات إذا اتخذها، تشكل منعطفاً تاريخياً في حياة العرب الثقافية في هذا العصر.

وما أعلمه أن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الحريصة كل الحرص على أداء الواجب الملقى عليها تجاه الثقافة العربية، قد أعدت للعرض على مجلس الجامعة مشروع إحداث معهد عربي للترجمة يتولى إعداد المترجمين الكتابيين والفوريين للعمل في المنظمات الدولية والإقليمية والإسلامية والعربية وفي الدوائر الوطنية التي تحتاج إليهم، وأعدت للعرض على مؤتمر وزراء الثقافة العرب الثالث (بغداد ٢ ـــ ٥/١١/١٩٨١) خطة شاملة لتنمية الثقافة العربية، ودراسة حول الموسوعة العربية، ومشروع اتفاقية حول حقوق المؤلف وخطة لرعاية الإنتاج الفكري والأدبي والفني. وإلى جانب هذه الشؤون وغيرها، أعدت للعرض على هذا المؤتمر: خطة قومية للترجمة تبين واقع الترجمة وترسم ملامح المستقبل وتبين إمكانيات التخطيط والتنسيق على المستويين الوطني والقومي، وتحديد دور كل من الدول العربية ودور المنظمة في هذا المجال، كما تضمنت دراسة جدوى احداث مؤسسة

عربية للترجمة والنشر يوكل إليها ترجمة الكتب والمؤلفات الأجنبية في العلوم والآداب والفنون وفق سلم أفضليات، إلى اللغة العربية، بغية إغناء الثقافة العربية وتقديم المادة اللازمة لتعريب التعليم، وستكون هذه المؤسسة في حال قيامها مكملة لعمل مؤسسات الترجمة والنشر الرسمية والخاصة الموجودة في الوطن العربي لا منافسة لها أو معطلة لعملها.

ولعل فيما يتخذه هذا المؤتمر وسواه من المؤتمرات التي تجسِّد الإرادة العربية المشتركة بداية الطريق لنهضة عربية ثقافية شاملة.

تاسعاً ــ الطريق إلى المستقبل

ولعله من المفيد أن نجيب بعد هذا عن السؤالين التاليين: ما هي وسائل التعريب، وهل هو في حدود الإمكان والقدرة؟.

أ ــ وسائل التعريب

نتساءل: كيف تصبح العربية لغة علم فتسعف المترجمين على نقل المؤلفات العلمية إليها؟ إنها تصبح كذلك إذا استطاعت أن تغتني بالمصطلح العلمي.

وثمة وسائل يتم بها وضع المصطلح في العربية وهي: الاشتقاق والمجاز والنحت والتعريب.

١ ــ الاشتقاق

هو أن تنزع كلمة من كلمة أخرى على أن يكون ثمة تناسب بينهما في اللفظ والمعنى، فمن المصدر «اسم المعنى» يؤخذ الفعل المجرد ثم الأفعال المزيدة. فيقال من شرب شارب: اسم فاعل ومشروب: اسم مفعول، ومن علم عليم: صفة مشبهة، وأعلم: اسم تفضيل وعلّامة: وزن المبالغة، ومن اجتمع مجتمَع: اسما المكان والزمان، ومن فتح مِفتاح: اسم الآلة... وتتضمن المشتقات الحروف الأصلية عدداً وترتيباً وهذا هو الاشتقاق الصغير.

وإذا كان بين الكلمة الأصلية والمشتقة تناسب في اللفظ والمعنى دون ترتيب في الأحرف، فهو الاشتقاق الكبير أو القلب، مثل جذب وجبذ وطفا وطاف. وإذا انتزع لفظ من لفظ مع تناسب بينهما في المعنى والمخرج واختلاف في بعض الأحرف، كان الاشتقاق الأكبر أو الإبدال،

مثل عنوان وعلوان . ويدخل فيه ما يزيد فيه على الحرفين الثنائيين حرف ثالث في أوله أو صدره نحو : شرم وصرم وخرم ، أو في حشوه نحو : رقم ورجم وردم ، أو في آخره أو الكسع نحو : نـبّ ونبس ونبر .

ولم يكن الاشتقاق يتم من المصادر أي أسماء المعاني فحسب ، كما قال البصريون ، بل كان يتم من أسماء الأعيان العربية . فقد قال العرب : أفلـ ـ من الفلس وذهّـب من ذهب وأبحر من بحر ، حتى أنه كان يتم من أسماء الأعيان المعربة فقيل : هندس ودرهم وفهرس .

وجرياً على هذه القواعد يشتق اليوم من أسماء المعاني أي المصادر : المِبْـذَر من البَـذْر والمُـتْـحَـف من الإتـحـاف ، ومن أسماء الأعيان : بَـسْـتَـنـة من البُستان ونِحالة من النَّـحْـل وبَـلْـوَر من البلور وأَكْـسَـد من الأكسيد . ومن الاشتقاق في الأمراض : صُداع وزُكام وحُكاك على وزن فُعال ، وفي أسماء الآلة : لاصق على وزن فاعل وفارزة على وزن فاعلة وطرّاد على فـعّـال وقـلّابة على فـعّالة ومِجـذاف على مِـفْـعال ومِـقْـود على مِـفْـعل ومِـدْخَـنَـة على مِفْـعَلـة .

إن باب الاشتقاق واسع ويساعد على تنمية اللغة ، ويمكن الاعتماد عليه لسد النقص في المفردات ، ويدل الحساب على أنه يمكن اشتقاق أكثر من مئتي لفظ من كل مصدر .

٢ ـــ المجاز

المجاز لفظ يستعمل في غير ما وضع له مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي : أسد إذا قصد به الرجل الشجاع . وقد استخدم السابقون ألفاظاً لا تعد ولا تحصى مجازاً فقالوا : الصلاة والزكاة والحج والتقوى ، والنحو والصرف والإعراب والبناء وأسماء الحركات وبحور الشعر ، وقالوا : الأزل والأبد والعلة والمعلول ... حتى لفظ الجاهلية مجاز مستحدث . ومن هذا الباب وضعت في هذا العصر مصطلحات مجازية كثيرة هي في الأصل ذات مدلول مختلف : قطار وقاطرة وسيارة وشاحنة ودراجة وغواصة وباخرة ومدمرة ...

وكثيراً ما نقرأ مستحدثات في هذا الباب توضع بدافع الحاجة إلى أسماء مسميـات ، ويصاحب بعضها الصواب فتبقى ويخفق بعضها فيهمل .

٣ ـــ النحت

ومعناه اللغوي النشر والهَـرْي، وهو انتزاع كلمة من كلمتين أو أكثر على أن يكون تناسب في اللفظ والمعنى بين المنحوت والمنحوت منه، وعده بعضهم ضرباً من ضروب الاشتقاق.

واستعمل النحت قديماً بحدود فقيل: البسملة والحوقلة والحمدلة والعبشمي والعبقسي... واستعمل حديثاً فقيل: برمائي وآفرو آسيوي، ولا سلكي، ولا مائي... وغالى بعضهم فيه فقيل: سمنزير: شحم الخنزير، وخلمهة: خل ـــ إماهة. وهذه المغالاة تعقيد وإغراب إذ يسعى الواضع لتجنب كلمتين فيقع في كلمة أعسر منهما كالهارب من الدب فيقع في الجب. ولذا يجب الاحتياط في وضعه وألَّا يُلجأ إليه إلا عند الضرورة كما قال مجمع اللغة العربية بالقاهرة. ويصح النحت إذا كان المصطلح الأجنبي مركباً من كلمتين مثل كهرطيسي بدلاً من كهربائي مغناطيسي وكهرحراري عوض كهربائي حراري، والحكم في ذلك هو الذوق السليم.

٤ ـــ التعريب

التعريب هو أن يلفظ العرب الكلمة الأعجمية على طريقتهم، ويسمى الدخيل. والتعريب قديم ولا ضَـيْـرَ فيه إذ إن جميع اللغات يقتبس بعضها عن بعض.

ففي الجاهلية أخذ العرب عن الفارسية ألفاظاً مثل: الإبريق والسندس والديباج والنرجس، ومن الهندية: الفلفل والقرنفل والكافور والشطرنج.. ومن اليونانية: الفردوس والقسطاس والقنطار والترياق... ومن السريانية: الكنيسة، والمسيح، والكهنوت، والناقوس، والفدان والنورج والناطور والبلوط... ومن العبرية: التوراة والأسباط والشيطان وجهنم... ومن الحبشية: النجاشي والمنبر والتابوت. وفي صدر الإسلام اقتبس العرب ألفاظاً كثيرة من الفارسية تعد بالمئات: كالكوز والفيروز والبلور والسوسن والعنبر... ومن اليونانية ألفاظ الفلسفة والسفسطة والجغرافيا والباتالوجيا والدغماطيقي.. وقد أجاز علماء العرب ما عُـرِّب في الجاهلية وصدر الإسلام وعدوا ما عُـرِّب بعد ذلك مولداً عامياً.. والحق أن التعريب مفيد ولكن يحسن فيه ألا يلجأ إليه إلا عندما تعجز الطرائق الأخرى عن تلبية القصد، وأن يُعطى للكلمة المعربة صيغة عربية تمكنها من الانضمام إلى أخواتها العربيات.

وبطريق التعريب ، الذي أجازه مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، على طريق العرب في تعريبهم وعند الضرورة نستطيع أن نقول : الالكترون والكالوري والسينما والترام والفلم . . .

إن اقتباس العربية ، عند الضرورة ، ألفاظاً أجنبية ، لا يضيرها بل يغنيها ويحل المشكلات التي تعترض سبيل تعريب العلم وتعريب التعليم ، شريطة أن يتم هذا الاقتباس بروية واعتماداً على الذوق ومراعاة بناء اللفظة المعربة على وزن مألوف من أوزان العربية .

ويمكننا أن نستطلع ما يمكن أن تقدم هذه الوسائل من عون للغة العلم إذا أخذنا تطبيقات لها في مجال علم الكيمياء : نقول الادمصاص (علمياً غير الامتصاص) مقابل لفظ **adsorption** وإماهة **Hydrolyse** على وزن فِعالة ، ومِثْفلة **Centrifuge** على وزن مِفْعلة ، ونوسان **Oscillation** على وزن فَعَلان ومثلها نَبَضان **Pulsation** ، وكبرتة **Sulfonation** على وزن فَعْلَلَة ، وكذلك صيغ على وزن فَعول للدلالة على قابلية التحول مثل شَرُوب **Potable** وحَلُول **dialysable** وعَطُوب **Fragile** وهَضُوم **Digistible** وضَغُوط **Compressible** وصيغ على وزن فُعالة للدلالة على بقية الشيء مثل قُطارة وصُهارة وحُثالة وعُصارة وصُهارة . . . وعلى وزن تفعيل للدلالة على عمل معين مثل تقطير **Distillation** وتمتيل **Methylation** وتكليس **Calcination** ، وعلى وزن يَفْعول للدلالة على النسبة إلى مادة صباغية حيوية مثل يَخْضور **Chlorophyle** ويَحْمور **Hemoglobine** ويَصْفور **Xanthophyle** . وتُجعل للكلمات صدور وكواسع تقابل الصدور والكواسع اليونانية ، فمن الصدور حياة **Bio** وأرض **Geo** وحيوان **Zoo** وضغط **Baro** ، ومن الكواسع قياس **Metrie** مولد **Gene** .

فنقول : علم الحياة **Biologie** وعلم الأرض **Géologie** وعلم الحيوان **Zoologie** ومقياس ضغط الجو **Baromètre** ، ونقول : قياس الحرارة **Thermomètrie** ومولد المرض **Pathogéne** .

وفي المجاز قيل في مركبات البنزين ثنائية التبادل : الرديف والخليف والرفيف . وفي النحت ، وهنا الأرض رخوة يحتاج السائر فيها إلى كثير من الحذر ، قد صاغ الأستاذ الكواكبي كثيراً منها : شبغري (شبه غروي) **Collîde** حمضيد (حمض ــ أميد) **Acide-Amide** وما غَوْل (ماء ــ غول) **Hydro-alcool** . وفي التعريب قيل الكروموتوغرافيا (التفريق اللوني) والكتروفوريز (الرحلان الكهربائي) والبسترة وقيل : مثيل وأثيل وديكسترين وغليسرين وغلوكوز وسكروز ومرغرين . . .

ب ــ القدرة على التعريب

إن الدعوة إلى ترجمة الكتب العلمية والثقافية ، وإيجاد المصطلح العلمي الملائم لجعل اللغة العربية لغة العلم والتعليم معاً للناطقين بها في هذا العصر ، ليست بدعة مستحدثة ولا هي ضرب من ضروب التخيل والتوهم ، بل هي مطلب ملح ينبع من حاجات العصر الحاضر لأمتنا العربية في أقطارها المختلفة ، بل هي أعظم الحاجات إلحاحاً في عملية التنمية الشاملة التي يخوض العرب معتركها ، وأفضل الاستثمارات فائدة ومنافع ، إلى جانب صلتها الوثيقة بالماضي وتراثه المجيد وبالمستقبل وملامحه الواعدة .

وقد عرضنا فيما سبق إلى الجهود الكبيرة التي بذلها رجال أفذاذ في وضع المصطلحات وتصنيف المعاجم وترجمة المؤلفات العلمية ، وإلى العمل الضخم الذي نهضت به وما تزال تنهض مجامع اللغة العربية في دمشق والقاهرة وبغداد وعمان ، واللجان الجامعية المختصة في الجامعات العربية ومكتب تنسيق التعريب بالرباط . وإن تجربة جامعة دمشق التي مضى عليها أكثر من ستين عاماً خير برهان ودليل على القدرة على تعريب العلم .

إن بعضاً من الغيارى على المستوى العلمي للطلبة ، يخشون إذا ما درس الطالب الجامعي بالعربية أن يتعذر عليه التخصص في الخارج والاطلاع على المراجع العلمية بلغة أجنبية ، ولكن التدريس العالي بالعربية يرافقه بل ينبغي أن يرافقه اهتمام بتدريس اللغات الأجنبية ، وعلى الأقل بواحدة منها في المرحلتين الإعدادية والثانوية ، ثم تعطى للطالب نصوص في الجامعة بهذه اللغة ويشجع على مطالعة المراجع العلمية بها ، وتذكر له الأسماء والمصطلحات الأجنبية أثناء التدريس بالعربية .

وهكذا يتحصل للطالب أن يدرس ويفكر ويكتب ويؤلف فيما بعد باللغة الأم ، وأن يتقن لغة أجنبية واحدة على الأقل تساعده على التخصص ومتابعة ثقافته العلمية . أما في مجال الترجمة العلمية فلا ريب أن شيئاً كثيراً قد أنجز في هذا القطر أو ذاك ، ولكن ذلك لم يتم وفق خطة مدروسة واضحة الغايات ومحددة الوسائل . وتصدر مؤسسات التأليف والترجمة والنشر كتباً علمية مترجمة ، عادية أو مبسطة ، بمثابة نوع من أنواع المعرفة التي يقبل القراء على شرائها ، ولكن هذه الكتب لا تنال إلا النصيب الأقل من نشاطات هذه المؤسسات سواء أكانت رسمية أم خاصة .

ومرد ذلك في اعتقادي أن الترجمة العلمية وثيقة الصلة بالتدريس بالعربية ، فحيث يكون هذا التدريس معتمداً تنشط هذه التجربة لترفده بالمراجع العلمية المنقولة عن اللغات الأجنبية . ومثال

ذلك أن وزارة التعليم العالي السورية قد أحدثت منذ سنوات مديرية للترجمة والنشر وعهدت إليها بترجمة كتب مراجع للمدرسين والطلاب الجامعيين تساعدهم على التوسع في مجالات اختصاصاتهم. وقد أصدرت هذه المديرية خلال السنوات العشر الأخيرة سبعين مجلداً في مختلف العلوم: الرياضيات والفيزياء والكيمياء والجيولوجيا والطب وطب الأسنان والهندسات والعلوم الاجتماعية، وأهمها كتاب «الرياضيات العالية» لسميرنوف في حوالي ستة آلاف صفحة، وكتاب «الاتجاهات الرئيسية للبحث في العلوم الاجتماعية والإنسانية: العلوم الاجتماعية ـــ اليونسكو» بما يعادل ألفين وخمسمئة صفحة، وكتاب «مبادىء الطب الباطني ـــ هاريسون» بما يعادل عشرة آلاف صفحة من القطع العادي، وكل كتاب مترجم ينتهي بجداول تشتمل على المصطلحات العلمية المستخدمة فيه، وقد أسهم في ترجمة هذه الكتب ثلاثة وثمانون أستاذاً جامعياً متخصصاً.

إن هذا العمل الذي تم انجازه لا يقاس بحجمه فحسب بل بما يرمز إليه من إمكانية نقل العلوم مهما اتسعت ودقت إلى لغة الضاد.

إن الترجمة العلمية لتكوين لغة علم عربية الحرف والنطق، ليس طريقها سهلاً مفروشاً بالورود والرياحين، بل يتطلب ذلك نصباً وجهداً للتغلب على الصعوبات التي تكمن في الترجمة وطرائقها وأساليبها، وفي النشر والطبع والتوزيع ومتاعبه، وفي تخير لغة عربية عصرية بعيدة عن الجمود والتحجر بعدها عن العامية والركاكة، ولكن المهم أن نريد، وإزاء الإرادة تتهاوى الصعوبات وتتلاشى المعوقات، وليس الأمر أمر يوم نجدّ فيه ونستريح، بل هو جهد دائم وسعي متصل لخدمة اللغة وخدمة العلم في آن واحد. المهم أن نريد وأن نبدأ، وخلال العمل نذلل الصعوبات التي تعرض.

إن أموراً ثلاثة ينبغي أن تتم في آن واحد وبخطوط متوازية: وضع المصطلح، والترجمة، وتعريب التعليم، ولا ينبغي أن يعلق أمر على أمر كَـأَنْ يقال: نترجم بعد أن ننجز وضع المصطلح أو ندرّس بالعربية بعد أن نضع المصطلح ونترجم، ذلك أن بين هذه الأمور الثلاثة ترابطاً واتصالاً وتكاملاً، ولا يتحقق أحدها بمعزل عن الآخر ولا يحقق الغاية المرتجاة منه بدونهما.

ولكن الزمن ليس في صالحنا، فلنحث الخطا قبل أن نجد أمامنا لغات عربية علمية في الوطن العربي بدل لغة علمية واحدة، نتيجة الجهد اللغوي العلمي الذي يبذل في هذا القطر أو ذاك والمفتقر إلى التواصل وإلى التخطيط والتنسيق، ذلك أن الاختلاف في المصطلح يزداد ويتعمق مع الزمن بفعل انتشار الثقافة والعلم وتعدد المؤلفين والمترجمين.

وإن تنسيق المصطلح وتوحيده على صعيد الوطن العربي أمران ضروريان، بل لقد آن الوقت كي نبحث طريقة الالتزام أو الإلزام بما يتفق عليه عربياً في مؤتمرات التعريب.

ج ـ الخاتمة

إن شعوباً أقل من أمتنا تعداداً وأصغر رقعة أرض وأضأل تراثاً وأفقر مالاً، قد جعلت من لغاتها لغة علم وترجمت وتترجم ما ينبغي أن تترجم ودرّست بلغاتها ووضعت موسوعاتها، ونحن مازال بيننا من يناقش في مبدأ التعريب ويشك في جدواه.

إن تعريب العلم وتعريب التعليم ليس خياراً من خيارات عدة، بل هو الخيار الوحيد أمام أمتنا، من المحيط إلى الخليج. لم يعقد اجتماع أو يلتئم مؤتمر إلا واتخذ توصيات أو قرارات في هذا الموضوع دون أن تقترن بالتطبيق. إن الأمر بحاجة إلى قرار سياسي حازم على مستوى كل قطر وعلى مستوى جامعة الدول العربية.

إن الدعوة إلى تعريب العلم ليس تعصباً للعربية، وإن كان التعصب لها معزة ومفخرة لا مذمة ونقيصة، بل إن لهذه الدعوة دواعي وأسباباً غير خافية على كل متبصر:

ـ إن اللغة ليست أداة للقول ووسيلة للتعبير كما كان يقال، بل هي وسيلة التفكير وتجسيده، إنها الفكر نفسه في حالة العمل، وليس من فكر حيّ دقيق بدون لغة حيّة دقيقة.

ـ إن تعريب العلم هو تعريب للفكر.

ـ إن العربي الذي يقرأ كتاباً بلغته الأم يبذل مجهوداً واحداً لفهم مضمونه، ولكن من يقرأ كتاباً علمياً بلغة أجنبية يبذل مجهودين أحدهما لفهم اللغة لفظاً وعبارة وآخر لفهم المضمون.

ـ إن اللغة العربية ليست شيئاً منفصلاً عنا، كساء نرتديه عندما نشاء ونخلعه عندما نشاء، بل هي شيء منا نعيشه منذ الطفولة المبكرة حتى النفس الأخير.

ـ إن هذه اللغة قد استوعبت على مدى عشرات القرون ثقافتنا وحضارتنا، فغدت وعاءهما وأهم مقومات شخصيتنا وأبرز طابع لهويتنا القومية.

إنه لشرف عظيم لجيلنا أن ينهض بهذه المهمة التي أجيز لنفسي أن أدعوها رسالة قومية

إنسانية ، استكمالاً لما بذله أبناء الأجيال السابقة من جهود ، وأن يبلغ الغاية أو يقربها فيما بقي من سنوات هذا القرن .

إننا قد أعطينا العالم الكثير في مجالات العلم والفكر ، ومن حقنا أن نأخذ اليوم عن طريق الترجمة ما نحتاج إليه في معركتنا المتصلة للتغلب على التحديات التي تواجهنا وبناء مجتمع عربي متقدم ومتحرر وموحد . وإني لأعتقد أن هذا الموضوع « تعريب العلم » يقع في سياق حركة الإنسان العربي للتخلص من الجهل والتخلف اللذين أورثته إياهما عهود الغربة التي نأت به عن حقيقته وموقعه ، عهود القهر والتسلط والاستعمار ، وسعيه لاستعادة دوره في مسار الحضارة الإنسانية ، واجتهاده لاكتساب الجديد وادراك الحداثة مع حفاظه على الأصالة المتمثلة في تراثه الحضاري الضارب في أعماق التاريخ .

ولذا كان حرياً بنا أن ننزله المنزلة التي يستحق من تفكيرنا ، ونضعه في مقدمة مشروعاتنا ، ونوفر له المؤسسات والرجال والمال كيما يجد طريقه إلى النور .

الكتاب المترجم

دراسة قدمت في «ندوة واقع الكتاب العربي في السبعينات وآفاقه في الثمانينات» التي عقدها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت بالتعاون مع المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم واتحاد الناشرين العرب من ٨ ــ ١١/١١/١٩٨٢ في الكويت.

المقدمة

قبل الدخول في البحث عن الكتاب المترجم: واقعه ومشكلاته وطرق النهوض به لأداء دوره في المستقبل أداء أفضل، بوصفه أداة أساسية من أدوات المعرفة والثقافة، أقدم بإيجاز شيئاً عن معنى الترجمة ونشأتها.

أولاً ـــ شيء من اللغة

جاء في لسان العرب لابن منظور (يترجم الكلام أي ينقله من لغة إلى لغة أخرى، والشخص يسمى الترجمان وهو الذي يفسر الكلام).

وجاء في القاموس المحيط للفيروز أبادي (الترجمان كعنفوان: المفسر، وترجمه وترجم عنه، والفعل يدل على أصالة التاء).

وجاء في المعجم الوسيط الذي وضعه مجمع اللغة العربية في القاهرة (ترجم الكلام: بينه ووضحه، وترجم كلام غيره وعنه: نقله من لغة إلى أخرى، وترجم لفلان: ذكر ترجمته، والترجمان: المترجم وجمعه تراجم وتراجمة، وترجمة فلان: سيرته وحياته وجمعها تراجم).

وقد وردت كلمتا ترجمان وتراجم في شعر المتنبي. قال أبو الطيب يصف شعب بوان:

ملاعب جنة لو سار فيها سليمان لسار بترجمان

وقال يصف جيش الروم في معركة الحدث :

تجمع فيه كل لسن وأمة　　　　فما تفهم الحداث إلا التراجم

وقد ورد لكلمة ترجمة معنى واسع هو فسر وأوضح وأبان ، وبهذا المعنى استخدمها ابن النديم في كتابه الفهرست في معرض حديثه عن كتاب (كليلة ودمنة) عندما قال : فسره عبد الله بن المقفع ، فكأن التفسير والترجمة واحد ، غير أن الترجمة انتقل معناها بعد ذلك من الشمول إلى التخصيص ، أي : نقل الكلام من لغة إلى لغة أخرى .

ويستدل من ذلك كله على أن كلمة (ترجمة) ومثلها (ترجمان) و (تراجم) عربية النجار ، صريحة الأصل فصيحة لا لبس فيها ، وهي ليست من أصل أعجمي ولا محولة عن معنى آخر .

ثانياً ــ شيء من التاريخ

الترجمة قديمة قدم المجتمعات البشرية ، كانت وسيلة الاتصال والتفاهم بين كل جماعة تتكلم بلسان ما والجماعات الأخرى التي تتكلم بألسنة أخرى . ودواعي الاتصال والتفاهم كثيرة ، منها ما يتعلق بشؤون التبادل السياسي والتجاري والفكري في أيام السلم ، ومنها ما يتصل بشؤون النزاع والقتال ثم ما يعقبهما من تفاوض في أيام الحرب .

وقد وجدت ستمئة لوحة من الخزف المحروق في تل العمارنة بمدينة المنيا ، في البقعة التي تضم مدينة أخت أتون التي أسسها الفرعون أخناتون في القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، وقد يكون أخناتون قد أحضر أكثرها من طيبة إلى عاصمته الجديدة .

وهذه اللوحات مكتوبة باللغة الأكادية وبالخط المسماري ، وجاءت مصر من جهات عدة في الخارج : من بابل وآشور وبلاد الحثيين وجزر اليونان . وكانت مصر ترد على المراسلات باللغة الأكادية أيضاً ، فقد عثر الباحثون على بعض رسائل مصرية بين آثار الحثيين بهذه اللغة . ماذا يعني هذا ؟ إنه يعني أن اللغة الأكادية كانت في ذلك العصر لغة دولية تتخاطب بها دول مختلفة اللغات .

استدعت هذه الحال أن يكون لدى كل دولة عدد من المترجمين ينقلون إلى لغة بلادهم المراسلات الواردة بالأكادية ، ويسطرون بهذه اللغة وبالخط المسماري مراسلات بلدهم إلى البلدان الأخرى .

إذن فإن الترجمة كانت موجودة منذ ذلك الحين المغرق في القدم، ثم استمرت فيما تلا من زمن. وقد أجمع المؤرخون أن قياصرة الروم وأكاسرة الفرس كانوا يتخذون في دواوينهم تراجمة.

وليس عجباً أن تصطلح مجموعة دول على اعتبار إحدى اللغات لغة دولية تتم بها المخاطبات، فذلك أيسر من استخدام عدة لغات بمستوى واحد. كانت في حقبة ما اللغة الأكادية دولية، ثم دار الزمن دورته واللغة تعلو بعلو أهلها وتقوى بقوتهم وتنحسر وتضعف بانحسارهم وضعفهم، فإذا باليونانية، بعد فتوح الاسكندر المقدوني، تصبح لغة العالم المتحضر، ثم اللاتينية بعد سيادة روما وامتداد سيطرتها، ثم اللغة العربية بعد الفتوحات المؤزرة وانتشار الإسلام في بقاع الأرض. وبعد فترة صارت الفرنسية لغة دولية بعد الثورة الفرنسية وحروب بونابرت وظلت متقدمة لغات العالم قرناً ونصف القرن.

واليوم نشهد انتشار الانكليزية ورجحان كفتها في ميادين السياسة والاقتصاد والثقافة، مع وجود خمس لغات أخرى ذات أهمية واتساع، وهي اللغات التي اعتمدتها الأمم المتحدة ومنظمة اليونسكو والهيئات الدولية: الفرنسية والإسبانية والروسية والصينية والعربية.

إن الترجمة — كما نرى — حرفة قديمة اقتضاها وجود جماعات بشرية متعددة اللغات. ويواكب ازدهارها ازدياد الاتصال بين الأمم والشعوب وبين الدول والمنظمات ونمو التبادل التجاري واتساع المعارف البشرية. ولذا نجدها في هذا العصر الذي قصرت فيه المسافات بين البلدان، ونشط التواصل بين الناس على كل صعيد، ونشأ العديد من الهيئات وكثرت فيه الاجتماعات واللقاءات، وسعى كل شعب لمعرفة ما توصلت إليه الشعوب الأخرى في ميادين المعرفة، قد أصبحت ضرورة حيوية وبلغت مكانة مرموقة، وأحدثت لها الأقسام والمعاهد، ووضعت لها الأصول والقواعد، وراجت بكل تفرعاتها، من الترجمة الفورية إلى الترجمة الإدارية والإعلامية فالترجمة الثقافية والعلمية، وهي الترجمة التي يدور حديثنا حولها اليوم، والتي غايتها أن تنقل من لغة إلى لغة ما تبتكره العقول وتسطره الأقلام.

ثالثاً — البادرة العربية

لعل أول من بدأ التأليف في الفلسفة والعلم والأدب وتوسع فيه وأجاد هم الإغريق. وقد أعطى هذا الشعب النابه آثاراً فكرية باهرة، مثل مؤلفات هيرودوت وهوميروس وأفلاطون وأرسطو وبطليموس وفيثاغورس وأبو قراط وجالينوس وإقليدس في التاريخ والأدب والفلسفة والمنطق والفلك

والطب والرياضيات .. مستفيدين مما حصلت عليه الشعوب الأخرى من معارف وتجارب ومعلومات علمية .

وعندما تغلب الرومان على الإغريق واستولوا على بلادهم ، تأثروا بثقافتهم ، بل تكلم أكثر رجال الفكر والأدباء والمثقفين في روما اللغة اليونانية إلى جانب لغتهم اللاتينية ، ومع هذا لم يهتم الرومان بنقل الآثار الفكرية اليونانية إلى لغتهم .

أما فارس فقد ترجمت القليل عن الهند . ويذكر أن كتاب (كليلة ودمنة) الذي نقله عبد الله بن المقفع من اللغة الفهلوية ـــ الفارسية القديمة ـــ إلى العربية وزاد عليه ستة أبواب ، كان قد نقله الطبيب الفارسي برزويه بن أزهر من اللغة السنسكريتية التي كتبه بها الفيلسوف الهندي بيدبا لدبشليم الملك إلى اللغة الفهلوية ، ولكن هذا التواصل بين الثقافتين الهندية والفارسية ظل محدوداً .

ولذا يمكن القول : إن أول حركة واسعة ومنظمة للترجمة العلمية الثقافية بين الأمم ولغاتها ، إنما هي الحركة التي بادر العرب إلى القيام بها في عهد الدولة الأموية ، ثم تتابعت بقوة أكبر في العصر العباسي .

وتتميز هذه الحركة بثلاث صفات :

١ ـــ تعدد مصادرها

ترجم العرب عن الهندية ، ولا سيما ما يتعلق بالحساب والأرقام ، وممن ترجم منها منكة الهندي ، ومن الفارسية وممن ترجم منها ابن المقفع وآل نوبخت . ولكن المصدر الرئيسي الذي ترجموا منه واغترفوا من معينه ، هو المؤلفات اليونانية ، وممن ترجم منها حنين بن إسحق العبادي ويوحنا بن ماسويه وثابت بن قرة الحراني ويحيى بن عدي وآخرون كثيرون ...

٢ ـــ اتساعها

شملت حركة الترجمة في القرنين الثاني والثالث للهجرة شتى المعارف والعلوم : الرياضيات والفلك والفلسفة والمنطق والطب والكيمياء والهندسة والسياسة المدنية . أما الأدب فلم يترجموا منه إلا القليل ، مثل كتاب (كليلة ودمنة) ، ولم ينقلوا الأدب اليوناني لمخالطته الأساطير الدينية من جهة ، ولاعتزازهم بأدبهم شعره ونثره من جهة أخرى .

٣ ــ تنظيمها

بدأت الترجمة في عصر بني أمية بفضل خالد بن يزيد ، وترجمت في هذا العصر بعض كتب الكيمياء والطب ، إلا أنها نشطت أيام الدولة العباسية : أنشأ المنصور ديوان الترجمة فوسعه الرشيد ، ثم جاء المأمون فنظم هذا النشاط العلمي ، وأنشأ (بيت الحكمة)...

لقد كانت حركة الترجمة هذه السبيل إلى اطلاعهم على معارف ذلك العصر ، فتمثلوها فكانت منطلقهم إلى الكشف والإبداع .

رابعاً ــ بين العرب والغرب

ثم تتالت الأحداث على العرب وانتابتهم عوامل الضعف ، فطمع بهم الخصوم والأعداء ، وتتالت عليهم الفتن والحروب وتسلط الأعاجم على مقاليد الحكم ، فخبا النور الذي سطع قروناً وعمت الحياة العامة ومنها الجانب الفكري الثقافي مظاهر الخمول والركود .

واستفاقت أوروبا مما كانت تتخبط فيه من جهل واستسلام للخرافة بتأثير اتصالها بالعرب فأخذت تنهل من معين الثقافة العربية معتمدة على الترجمة . وكانت هذه الحركة نشيطة شاملة منحت الغرب القدرة على ادراك ثقافة العرب وعلومهم التي طالما أعجب بها ، ونقلها إلى اللاتينية فكانت اللبنة الأساسية في نهضته الحديثة التي ما زالت متصلة حتى اليوم .

ومرة ثانية بزغت شمس النهضة العربية في مطلع القرن الماضي في وادي النيل ، وقد أدرك العرب بعد غزوة بونابرت أن القوة المادية مردها التقدم العلمي فشرعوا في عهد محمد علي يسعون لتدارك ما فاتهم للحاق بالركب ، فأنشئت المدارس للطب والهندسة والبيطرة والزراعة والصناعات والفنون والإدارة ، وصدرت الصحف وأرسلت البعثات العلمية ، وكان للترجمة مدرستها ودورها في نقل العلوم والمعارف .

نشطت هذه الحركة حيناً وتعثرت حيناً آخر وانتقلت من مصر إلى بلاد الشام ثم إلى الأقطار العربية الأخرى ، وهي ما زالت حتى اليوم تتطلب المزيد من الدعم والمزيد من التخطيط والمزيد من الرعاية كيما تؤدي دورها وتبلغ هدفها .

لقد كان (الكتاب المترجم) حجر الزاوية في كل نهضة ثقافية، إنه الوسيلة دوماً لبلوغ الهدف وادراك القصد وتجاوز التأخر والرمز إلى تطلع الإنسان إلى تجاوز الواقع.

خامساً ــ أنواع الترجمة

يجري التفريق بين نوعين متميزين من الترجمة:

١ ــ الترجمة الشفوية الفورية

وجدت تلبية لاحتياجات التفاهم بين متكلمين بلغات مختلفة، وهي قديمة النشوء وصارت في العصر الحالي صناعة أو اختصاصاً قائماً بذاته له معاهده وبراجه وأصوله وأساليبه يرغب فيه الراغبون ولا يتقنه إلا المتفوقون.

٢ ــ الترجمة الكتابية

تتم بنقل المكتوب إلى مكتوب، ويفترض أن تكون هذه الترجمة أكثر دقة وأفضل أداء من الترجمة الفورية، لأن أداتها القلم والورق وتفسح المجال للتأني والإجادة وتلك أداتها الصوت واللسان ولا تفسح المجال لتأن أو إجادة.

وتتفرّع الترجمة الكتابية إلى فرعين:

أ ــ الترجمة الإدارية والإعلامية: وهي التي تدخل في عمل بعض الإدارات والدوائر والمؤسسات، والتي تعنى بنقل الأخبار والمقالات لوسائل الإعلام، ومثلها الترجمة السياسية والتجارية.

ب ــ الترجمة الثقافية والعلمية: وهي ترجمة الآثار والمؤلفات الفكرية والعلمية والأدبية والفنية من لغة إلى أخرى.

وهذا اللون من الترجمة عظيم الأهمية والأثر، لأنه طريق التبادل الثقافي بين الأمم والشعوب والسبيل إلى الرقي العلمي وإغناء المعرفة، وبالتالي هو دعامة التنمية الاقتصادية والاجتماعية وبناء الحضارة القومية المزدهرة.

وهذه الترجمة تنقسم بدورها إلى قسمين هما الترجمة العلمية والترجمة الأدبية:

١ ــ الترجمة العلمية : يقصد بها ترجمة العلوم الأساسية أو البحتة : كتب الرياضيات والفيزياء والكيمياء وعلم الحياة (البيولوجيا) وعلم الأرض (الجيولوجيا) وعلم النبات وعلم الحيوان ، وكتب العلوم التطبيقية : الطب والصيدلة والهندسات على أنواعها المختلفة وكتب التكنولوجيا والتقنيات .

تتميز هذه الترجمة بأنه ينبغي أن تتوافر لها الدقة والوضوح في المعنى ، مع صحة المصطلح وسلامة اللغة ، وليس مطلوباً فيها حسن الأسلوب وجمال العبارة .

ويشترط في المترجم اتقانه اللغة العربية واللغة المترجم منها بالإضافة إلى الاختصاص في المادة العلمية ، فالطب لا يترجمه غير الطبيب ، والكيمياء لا يترجمها إلا مختص بها .

أما كتب العلوم الاجتماعية والإنسانية ، فإلى جانب اقتضائها الشروط السابقة ، فإنها تحتاج إلى عبارة جيدة وأسلوب شائق . لأن القارىء يحرص على أن تكون هذه الكتب جيدة المضمون والشكل معاً ، فيستفيد ويستمتع ، ولذا فإن المترجم ينبغي أن يحسن تخير العبارة وإجادة العرض .

وتندرج تحت هذا العنوان كتب الفلسفة وعلم الاجتماع وعلم السكان وعلم التربية والنفس والتاريخ والآثار والجغرافية والاقتصاد والقانون والسياسة ...

٢ ــ الترجمة الأدبية : إن هذه الترجمة أصعب من الترجمة العلمية ، لأن النص الأدبي ليس فكرة فحسب ، بل ينطوي على أحاسيس المؤلف وتخيلاته ، وهو نص نسجته يد شاعر أو ناثر موهوب قصد أن يكون جميلاً ومثيراً . ولذا كان أمام المترجم أن يأتي بنص مقابل يتوفر فيه ، إلى جانب الأمانة في النقل، ما يبرز النص الأصل ولا يضعف أثره ولا ينقص من جماله . ولذا قيل بحق : لا يترجم الشعر إلا شاعر ولا ينقل الأدب إلا أديب .

ويقصد بكتب الأدب كتب الشعر والمسرحية والقصة والرواية ... وأما كتب النقد الأدبي والدراسات الأدبية ، فهي تقع موقعاً وسطاً بين الآداب وبين العلوم الاجتماعية والإنسانية موضوعاً وأسلوباً .

الكتاب المترجم واقعاً وطموحاً

إذا ما أردنا أن نتفحص حال الكتاب المترجم في الوطن العربي، كان علينا أن نتناوله من جوانب عدة كيما نتبين واقعه الراهن، ونستطلع مشكلاته، ونقف على حلول لهذه المشكلات، آخذين بالنظر فترة السبعينيات لنستطلع ما بعدها.

وأهم الجوانب الجديرة بالبحث هي: المؤسسات التي تتولى الترجمة، إدارةً ورعايةً وتنظيماً وتمويلاً، ثم المترجمون الذين ينهضون بأعباء الترجمة، وما يتصل بعملهم من شؤون علمية ولغوية وفنية، وبعد ذلك الكتاب المترجم نفسه من ناحية التداول والتسويق والتوزيع وما يعترض ذلك من صعوبات وعقبات.

أولاً ـــ مؤسسات الترجمة

إن مؤسسات الترجمة في الوطن العربي متنوعة، منها جهات وطنية، وجهات خارجية وأجنبية.

١ ـــ الجهات الوطنية

تنقسم الجهات الوطنية فئتين: فئة المؤسسات الحكومية الرسمية، وفئة المؤسسات الخاصة.

أما المؤسسات الحكومية فهي إدارات أنشأتها وزارات الثقافة أو التربية أو الإعلام أو التعليم

العالي أو الجامعات أو المجالس المختصة بالعلوم والآداب والفنون ، مثل مديرية التأليف والترجمة بوزارة الثقافة والإرشاد القومي بدمشق ، والمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت ...

وأما المؤسسات الخاصة فهي دور النشر التي تعمل في مجال الترجمة والتأليف ، تمارسه بمثابة نشاط ثقافي اقتصادي يستهدف الربح ، مثل دار دمشق في سورية والدار العربية للكتاب (دار تونسية ـــ ليبية) ... وفي أحيان قليلة يقوم أفراد بترجمة كتب بدافع شخصي وطبعها وبيعها لحسابهم الخاص .

٢ ـــ الجهات الخارجية والأجنبية

أ ـــ منظمة اليونسكو

تنفذ هذه المنظمة بانتظام منذ عام ١٩٤٨ ، برنامجاً يرمي إلى ترجمة المؤلفات الأدبية المكتوبة بلغات قليلة الانتشار إلى اللغتين الإنكليزية والفرنسية بصورة خاصة . ويتم اختيار هذه المؤلفات بناء على توصيات الدول الأعضاء واقتراحاتها ومشاورة لجنة من الخبراء يسميهم المجلس الدولي للفلسفة والعلوم الإنسانية بالنسبة للمؤلفات الكلاسيكية ، ومشاورة الاتحاد الدولي لنوادي القلم بالنسبة للمؤلفات التي كتبها معاصرون . وترعى اليونسكو كذلك في بعض الحالات ترجمات إلى غير اللغتين المذكورتين .

ويتم نشر هذه المترجمات اعتماداً على مخصصات اليونسكو لهذا الغرض ومساهمات الدول المعنية . مثال ذلك أن المجلس اللبناني لترجمة الروائع ينهض بنجاح ببرنامج ترجمات من اللغة العربية إلى اللغات الأجنبية ، ومن هذه اللغات إلى اللغة العربية على أساس من التعاون الوثيق مع منظمة اليونسكو . وبلغ ما ترجم من العربية إلى الفرنسية (١٤) كتاباً ، وإلى الإنكليزية (٧) كتب ، وإلى كل من الألمانية والإسبانية كتاباً واحداً ، ومن اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية (١٠) كتب .

وتنفذ منظمة اليونسكو برامج أخرى تحت عناوين مختلفة منها : المساهمة في نشاطات الدول الأعضاء ، الشعراء في العالم ، مداخل إلى الآداب الشرقية ، وبرنامج ترجمة كتب حول الاتجاهات الجديدة في تدريس العلوم .

ب ــ المؤسسات الأجنبية

تتولى بعض مؤسسات الترجمة والنشر الأجنبية نقل كتب إلى اللغة العربية ونشرها، فقد كانت مؤسسة فرانكلين تتولى ترجمة مجموعات من المؤلفات الأمريكية وتطبعها في بعض البلدان العربية، وتقوم دار نشر ليديبرد ودار نشر لونغمانز البريطانيتان، بالتعاون مع مكتبة لبنان في بيروت بترجمة سلاسل ليديبرد في مختلف الموضوعات لسائر الأعمار، وخاصة من مرحلة رياض الأطفال إلى نهاية المرحلة المتوسطة.

وكذلك هناك مؤسسات ومراكز إعلام أجنبية تقوم بترجمة كتب ودراسات خارج البلدان العربية، مثل مؤسسات الترجمة والنشر السوفييتية.

إن بعض مؤسسات الترجمة الحكومية في الأقطار العربية قديم النشأة، وبعضها حديثها، وهي متفاوتة فيما تصدره من كتب من حيث الكم والكيف، وثمة أقطار عربية لم تحدث فيها بعد مثل هذه المؤسسات.

ومن المهم أن نلحظ النقاط التالية عن واقع الترجمة في السبعينيات:

من الجدير بالذكر أن بعض هذه المؤسسات قد قام بعمل جزيل النفع. فقد أصدرت المؤسسات التالية خلال الأعوام ١٩٧٠ ــ ١٩٨٠ الأعداد الآتي ذكرها: وزارة الثقافة السورية (٢٨٥) كتاباً، وزارة التعليم العالي السورية (٧٠) كتاباً، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت (١٥٠) كتاباً، كما أصدرت المؤسسات الأردنية (٣٨) كتاباً، والمؤسسات الجزائرية (٣٩) كتاباً، والمؤسسات الليبية (٥٧) كتاباً مترجماً. وبالطبع شاركت في العطاء أيضاً دور النشر الحكومية ودور النشر الخاصة، وإن كنا لا نملك إحصاءات عن هذه الدور الأخيرة.

ولكن المتتبع لحركة النشر يلاحظ أن حجم الإنتاج الفكري عامة، ترجمة وتأليفاً، ما يزال دون الحد المطلوب، سواء بالقياس إلى عدد السكان أو بالقياس إلى الحاجات الفكرية والتعليمية. وثمة نقص واضح في ميدان الترجمة في بعض المجالات الهامة كالزراعة والنفط والصيدلة والطب والتمريض والالكترونيات وغير ذلك من الموضوعات العلمية والتقنية... ولعل من الأسباب الوجيهة في هذا النقص، أن التعليم الجامعي ما زال في أكثر البلدان العربية غير معرب في الأقسام العلمية، أي يقدم للطلبة بإحدى اللغتين الإنكليزية أو الفرنسية. ومن هنا لم تترجم الكتب المنهجية العلمية

الجامعية إلى العربية ولا الكتب المرجعية الموسعة ولا الدراسات والبحوث العلمية، إلا في حدود ضيقة جداً في بعض الأقطار العربية، لأن المدرس والدارس يجدان بغيتهما باللغة الأجنبية.

إن تعريب التعليم بكل مستوياته وتخصصاته، ينشط حركة الترجمة ويزيدها فعالية وأثراً في الثقافة القومية، ولكن من الحق أن يقال: إن الترجمة بدورها إذا أحكم التخطيط لها يمكن أن تساعد على التعريب وتشجع عليه عندما توفر له الكتب الصالحة للتدريس.

إن التعريب يجد في الترجمة مدده وغذاءه، والترجمة تجد في التعريب أثرها وجدواها.

ومع تقدير الجهود التي بذلتها مؤسسات الترجمة حكومية وخاصة، لا بد من إبداء الملاحظات التالية عن انتاجها في السبعينيات وما قبلها:

أ ــ لم تف هذه الحركة بالحاجات الملحة والمتنوعة للمجتمع العربي، ولم تراع تماماً تطوره الاقتصادي والاجتماعي والثقافي وآفاق هذا التطور في المستقبل.

وقد صدرت عن دور النشر كتب كثيرة ليست بذات نفع للقراء أو لا تحمل لهم إلا اليسير منه، في حين أن كتباً تعالج موضوعات مهمة جداً لم تتصد لها هذه الدور لأسباب شتى.

ب ــ لم تلتزم هذه المؤسسات بمعايير دقيقة من ناحية الأداء اللغوي واستخدام المصطلح. ولذا نجد إلى جانب المؤلفات والترجمات المتقنة، العديد من الترجمات التي تفتقر إلى الدقة العلمية واللغوية، وتعوزها أبسط الشروط الواجب توافرها من حيث المضمون والشكل.

جـ ــ يغلب على هذه المؤسسات الطابع القطري، تخطيطاً وتنفيذاً، تمويلاً وتوزيعاً، وما زال التعاون العربي في هذا المجال في حده الأدنى أحياناً ويكاد ينعدم في أحيان أخرى.

٣ ــ المؤسسة العربية للترجمة

من هنا يبدو أن الحاجة ملحة إلى قيام مركز أو مؤسسة تعنى بالتعريب والترجمة والتأليف والنشر، وتتمتع بصفتين أساسيتين: الأولى أن تكون مؤسسة عربية تنهض بجهد عربي شامل، وتستفيد من الطاقات العربية المتوفرة، وتستهدف خدمة التعريب والتثقيف العام في الوطن العربي

كله ، والثانية أن تكون مؤسسة قادرة من حيث التمويل والتخطيط والتنفيذ ، وتعتمد على جهاز إداري وفني قدير .

إن مثل هذه المؤسسة لا تحل محل المؤسسات الحكومية والخاصة التي تعمل في مجال الترجمة ، بل تكمل عملها وتكون علاقتها بها علاقة تعاون لا تنافس : إنها (بيت الحكمة) مرة جديدة .

إن الثقافة العربية في اتساع وانفتاح متزايدين على ثقافات العالم ، وتعريب التعليم بجميع مستوياته وتخصصاته صار مطلباً ملحاً ، ولذا سيكون دور الترجمة الثقافية والعلمية أكبر منه في أي عهد مضى ، ولا بد في هذه الحال من مؤسسة قومية قادرة ، ولا بد كذلك من أن تنشط المؤسسات الحكومية والخاصة القائمة ، بل وأن تقوم مؤسسات قطرية جديدة ، شريطة أن يتوفر لهذا العمل المتسع الكبير قدر ملائم من التخطيط والتنسيق .

وإني لأخشى أن يظن ظان أننا نحن العرب نهتم وحدنا بالترجمة ، لأننا نستشعر تقصيراً في ميدان العلوم والتكنولوجيا في هذا العصر بالنسبة إلى الدول المصنعة المتقدمة ، ونحاول أن نتدارك هذا التقصير بطريق ترجمة أمهات الكتب في هذه الموضوعات ، وأن الدول التي قطعت شوطاً من التقدم لا تحتاج إلى الترجمة . ذلك أن واقع الحال خلاف ذلك ، أي أن الترجمة أكثر ما تكون نشاطاً في الدول المتقدمة ، لأن التنافس في ميدان المعرفة ، ولا سيما المعرفة العلمية التكنولوجية ، والحرص على الاطلاع على اكتشافات العلماء وأبحاثهم بلغات أخرى ، يدفع الدول المتقدمة إلى الاهتمام بالترجمة كل إلى لغتها . ويكون حجم الترجمة من لغة ما تبعاً لما يؤلف بها من مصنفات تتميز بالإبداع العلمي أو الأدبي أو الفني ، ونذكر على سبيل المثال أن عدد الترجمات عام ١٩٧٣ من الإنكليزية إلى غيرها من اللغات (١٨٫٣٥٠) ومن الفرنسية (٥٫٩٩٣) ومن الروسية (٥٫١١٣) ومن الألمانية (٤٫٢٧٧) ومن الإسبانية (١٫٣٦٨) ومن الإيطالية (١٫١٣٦) .

وبلغ ما ترجمته منظمة اليونسكو وحدها خلال السنوات الثلاثين الأخيرة ما يزيد عن (٦٠٠) كتاب ، ضمن مجموعة واحدة هي مجموعة الأعمال الممثلة لآداب بلدانها .

وتبلغ نسبة المترجم إلى المطبوع مؤلفاً ومترجماً معاً حوالي (٩ ٪) في العالم ، في حين أن هذه النسبة لا تتوافر عادة في البلدان العربية ، فإن دليل الكتاب المصري لسنة ١٩٧٦ الذي تصدره الهيئة

المصرية العامة للكتاب ضم ثبتاً لـ (١٦٢٠٠) عنوان ، منها (١١٤٣) عنواناً لكتب مترجمة ، أي بنسبة (٧٫٠٦٪) .

٤ ـــ أسلوب العمل ـــ الاختيار

يلاحظ أن أسلوب العمل متشابه لدى المؤسسات العربية الحكومية للترجمة والنشر ، ولبعضها أنظمة مفصلة تضبط أعمالها . أما اختيار الكتاب المراد ترجمته ، فهو حجر الزاوية في العملية ونقطة الانطلاق ، فيتم من قبل الإدارة المختصة منفردة حيناً أو يبت بشأنه خبير أو لجنة حيناً آخر ، ثم يجري تكليف المترجم بواسطة مراسلة أو عقد أصولي . وبعد انجاز الترجمة يجري فحص المخطوط والنظر في أمر مراجعته .

إن اختيار الكتاب هو حجر الزاوية كما أسلفنا ، وذلك لأن الإنتاج الفكري في العالم المتقدم قد بلغ من حيث الكيف والكم حداً معجزاً ، ولذا يلزم عند الاختيار :

١ ـــ انتقاء ما يلبي حاجة أساسية لدى فئة من فئات القراء ، أو يلبي متطلبات التقدم والرقي اللذين ينشدهما المجتمع العربي .

٢ ـــ أن تراعى (الحداثة) بالنسبة للكتب العلمية ، إذ إن لهذه الكتب أعماراً تقصر باستمرار بسبب التطور السريع الذي يطرأ على المعارف في الحقبة الأخيرة .

٣ ـــ إيجاد (توازن) بين الأنواع المختارة كيلا نغفل نوعاً نحن بحاجة إليه ، مع وضع سلم أفضليات لأنواع الكتب التي نحن بحاجتها ، ومراعاة تعدد المصادر واللغات المترجم عنها كيلا نقف عند مصدر واحد أو لغة واحدة .

٥ ـــ حقوق المؤلف

إن من الموضوعات المتصلة بمؤسسات الترجمة والنشر حكومية كانت أم خاصة ، موضوع مراعاة حقوق المؤلف واحترامها والاستئذان من المصدر الأصلي : المؤلف والناشر .. وليس الوضع إزاء هذه القضية موحداً في الأقطار العربية ، ففي حين تراعي بعض المؤسسات هذه الحقوق ، وتدفع المقابل النقدي المترتب على ترجمة الكتاب ، تعتبر مؤسسات أخرى أن هذا الأمر يعوق الترجمة لما يتطلب من إجراءات إدارية والتزامات مالية تتعلق بالمؤلف والناشر الأصلي ، وأن الدول المصنعة

المتقدمة المنتجة للكتب الثقافية ولا سيما العلمية قد أخذت منا الكثير فلا ضير إذا نحن أخذنا منها القليل..

وإلى أن يجد هذا الموضوع حلاً شاملاً، وفي اعتقادي أن الأقطار العربية ستنضم عاجلاً أو آجلاً إلى الاتفاقات الدولية لحقوق المؤلفين، نجد من الضرورة بمكان أن تصدق جميع الدول العربية الاتفاقية العربية لحماية حقوق المؤلف، التي أقرها مؤتمر الوزراء المسؤولين عن الشؤون الثقافية في الوطن العربي المنعقد في دورته الثالثة ببغداد من ٢ ــ ٥/١١/١٩٨١ مع التقيد بتنفيذ أحكامها.

ثانياً ــ المترجمون

إن الكتاب المترجم ــ إذا أحسن اختياره لقيمته العلمية أو الأدبية أو الفنية باللغة الأصل التي ألف بها ــ بحاجة إلى المترجم الجيد لينقله إلى اللغة العربية، ورب مترجَم يضاهي الأصل معنى ومبنى، ومترجَم حاد عن الأصل أو صار صورة شوهاء عنه.

إن الترجمة الجيدة تخضع لشروط أهمها: الأمانة في النقل، والدقة في اختيار اللفظ، ووضع المصطلح الصحيح موضعه، والإيضاح في التعبير، والإسراع في الإنجاز.

فهل يتوافر في الوطن العربي مترجمون مجيدون؟ إنهم قلة بالنسبة لمن يقوم بالترجمة، وأقل من القلة بالنسبة إلى العدد المطلوب لمواجهة عملية نقل المعرفة إلى العربية نقلاً حسناً وعلى نطاق الحاجة واتساع الطموح.

لقد أحصت إحدى مؤسسات الترجمة الحكومية عدد من تعاون معها من المترجمين فبلغ (١٦٣) مترجماً، ولكن بعد تفحص إنتاجهم وتقويمه تبين أن (٧٥) منهم ثبتت كفاءتهم فتكون النسبة (٤٥٪).

١ ــ تكوين المترجمين

لقد أشرنا في حديثنا عن الترجمة العلمية إلى أنه يشترط في المترجم إتقانه اللغة العربية واللغة المترجم منها، بالإضافة إلى الاختصاص في المادة العلمية، فلا يترجم الطب إلا الطبيب، وأشرنا في

حديثنا عن الترجمة الأدبية أنه لا يترجم الشعر إلا شاعر ، ولا ينقل الأدب إلا أديب ، فكيف يكون تكوين المترجمين إذن؟ تفصيل ذلك كما يلي :

أ ـــ إن المترجم ينبغي أن يكون متقناً اللغة العربية صرفها ونحوها وإملاءها ، ملماً ببلاغتها وحسن بيانها .

ب ـــ وينبغي أن يتقن لغة أجنبية إتقاناً كاملاً ، ومن الأفضل أن يتقن لغتين اثنتين لتكون خياراته أوسع ومقارناته أفضل .

ج ـــ وينبغي أن يكون مختصاً في المادة العلمية المترجمة ، في الترجمة العلمية ، وأن يكون ذواقة للأدب أو أديباً في الترجمة الأدبية .

إن العناية بتدريس اللغات في المدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية : اللغة العربية واللغات الأجنبية ، يوفر الشروط الأولى لمترجمين نابهين في كل ميدان من ميادين المعرفة ، ثم إن للممارسة دورها الكبير في هذا المجال .

وثمة شرط هو سر النجاح في الترجمة ، باعتبارها إنتاجاً فكرياً يداني التأليف ويقارب الإبداع ، ألا وهو الرغبة الشخصية في ممارسة الترجمة ، فلا يؤديها المترجم وجلاً أو خجولاً أو مرغماً بل ينصرف إليها مختاراً مسروراً راضياً ، فيسهل عليه عسيرها وينقاد له جموحها .

والترجمة بعد ليست عودة إلى التراث بل هي إضافة إليه ، وليست عطاء من الذات بل أخذ من (الغير) ، إنها ليست انغلاقاً على الماضي أو الذات بل انفتاح على الجديد الذي لدى الآخرين .

وفي الوقت ذاته ليست الترجمة تنكراً للموروث من الثقافة ، بل هي إغناء له ، وليست انسلاخاً من الأصالة بل هي تأصيل الجديد . إن مثقفاً لا يعيش عصره ، ولا يؤمن بالتعاون والتواصل بين البشر ، ولا يتمتع بفكر متفتح خلاق ، لا يستطيع أن يكون مترجماً ، بل لا يقدر أن يكون قارئاً ومستفيداً .

نعود إلى القول : ما السبيل إلى مساعدة المترجم على الإجادة في الصنعة إن هو ملك أسبابها؟

يمكن أن نذكر الأمور التالية :

أ ـــ إقامة دورات تدريبية لتدارس الأصول والأساليب لكل فئة من فئات المترجمين .

ب ـ إتاحة الفرصة للمترجمين لحضور المؤتمرات والندوات والاجتماعات واللقاءات التي تتعلق بميدان ترجمتهم.

جـ ـ منح المترجمين أجوراً مجزية والإعلان عن جوائز تعطى للمتفوقين منهم.

٢ ـ مدارس الترجمة

وثمة سؤال: هل يستفاد من خريجي مدارس الترجمة ومعاهدها في مجال الترجمة العلمية والثقافية.

إن هؤلاء الخريجين يتم إعدادهم لممارسة الترجمة الفورية والترجمة الإدارية والإعلامية والسياسية والتجارية، وهذه ميادين هامة تعتمد على الترجمة في عملها اليومي، إلا أن التجربة قد دلت أن أقلية من خريجي هذه المدارس والمعاهد يمكنها أن تترجم كتباً في الموضوعات التاريخية والاقتصادية والأدبية والتنموية والتربوية، إذا اجتمع لها مع الإعداد والتأهيل ميل وموهبة وممارسة.

ومن الجدير بالذكر أن ثمة مدارس ومعاهد وأقساماً جامعية عدة لإعداد المترجمين: المدرسة العليا في الجزائر ١٩٦٤، مدرسة القاهرة ١٩٦٨، مدرسة القاهرة الثانية ١٩٧٤، قسم الترجمة بمعهد بورقيبة بتونس ١٩٧٨، قسم الترجمة في جامعة الموصل ١٩٧٦، قسم الترجمة في الجامعة المستنصرية ١٩٧٦، ودبلوم الترجمة في جامعات دمشق وحلب وتشرين ١٩٨٢، ومراكز اللغات والترجمة في جامعتي عمان واليرموك ١٩٨٢، ومدرسة الترجمة في جامعة القديس يوسف ببيروت ١٩٨٠.

هذا وقد وافق مجلس جامعة الدول العربية في شهر آذار / مارس ١٩٨٢ على إحداث معهد عربي للترجمة يكون مرتبطاً بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، يقبل حملة الإجازة في الآداب ويكون التدريس فيه مدة سنتين، لإعداد مترجمين فوريين ومترجمين كتابيين بمستوى عال لسد الحاجة إلى هذه الفئة في المنظمات الدولية والإقليمية والوطنية.

٣ ـ الترجمة والمراجعة

ثمة من يقول: إن المراجعة ليست واجبة، وأنه يتحتم أن يتحمل المترجم مسؤولية الترجمة كاملة، وقد يميل المترجم إذا علم أن ثمة من يراجع عمله، إلى التراخي في ضبط الترجمة اعتماداً على

أن هناك من يدقق عمله ويسد فجواته. والرأي الآخر أن المراجعة واجبة، وأن الفرد مهما جد تفوته أمور تنتقص من قيمة الترجمة فيتداركها المراجع.

وتبين التجربة أن المراجعة تكون واجبة في أحوال وغير واجبة في أحوال أخرى، ويرجع تقدير الأمور إلى المشرفين على مؤسسات الترجمة.

وعلى أية حال فالمراجعة في اعتقادي نوعان:

١ ــ المراجعة اللغوية

تستهدف التثبت من سلامة اللغة العربية من حيث بنية الجملة وتركيبها، ومن حيث الضبط القاعدي في الصرف والنحو، تلافياً للأخطاء التي شاعت مؤخراً عند المؤلفين والمترجمين وفي الكتب العلمية والأدبية على السواء.

٢ ــ المراجعة العلمية

تستهدف التثبت من سلامة النص من الناحية العلمية، فقد يغفل المترجم عن جملة أو حاشية أو تعليق أو رقم أو يخطىء في إيراد معادلة، فيكون عمل المراجع سدَّ النقص وتلافي الخطأ.

وبعد كيف نختار المراجع؟

في حالات يتعذر اختيار مراجع لما يتمتع به المترجم من الثقة والمقدرة والشهرة. وعندما نحتاج لاختياره يفترض فيه أن يكون أطول تجربة وأرسخ قدماً وأوفر خبرة من المترجم من سائر الجوانب المتعلقة بموضوع الكتاب المترجم.

٤ ــ تشجيع المترجمين

إن الأجور التي تدفع للمترجمين باسم تعويضات أو جوائز أو مكافآت لقاء عملهم، ما تزال حتى الآن وفي أغلب الأحيان غير مجزية ودون الحد المطلوب ولا سيما أنهم يقومون بعمل الترجمة في أوقات راحتهم لكونهم غير متفرغين لها.

إن مكافأة المترجم تحسب على أساس الكلمة في النص الأجنبي، وللمراجع نسبة من مكافأة المترجم.

إن إعادة النظر في سلم أجرة الكلمة واجبة بين سنة وأخرى، مراعاة لارتفاع تكاليف المعيشة من جهة وتقديراً للجهد الذهني الذي يبذله المترجم.

ومن الممكن أن يشجع المترجمون ولا سيما المجيدون منهم، بتقديم جوائز تشجيعية لمن يترجم أفضل كتاب علمي أو أدبي أو فني، وجوائز تقديرية لأفضل مترجمين في مجال ما، على مجمل إنتاجهم، تقديراً لما قدموا للثقافة العربية من خدمة جلى.

ليس في ميدان الترجمة تفرغ حتى الآن، فالترجمة تمارس إلى جانب أعمال أخرى، والمترجمون هم أساتذة في الجامعات ومدرسون في الثانويات ورجال قضاء وإدارة، يمارسون الترجمة بدافع الميل الفكري أو لتحقيق إنتاج علمي أو أدبي أو للحصول على دخل إضافي.

وإنه ليظل هدفاً واجب التحقيق أن يتفرغ المترجمون المجيدون لعمل الترجمة، وتكفل المؤسسات لهم حياة كريمة.

٥ ــ جمعيات المترجمين واتحاداتهم

إن الترجمة عمل قائم بذاته ومستقل عن كل عمل آخر، ونتيجة ذلك ينبغي أن يلتقي المترجمون في تنظيم مهني: رابطة أو جمعية أو اتحاد يعمل على الرقي بمستوى العمل، يحدد الواجبات ويدافع عن الحقوق.

وقد دلت المعلومات التي تم الحصول عليها، على وجود اتحاد للمترجمين في الجمهورية العراقية وفي الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، في حين أنهم يقبلون أعضاء في اتحاد الكتاب العرب في الجمهورية العربية السورية، وأعضاء في رابطة الأدباء والكتاب والفنانين في الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية.

إن تمييزاً ما كان قائماً بين التأليف والترجمة، فيرجح التأليف على الترجمة وتعتبر الترجمة دونه، ولكن هذه النظرة أخذت تتعدل بعد أن ثبت أن الترجمة تحتاج إلى مؤهلات ومواهب لا تقل عما يحتاج إليه التأليف... وبالتالي صار ممكناً أن تشكل للمترجمين اتحادات مستقلة، غير أن ثمة شروطاً أخرى ينبغي توافرها:

١ ــ أن يوجد في قطر ما عدد من المترجمين يمارسون الترجمة دون انقطاع.
٢ ــ أن توجد في القطر مؤسسات تقدم للمترجمين الممارسين عملاً مستمراً.

٣ ــ أن يحظى الكتاب المترجم بالتقدير اللائق به وتقام له المعارض وترصد له الجوائز.

إن توافر هذه الشروط يستتبع قيام روابط واتحادات ... ولكن عدم توافرها كاملة في الحاضر لا يعفينا من السعي لإقامة اتحادات قطرية في بعض الأقطار إن لم يكن في جميعها ثم إنشاء اتحاد عربي عام.

ثالثاً ــ الكتاب المترجم

إن الكتب المترجمة في قطر ما يمكن أن ينظر إليها من زاويتين: زاوية الكم، إذ يجب أن يتناسب عددها مع عدد السكان، قلة وكثرة، ومع الحاجات التعليمية والثقافية للشعب، وكذلك من زاوية الكيف أي ينبغي أن تكون موضوعاتها ملبية للوضع الاقتصادي والاجتماعي والثقافي وخط التطور الذي يسير فيه القطر.

١ ــ أرقام ومعلومات

ويمكننا أن نستعرض الأرقام والمعلومات التي وردت في الدراسات التي حصلت عليها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم من بعض الأقطار العربية عن الفترة الواقعة بين عام ١٩٧٠ وعام ١٩٨٠، لنستطلع الوضع القائم ونصل إلى بعض الاستنتاجات:

بلغ عدد الكتب المترجمة التي صدرت في الأردن خلال السنوات العشر الأخيرة ١٩٧٠ ــ ١٩٨٠ (٣٨) كتاباً موزعة كما يلي:

آثار وسياسة	٢
آداب	٨
تراث وتاريخ	٩
تربية واجتماع	٧
علوم أساسية	١٢
المجموع	٣٨

ويستنتج من ذلك أن العدد قليل لعدم وجود مؤسسات ناشطة في ميدان الترجمة والنشر ، كما أن العدد الأكبر من هذه الكتب في موضوعات أدبية وتاريخية وتراثية وتربوية ، وهذا عكس ما ينبغي في بلد آخذ بأسباب التقدم العلمي والتقين . وقد أحسن مجمع اللغة العربية الأردني بإصداره خمسة كتب علمية ، والجمعية العلمية الملكية بإصدارها سبعة كتب علمية للأطفال .

ومما يلفت النظر أن الترجمة من العربية إلى اللغات الأجنبية ، نشطت هذه الفترة في الأردن فبلغ عدد الكتب المعجَّمة اثني عشر كتاباً ، وهو عمل جدير بالمتابعة والتشجيع .

وتضمنت الدارسة عن الترجمة في القطر الجزائري كشفاً بما ترجم خلال السنوات العشر ١٩٧٠ ــ ١٩٨٠ فبلغ العدد (٣٩) كتاباً موزعة كما يلي :

التاريخ	١٣
الأدب والثقافة العامة	٢١
التربية	٣
القانون والاقتصاد	٢
المجموع	٣٩

وتبين الدراسة بإسهاب أسباب قلة الترجمات ، وتتوقع أن تنشط بعد أن صدرت التشريعات والأنظمة المتعلقة بهذا القطاع .

وقدمت الدراسة عن واقع الترجمة في القطر العربي السوري كشفاً بما ترجمته بعض المؤسسات الحكومية والخاصة خلال الفترة الزمنية المذكورة :

أصدرت مديرية التأليف والترجمة بوزارة الثقافة والإرشاد القومي خلال السنوات العشر ١٩٧٠ ــ ١٩٨٠ (٢٨٥) كتاباً مترجماً موزعة كما يلي :

الآداب والفنون	٥٥
الفلسفة	٣٧
التنمية والعالم الثالث	٢٥
العلوم	١٩
الاقتصاد	٢٢
المذاهب الاقتصادية والاجتماعية	١٨
النقد	٢٥
المسرح	١٣
علم الاجتماع	١٣
تاريخ الأدب	٤
علم النفس	٣
التربية	٥
السينما	٢
التاريخ والسياسة	١٦
القضية الفلسطينية	٤
قصص الأطفال	٢٤
المجموع	٢٨٥

وأصدرت مديرية الترجمة بوزارة التعليم العالي (٧٠) كتاباً موزعة كما يلي:

الرياضيات	١٨
الكيمياء	١٠
الفيزياء	٩
الهندسة	١٠
تخطيط تربوي	٤
علم اجتماع	٤
أدب ومسرح	٤
الطب	٤
طب أسنان	١
بيولوجيا	١
لسانيات	١
مكتبات	١
في التراث العلمي	٣
المجموع	٧٠

وأصدرت دور النشر الخاصة ما ينوف عن مائة كتاب مترجم.

يستنتج من هذه المعطيات أن وزارة الثقافة والإرشاد القومي، عمدت إلى شكل من أشكال التوازن بين الأنواع المترجمة: آداب، علوم اجتماعية وإنسانية، علوم طبيعية، محاولة أن تستجيب لحاجات الفئات المختلفة من القراء: الكبار والصغار والمهتمين بالعلوم والمهتمين بالآداب والإنسانيات، في حين أن وزارة التعليم العالي قد انصرفت إلى إصدار كتب علمية وتقنية موسعة لتكون مراجع للمدرسين والدارسين في الجامعات والمعاهد التقنية، رفداً للكتب التدريسية المقررة أو المنهجية.

وأعطتنا الدراسة الموضوعة عن واقع الترجمة في الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية في السبعينيات، قائمة تتضمن (٥٧) كتاباً مترجماً موزعة كما يلي:

التاريخ	٣١
الجغرافيا	٦
آثار ورحلات	٢
فلسفة	١
قصص	٥
مسرح	٣
شعر	١
اقتصاد	١
طب	٢
علوم	٣
نفط	١
فكر سياسي	١
المجموع	٥٧

وقد رجح في هذه القائمة جانب الأدب والعلوم الاجتماعية على جانب العلوم الأساسية والتطبيقية.

إن تحقيق توازن بين أنواع المعارف من جهة، وربط حركة الترجمة بحركة المجتمع: حاجاته وتطلعاته، وإيجاد تكامل بين النشاطات في ميدان الترجمة في الأقطار العربية، باعتبار أن الساحة الثقافية العربية ساحة واحدة، كل هذا يتطلب وضع خطة لعمل الترجمة على صعيد كل قطر على حدة، ووضع خطة عربية شاملة تنسق بين الخطط القطرية وتكملها وتدفعها نحو الأفضل والأشمل.

٢ ــ تداول الكتاب وتوزيعه

يلاحظ مما تضمنته الدراسات، ومن النتائج التي تحرزها المعارض التي تنظم للكتاب المؤلف والمترجم على السواء، أن رواج الكتاب المترجم في القطر الذي ينشر فيه، رواج حسن مقبول، بل يفوق أحياناً توقعات المسؤولين عن ترجمته ونشره. ومما يساعد على ذلك أن مؤسسات

النشر الحكومية تعمد إلى بيع الكتاب المترجم بسعر التكلفة ، وأحياناً بأقل منها ، على اعتبار أنها بذلك تؤدي خدمة ثقافية للمواطنين .

بيد أن تداول الكتاب بين الأقطار العربية ليس مرضياً وتحول دونه عقبات كثيرة ، منها المراقبة وكلفة الشحن والرسوم المالية والجمركية والإجراءات الإدارية والمصرفية .

وفي وسع الدوائر الحكومية المختصة أن تخفف هذه القيود وتتفق على أجور شحن مخفضة ، وغيرها من التدابير التي تساعد على انتقال الكتاب وتداوله .

ومن الطرق السريعة في هذا المجال عقد اتفاقيات ثنائية امتداداً للاتفاقات الثقافية المعقودة بين البلدان العربية ، تتضمن تسهيل تداول الكتاب وانتقاله من قطر إلى قطر ، بل تتضمن مشروعات مشتركة في الترجمة والطبع والنشر .

ومن وسائل ترويج الكتاب المترجم :

١ ــ الإعلان عنه والتعريف به في الصحف والمجلات ووسائل الإعلام المختلفة .
٢ ــ إقامة معارض متنقلة للكتب المترجمة ، تنقل من قطر إلى آخر مع منح حسم للمشترين .

رابعاً ــ التخطيط والتنسيق

إن الواقع الراهن للترجمة في الوطن العربي ، يقتضي حرصاً على بلوغ الهدف منها وجني الثمرات مما يبذل من مجهودات ، إيجاد تخطيط في العمل وتنسيق له على المستويين القطري والقومي ، ونأمل أن يتم ذلك ويعطي في الثمانينيات بعض النتائج المرجوة .

وقد أنيط العمل على إيجاد هذا التغيير بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، بوصفها الهيئة الموكول إليها رعاية شؤون الثقافة والتربية والعلم في الوطن العربي . وبناء على قرارات المؤتمر العام للمنظمة ومجلسها التنفيذي ، أحدثت وحدة للترجمة في نطاق إدارة الثقافة بدأت عملها في منتصف عام ١٩٨١ .

وقد وضعت هذه الوحدة ، على أساس معطيات كثيرة ، منها عدة دراسات عن واقع الترجمة في الأقطار العربية تتضمن شرحاً وتفصيلاً عن الأمور الجارية ، ومقترحات بناءة حول ما يجب أن

تكون عليه الحال، مشروع خطة للترجمة عرض على المجلس التنفيذي للمنظمة، في دورته الثلاثين المنعقدة بالحمامات في تونس في شهر أغسطس/آب ١٩٨٢ فحظيت بالموافقة.

وقد أبلغت المنظمة هذه الخطة اللجان الوطنية في الأقطار العربية لتعممها على الجهات الرسمية والأهلية المعنية بالترجمة، وتطلب العمل على تنفيذها وإعلام المنظمة بما يتم إبداؤه حولها من ملاحظات.

وبعد أن عرضت الخطة إلى حال الترجمة اليوم، وحددت ملامحها المستقبلية، مبينة المنطلقات والأهداف والأسس والوسائل والمراحل وطرائق التنفيذ، أشارت بوضوح أن تنفيذ هذه الخطة لا يتم إلا على أساس التعاون الفعلي بين المنظمة والأجهزة والمؤسسات المختصة في البلدان العربية، وأن للمنظمة دوراً في هذا العمل وأن لكل قطر دوراً أيضاً يكمل واحدهما الآخر.

١ ـ دور البلدان العربية

دعت الخطة الأقطار العربية إلى الأخذ بالأمور التالية:

أ ـ دعم مؤسسات الترجمة والنشر الحكومية لتنهض بمهمتها على الوجه المطلوب ومساندة دور النشر الخاصة وتشجيعها.

ب ـ إحداث مؤسسات للترجمة والنشر، أو التشجيع على إحداثها في الأقطار التي لا تتوافر فيها أو التي ليس فيها العدد الكافي.

ج ـ إصدار التشريعات لتنظيم حركة الترجمة والرقي بها.

وقد حثت الخطة على أن يُنشأ في كل قطر جهاز (هيئة أو لجنة دائمة) تتمثل فيه مؤسسات لترجمة والنشر على أنواعها ويتولى ما يلي:

أ ـ رسم خطة للترجمة على نطاق القطر وفق الاحتياجات القائمة والإمكانات المتوافرة.

ب ـ تبادل المعلومات فيما بين هذه المؤسسات من النواحي الفنية والمالية والتسويقية والإعلامية.

ج ـ تنظيم الاتصال والتعاون مع الأجهزة والمؤسسات المماثلة في الأقطار العربية الأخرى.

د ـ تنظيم الاتصال بالمنظمة العربية ومدها بالمعلومات والقوائم والكشوف التي تطلبها.

هـ ـ تنظيم الاتصال والتعاون مع المنظمة العالمية (اليونسكو) والهيئات الدولية والأجنبية

والعربية، مثل اتحاد المترجمين الدولي واتحاد الناشرين العرب واتحاد الموزعين العرب والجامعات والمجامع العلمية واللغوية والاتحادات العلمية والمهنية.

ز ــ إصدار بيبليوغرافيا سنوية بالكتب المترجمة.

كذلك دعت الخطة الدول العربية إلى الاهتمام بالأمور التالية المتصلة بالترجمة:

أ ــ حقوق المؤلفين.

ب ــ اختيار الكتب المترجمة.

ج ــ المستوى الفني للترجمة.

د ــ تكوين المترجمين وتدريبهم.

هـ ــ إنشاء جمعية أو اتحاد للمترجمين.

و ــ تيسير تداول الكتاب المترجم وتوزيعه.

٢ ــ دور المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

يتمثل دور المنظمة في أمور تنسيقية وتنظيمية أهمها:

أ ــ **التوثيق**: وهو إجراء عملية مسح شامل لما تمت ترجمته إلى العربية حتى الآن في مختلف فروع المعرفة، وحصر ذلك حصراً دقيقاً، وإصداره في نشرات بيبليوغرافية، تعمم على الجهات المعنية في البلدان العربية.

ونظراً لاتساع هذا العمل، فقد رئي أن يتم على مراحل، وقد تم الشروع فعلاً بحصر الكتب المترجمة في الفترة الواقعة بين ١٩٧٠ ــ ١٩٨٠، ويجري العمل حثيثاً لإصدار هذه النشرة البيبليوغرافية قبل نهاية عام ١٩٨٢.

ب ــ **الإعلام**: تجمع المنظمة معلومات من مؤسسات الترجمة والنشر في الوطن العربي عن الكتب التي تمت ترجمتها عام كذا، وعن الكتب التي أدرجت ترجمتها في خطة العمل لسنة كذا، أو الكتب الجارية ترجمتها وطباعتها، فتعمد إلى تعميم هذه المعلومات على الجهات المعنية بالترجمة لأخذ العلم بذلك، بقصد عدم تكرار العمل ومنع الازدواجية وعدم إضاعة الجهد والمال. وقد تم فعلاً وضع استمارة لهذا الغرض والحصول على معلومات جرى تعميمها، وقد بلغ عدد الإشعارات التي عممت حتى تاريخ إعداد الدراسة (٧٤) إشعاراً. ويؤمل أن تجنى فائدة من هذا العمل غير ما ذكر

سابقاً، وهو أن يؤدي إلى إقامة علاقات تعاون في مجال الطبع والنشر والتوزيع بين المؤسسات المختلفة على أساس معرفة كل منها ما تفعله المؤسسات الأخرى.

وفي مرحلة متقدمة يمكن أن تحصل المنظمة من كل مؤسسة على خطتها السنوية، التي تتضمن عناوين الكتب التي ترغب في ترجمتها، فتتولى المنظمة التنسيق بين هذه الخطط لمنع الازدواجية بين المؤسسات، ومساعدتها على التخصص في قطاع من قطاعات المعرفة وتحقيق تكامل بينها.

جـ ـ الإرشـاد

يقصد به مساعدة الناشرين والمترجمين على التلاقي والتعاون المفيد ومساعدتهم على اختيار الكتاب الأفضل للترجمة.

وقد قامت المنظمة بالخطوات التالية:

١ ـ طلبت كشوفاً من البلدان العربية عن المؤسسات التي تتولى الترجمة والنشر، سواء أكانت مؤسسات حكومية أو دور نشر خاصة وفق استمارة أعدت لهذا الغرض.

وقد حصلت المنظمة حتى تاريخ إعداد الدراسة على (١٥) استمارة من عدد من الأقطار العربية.

٢ ـ طلبت من البلدن العربية أسماء المترجمين الذين يتولون الترجمة العلمية والثقافية مع بيان اختصاصاتهم ولغاتهم وإنتاجهم وعناوينهم، وفق استمارة أعدت لهذا الغرض.

وقد حصلت المنظمة حتى تاريخ إعداد الدراسة على (١٠٨) استمارات عن مترجمين، تشتمل على معلومات موسعة كما حصلت على قوائم تضم أسماء (٤٥٤) مترجماً بمعلومات موجزة.

وتعمل المنظمة على إصدار دليل بالمترجمين ومؤسسات الترجمة، يضم المعلومات التي تم الحصول عليها وإن لم تكن شاملة، آملة أن يستكمل في السنة القادمة وأن يفيد، رغم عدم شموله، في التعريف بالمترجمين والمؤسسات على نطاق قطري ونطاق قومي.

٣ ـــ طلبت من البلدان العربية موافاتها بقوائم بالكتب الأجنبية التي تصلح للتعريب ، وعلى (١٦٠) اقتراحاً بكتب تصلح للتعجيم.

وتعرض هذه القوائم على لجنة تشكلها المنظمة للنظر فيها واعتمادها ثم التوصية بتعريبها وتعجيمها.

د ـــ التعاون

إن المنظمة وهي الهيئة العربية التي تعمل على إيجاد ثقافة عربية موحدة ، تستطيع أن تسهم في الوصل بين الأقطار العربية ، لتقيم علاقات تعاون بينها ، وإبرام اتفاقيات ثنائية بشأن الترجمة والنشر والتوزيع ، ووضع وتنفيذ مشروعات مشتركة في هذه الميادين.

الخاتمة

إن جهداً كبيراً ومنظماً ينبغي أن يبذل في هذا العقد ، الثمانينيات ، من أجل (الكتاب المترجم) الذي نرغب فيه ، وهو جدير بهذا الجهد لأنه الجسر الواصل بيننا وبين الثقافات المختلفة في البلدان الأخرى ونقطة البداية في بناء ثقافة قومية عربية مزدهرة في هذا العصر ، موصولة الجذور بتراثنا الفكري العربي المجيد ومنفتحة على أفضل ما حقق الفكر الإنساني من إبداعات وكشوف في المناطق الأخرى من العالم.

الترجمة والرقي الحضاري

دراسة قدمت في «المؤتمر السنوي السادس لتاريخ العلوم عند العرب» الذي عقده معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب في الجمهورية العربية السورية في ١٤ و ١٥ | ٤ | ١٩٨٢ حول «الترجمة والإبداع عند العرب».

هل تستطيع الترجمة العلمية حالياً القيام بالعمل الحضاري الذي قامت به في عصور الازدهار العربي ؟

إنَّ الحضارة بناء مادي وفكري وروحي تكـوِّن المعرفة العلمية إحدى لبناته . إنها نتاج جهد ودأب متواصلين وحصيلة كشف وإبداع متلاحقين . هي لا تتحصل لشعب ما مفاجأة أو مصادفة ولا تعطاه هبة أو صدقة ، بل هو الذي يرسي أساسها ويعلي بنيانها ويصون معالمها .

ليست الحضارة صنع فرد أو أفراد ، وإن كان لبعض الأفراد في مضمارها فضل ريادة . إنها تراكم مجهود وتعاظم عمل تبذله الجماعة البشرية التي تصلها وشائج القربى والسكن واللسان ، وتشدها إلى بعضها أواصر المشاعر والعواطف والأفكار ، وتوحد ما بينها ذكريات الماضي وتصورات المستقبل .

أجل الأمة تصنع حضارتها من خلال صراع قاس طويل مع الطبيعة التي تكتنفها ، والأرض التي تعيش عليها حتى تذلل ما عسر ، وتقهر ما عاند ، وتطوع ما استعصى ، فتسخر الجماد والنبات والحيوان للإنسان لمنحه الغذاء والكساء والدفء وجعله يشعر بالقوة والطمأنينة ، ثم من خلال صراع الإنسان مع نفسه ليحد من جموح شهواته وحدة نزواته ، ويبتعد عن مزالق السلوك ويأنس بأخيه الإنسان ، ويسمو بميوله ورغباته ويحقق قدراته ومواهبه ، ويبتدع روابط اجتماعية سليمة معافاة وعلوماً وآداباً وفنوناً وقيماً خلقية وروحية ، ترقى به إلى حيث هو الأول وهو الأسمى في سلم الكائنات .

وهذه الحضارة كما أنها لم تكن صنع فرد أو أفراد، فإنها لم تكن صنع أمة واحدة. شارك في صنعها الأفراد والشعوب والأمم التي عمرت الأرض، أجمعين، يقبس اللاحق من السابق ويضيف المتأخر إلى ما أتاه المتقدم، والمصباح ينتقل من يد إلى يد عبر حدود المكان والزمان. إن اليد التي تشعل المصباح، واليد التي تحافظ على الوهج المتألق، واليد التي تزيده اشتعالاً وألقاً، سواسية في الفضل والكرامة.

ونحن العرب أمة عريقة، لها أمس مديد، لسنا من العدم نبدأ، بل ألفان من السنين تثقل كواهلنا.

خرج أجدادنا منذ أربعة عشر قرناً من قفارهم وبواديهم وقراهم إلى العالم. لم يخرجوا خالي الوفاض، بل حملوا معهم هدى وحقاً لهم وللناس كافة، ولغة واسعة سعة الأرض التي عليها كانوا يسرحون، صافية صفاء الأفق الممتد أمام أبصارهم، لغة تجلت قرآناً وقصيداً وحكمة، بياناً ساحراً وكلماً جامعاً ما ابتدع مثله شعب من قبل أو من بعد، ومعارف هي عطاء البيئة والزمن.

لقد تم الفتح وزلزل العرب دولة الأكاسرة فانهارت أركانها، وزعزعوا دولة بيزنطة فانكمشت وارتدت إلى خلف، ورحب أهل الشام ومصر والمغرب الذين تجمعهم بالعرب أرومة واحدة، بمقدم المحررين.

وأرسى العرب قواعد دولة، وانتقل الحكم من المدينة إلى دمشق، وواجه العرب في الشام والعراق ومصر والمغرب ثقافات كانت ثمرة عصور سالفة، ووجدوا لدى الهند وفارس والإغريق ثقافات أكسبها الزمن غنى وازدهاراً.

لم يشعر العرب آنذاك بضعف أمام الواقع الجديد ولم تأخذهم الدهشة، ولم يحسوا غضاضة في تعلم أساليب الإدارة والحكم، بل سرعان ما اقتبسوا ما كانوا بحاجة إليه فإذا هم سادة الحرب والسلام وبناة مدن وقلاع وأرباب جيوش وأساطيل.

والمعارف أهي حكر على من سبق وقد تداولها الناس من قبل؟ أقبلوا عليها بشغف المشوق ولهفة الظامىء فترجموا إلى لسانهم علوم من سبقوهم، وأمعنوا في الترجمة وبذلوا من أجلها، وأكرموا محترفيها وأحدثوا لها البيوت والمؤسسات.

ومرت أعوام حافلة بنشاط عارم: اقتباس فتمثل فإبداع، فانعقدت الأسبقية لهم في العلوم العقلية، مثلما كانت لهم في المعارف الدينية واللغوية والأدبية.

وكان للترجمة، في عهد الأمويين والعباسيين، أثر أي أثر في تقدم العرب العلمي ورقيهم الحضاري اللذين امتدا بضعة قرون، كانت اللغة العربية فيها لغة العلم في العالم بأسره، والوطن العربي موطن حضارة إنسانية وارفة.

وهل لنا أن نستعرض بإيجاز هذه الصفحة المشرقة من تاريخ أمتنا؟

بدأت الترجمة في أيام بني أمية، إلا أن الأمويين كانوا مشغولين بالفتوح وتوطيد أركان الدولة فلم يتح للترجمة أن يتسع أفقها، ومع ذلك فقد خطت في أيامهم أولى خطواتها.

أما في زمن العباسيين فقد ازدهرت الترجمة لأن العرب وجدوا أن الحضارة لا تقوم إلا على العلم فمالوا إلى طلبه، وحدا بهم الجدل الديني والفكري الذي ثار آنئذ إلى ترجمة الفلسفة اليونانية عامة ومنطق أرسطو خاصة لدعم الرأي واسناد الحجة.

ومرت الترجمة في زمن العباسيين بدورين: أولهما يمتد من قيام الدولة العباسية إلى بداية عهد المأمون (١٣٢ ــ ١٩٨ هـ) وثانيهما يبدأ بتولي المأمون الحكم وينشط طيلة عهده ويستمر بعده على وهن وضعف.

وكذلك عني رجال الأندلس من خلفاء وأمراء ووزراء وأثرياء بتشجيع حركة الترجمة، فترجموا كتباً عديدة، وأصلحوا بعض ما ترجم أيام الأمويين والعباسيين، وتكونت من الأندلسيين الذين كانوا يعرفون اليونانية واللاتينية مدرسة للترجمة شابهت بيت الحكمة في بغداد.

لقد عرف العرب الطريق إلى بلوغ الغاية وهي أن يبدؤوا من حيث انتهى الآخرون، كيما يكون سيرهم أسرع وخطواتهم أثبت، فاندفعوا بلا وَهْنٍ ولا هوادة في طلب العلم ونقله إلى لغتهم ليكون منطلقهم إلى الكشف والإبداع.

لقد تبين أن الترجمة كانت الوسيلة الصالحة لاقتباس العلوم: عربوا علوم زمانهم كيما يتعلموا بلغتهم فتخالط اللغة تفكيرهم، إذ لا تفكير بلا لغة ولا تفكير قويم إلا باللغة الأم التي يتعلمها الإنسان في طفولته ويألف حروفها ويأنس بألفاظها، فتمتزج بحسه وشعوره وتندمج بنطقه وتفكيره.

ولنستعرض بإيجاز كيف تمت النقلة من الترجمة إلى الكشف والإبداع، لنتعرف الدور الذي أدته الترجمة في البناء العلمي ــ الحضاري.

لقد ترجم العرب عن الهندية. روي أن وفداً من الهند وفد على أبي جعفر المنصور سنة ١٥٤ هـ وفيهم رجل ماهر في معرفة حركات الكواكب وحسابها وسائر أعمال الفلك على مذهب علماء أمته وخصوصاً على مذهب كتاب باللغة السنسكريتية اسمه: بَرَاهْمَسْهُطَيْسِدْهَانْتَ ألفه الرياضي الهندي براهما جبتا، فكلف المنصور ذلك الهندي بإملاء مختصر الكتاب ثم أمر بترجمته وباستخراج كتاب منه تتخذه العرب أصلاً في حساب حركات الكواكب وما يتعلق به من أعمال (فتولى ذلك الفزاري وعمل منه زيجاً عمل به العرب حتى أيام المأمون إذ ابتدأ مذهب بطليموس في الحساب والجداول الفلكية)[1].

وقد اقتصر العرب على الجزء الأخير من الاسم السابق وهو سِدْهَانْتْ ثم حرفوه إلى (السندهند)، وكذلك ترجم عن الهند كتاب ثان اسمه الأَرْكَنْد وثالث اسم الأَرْجَبْهر.

وكان في بغداد أطباء هنود اشتهر منهم أيام الخليفة الرشيد صالح بن بهنة، ويقول الجاحظ: «إن يحيى بن خالد جلب أطباء من الهند مثل (منكة) و (بازيكر) و (قلبرقل) و (سندباد)».

وكانت الثقافة اليونانية النبع الذي اغترف منه العرب، بالمرتبة الأولى، فقد ترجموا كتاب المجسطي لبطليموس ومعناه: الترتيب الكبير في علم الفلك، ثم ترجم مرة ثانية، وكتاب الحكم الذهبية لفيثاغوروس، وكتباً عديدة في الطب لأبقراط وجالينوس ومؤلفات فلكية ورياضية لأبولينوس واقليدس (كتاب الأصول) و(مبادىء الهندسة) وكتاب (الكرة والأسطوانة) لأرخميدس.

وترجم لأفلاطون كتب منها: كتاب السياسة المدنية المدعو الجمهورية، وكتاب النواميس.

ثم عرف العرب أرسطو وأكثروا من ترجمة كتبه وصار عندهم (المعلم الأول)، ومن كتبه التي ترجموها كتاب قطاغوراس وكتاب باري ارميناس وكتاب أنولوطيقا وهي كتب من المنطق.

وقد اقتضت ترجمة علوم القدماء إلى العربية إيجاد مصطلحات علمية كثيرة للدلالة على الأعيان والمعاني. وهذه المصطلحات دخلت اللغة العربية واندرجت مع ألفاظها، واشتملت عليها معجماتنا القديمة، وكانت صالحة للتعبير عن علوم القدماء، وجعلت من العربية لغة العلم آنذاك بل

هي ما تزال تصلح للتعبير عن بعض موضوعات العلوم الحديثة . وقد ترجمت بعض الكتب أكثر من مرة طلباً للدقة وسلاسة الأسلوب وحسن العبارة .

وعلى أساس ما قدمته الترجمة ، سار العرب قدماً ، وتفتقت عبقريتهم عن كشوف وإبداعات في كل علم ، فحفظوا علوم من سبقهم ، وصححوا ما احتاج إلى تصحيح ، وأضافوا الكثير إليها مما اكتشفوه وخبروه ، ودخلوا بذلك ما نسميه عصر الازدهار العربي ، وهو عصر كان فيه للتفتح العقلي والبحث العلمي والتأليف الموسع مجال رحيب .

ففي مجال الرياضيات أخذ العرب نظام الترقيم عن الهنود ، فهذبوه ، وجعلوا منه سلسلتين : الأولى تعرف بالأرقام الهندية وهي المستعملة في المشرق العربي ، ويتمثل الصفر فيها بنقطة ، والأرقام الغبارية وهي التي شاع استعمالها في المغرب العربي ، ثم انتقلت إلى أوروبا ، ويتمثل الصفر فيها بدائرة . وإليهم يعود استعمال طريقة الإحصاء العشري ، واستخدام الصفر ، واختراع الكسور العشرية ، وعلم الجبر وحل المعادلات الجبرية من الدرجة الثانية ، واستخدام الجبر في الهندسة ، واستعمال الرموز في الجبر ، ولهم فضل في علم المثلثات .

ومن أبرز علمائهم في الرياضيات محمد بن موسى الخوارزمي (ت ٢٣٦ هـ) صاحب كتاب (الجبر والمقابلة) وواضع علم الجبر ، والطوسي صاحب كتاب (تحرير أصول إقليدس) وكتاب (الرسالة الشافية) ، والحسن بن الهيثم عالم البصريات ، وغياث الدين جمشيد الكاشي واضع أسس الكسر العشري في كتابه (مفتاح الحساب) ، وأولاد موسى بن شاكر الذين نبغوا في الهندسة ، وابن الياسمين الفارسي محمد بن الحجاج (ت ٦٠١ هـ) الذي كانت تآليفه شهيرة في الرياضيات في سائر أنحاء المغرب العربي .

وكان للعرب في علم الفلك إسهام كبير ، وأكثر علمائه علماء في الرياضيات ، ومنهم محمد الفزاري (ت ١٥٨ هـ) مترجم السندهند ، وأبو إسحق إبراهيم بن سليمان (ت ١٦٠ هـ) الذي ألف كتباً في الفلك واخترع الاصطرلاب في صورة جديدة تفيد في عمليات الرصد كتعيين ارتفاع الأجرام السماوية عن الأفق وحساب الوقت وتحديد البعد عن خط الاستواء .

ومن الفلكيين موسى بن شاكر وأبناؤه محمد وأحمد والحسن الذين بنوا مرصداً خاصاً لأبحاثهم الفلكية في سامراء بالعراق ، ووضعوا كتاباً عرف في الغرب باسم (كتاب الإخوة الثلاثة) ترجم إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر ، وأبو معشر البلخي الذي تدرب في المرصد الذي بناه

المأمون في بغداد، ومن كتبه (المدخل إلى علم أحكام النجوم)، وابن جابر البتاني (ت ٣١٨ هـ) ومن كتبه الزيج الذي ضمنه نتائج بحوثه وأرصاده التي رصد فيها ميل الدائرة الكسوفية وطول السنة المدارية والفصول والمدار الحقيقي والمتوسط للشمس، وصحح طول السنة الشمسية ودحض بعض آراء بطليموس.

ومنهم محمد بن موسى الخوارزمي (٢٣٦ هـ) الذي كان من أعماله وضع زيج بناه على حساب الفرس، ثم نقله فيما بعد مسلمة بن أحمد الأندلسي إلى الحساب العربي، والفرغاني الذي قام بتحديد قطر الأرض وأقطار بعض الكواكب، والذي ظلت معارفه مقبولة بغير تعديل كبير حتى زمن كوبرنيكس. ومنهم محمد بن إسماعيل بن عباس أبو الوفاء صاحب (الزيج الشامل)، وابن يونس المصري (ت ٣٩٩ هـ) الذي عاش في عصر العزيز الفاطمي وابنه الحاكم فسمى زيجه (الزيج الحاكمي) وضمنه رصده كسوفين شمسيين حدثا في زمانه، وعلي بن يحيى المنجم (٢٧٥ هـ) ونصير الدين الطوسي (ت ٦٦٣ هـ). ومن أعاظمهم أبو الريحان البيروني (ت ٤٤٣ هـ) الذي نبغ في كثير من العلوم، ومن أهم كتبه (القانون المسعودي) الذي أهداه للسلطان مسعود بن محمد الغزنوي، ومن أهم مقولاته: (إن الأرض كروية وجميع الأجسام تنجذب نحو مركزها، وإنها تدور حول محورها كل يوم وتدور حول الشمس مرة كل سنة)، وابن أبي الرجال القيرواني (٤٢٦ هـ) صاحب كتاب (البارع في أحكام النجوم) المترجم إلى اللاتينية، وابن النجار التلمساني محمد بن علي (ت ٧٤٩ هـ) الذي نبغ في علم الفلك.

وفي مجال الموسيقا ألف العرب المؤلفات المسهبة، واستنبطوا كثيراً من الألحان، واخترعوا آلات موسيقية جديدة، وطوروا ما كان موجوداً. ومن علمائهم يعقوب بن إسحق الكندي (ت ٢٥٩ هـ) الذي عالج بعض مرضاه بالموسيقا، وأبو نصر الفارابي (ت ٣٣٩ هـ) صاحب كتاب في الموسيقا والذي صنع آلة شبيهة بالقانون. ثم جاء ابن سينا (ت ٤٣٣ هـ) فدرس الصوت المنسجم الذي تطمئن إليه النفس، والصوت الذي تنفر منه، وربط ذلك بنسب عددية، وأما زرياب فقد وضع أسس التعليم الموسيقي، وابتكر طرق قياس إمكانيات الصوت عند المتعلم...

وأما في الكيمياء، هذا العلم الذي بدأ مبكراً عند الشعوب القديمة كالمصريين ولم يضف إليه اليونان شيئاً، فقد كان أول من اشتغل به خالد بن يزيد (ت ٨٥ هـ)، ثم جاء بعده جابر بن حيان (ت ١٩٨ هـ) الذي له بحوث وتجارب وإضافات رائدة في هذا العلم وبناه على التجربة، وتابع خطواته المهمة الكندي والرازي وابن سينا ومحمد بن عبد الملك ومنصور الكاملي.

وفي مجال علم الطبيعة برز علماء كثيرون منهم الحسن بن الهيثم (ت ٤٣٠ هـ)، صاحب كتاب (المناظر) الذي صحح فيه أخطاء إقليدس وبطليموس وسلك المنهج التجريبي، وترجم كتابه إلى اللاتينية خمس مرات حتى صار أساس تطور علوم الطبيعة في الغرب. وقد أنشأ علم الضوء الحديث، واقترب من اكتشاف العدسات المكبرة التي صنعت بإيطاليا فيما بعد. وأوجد ابن يونس الرقاص قبل غاليلو بسبعة قرون، وأورد الطبري صاحب (عيون المسائل في أعيان الرسائل) جدولاً عن الأثقال النوعية للمعادن قاسها بالنسبة للماء العادي فجاء فيها اختلاف بسيط عما هي اليوم.. وقصة الساعة التي أهداها هارون الرشيد إلى الامبراطور شارلمان قصة مشهورة. بيد أن أهم مآثرهم في علم الطبيعة، ما توصل إليه ابن الهيثم في الانعكاس والانكسار وتعليل حادثة الشفق وشرح زاوية الرؤية وظاهرة قوس قزح، حتى كانت مؤلفاته المرجع المعتمد في أوروبا حتى القرن السادس عشر.

واهتم العلماء العرب بعلم الأحياء البشرية والحيوان والنبات، غير أن هذا العلم لم يكن مستقلاً عن العلوم الأخرى، وعلى الأخص علوم الطب والصيدلة والزراعة، فجاء متداخلاً معها. ويذكر في هذا المجال أبو بكر الرازي (ت ٣١٥ هـ) وله رسالتان عن النباتات العطرية والفاكهة، وابن سينا الذي وصف النباتات الطبية، ورشيد الدين الصوري وأبو العباس بن الرومية الإشبيلي (ت ٦٣٧ هـ)، وتلميذه ابن البيطار (ت ٦٤٦ هـ) الذي كان أعظم علماء النبات والعشابين في القرون الوسطى.

وفي العلوم الطبية، استوعب الأطباء العرب ما ترجم من اليونانية والهندية وهو كثير، ولكنهم بعد ذلك صححوا وأضافوا اعتماداً على الملاحظة والتجربة العلمية، فكان لهم اكتشافاتهم ومصنفاتهم التي نقلت إلى اللاتينية وغيرها من اللغات الأوروبية، وكانت المنطلق في تقدم الطب في العصر الحديث.

ومن أشهر أطبائهم: أبو بكر الرازي (ت ٣١٥ هـ) صاحب الموسوعة الطبية المدعوة (الحاوي) والتي تقع في عشرين جزءاً، والذي ترجم إلى اللاتينية وظل يدرس في جامعات أوروبا حتى القرن الخامس عشر. وابن سينا (ت ٤٢٣ هـ) صاحب كتاب (القانون) الذي يعتبر موسوعة في الطب والصيدلة، وعلي بن العباس (ت ٣٨٤ هـ) صاحب كتاب (كامل الصناعة في الطب). ومن هؤلاء علي بن عيسى صاحب كتاب (التذكير) و (أبو القاسم الزهراوي القرطبي) (ت ٤٠٤ هـ) أعظم جراحي الأندلس وصاحب كتاب (التصريف لمن عجز عن التأليف)، وأبو

مروان عبد الملك بن زهر الأندلسي (ت ٥٥٧ هـ) صاحب كتاب (التيسير في المداواة والتدبير)، وعلاء الدين علي بن أبي حزم الدمشقي الملقب بابن النفيس (٦٨٧ هـ) الذي اكتشف الدورة الدموية الصغرى، وابن الجزار (ت ٣٦٩ هـ) صاحب كتاب (زاد المسافر وقوت الحاضر) وكتاب (الاعتماد) اللذين ترجما إلى لغات عديدة، وابن عمرون الوهراني (ت ٤٩٩ هـ).

وقد ارتبط علم الصيدلة ارتباطاً وثيقاً بعلم الطب، وكان أبو بكر الرازي من أوائل الذين ادخلوا المركبات الكيميائية في العلاجات الطبية والذين كتبوا في مجال الأدوية والعقاقير، وتضمن كتابه (المنصوري) و(الحاوي) فصولاً مخصصة بالصيدلة. واقتصر الفصل الخامس من كتاب (القانون) لابن سينا على المادة الطبية، ووصف فيه تركيب سبعمئة وستين عقاراً.

ثم كتب العلماء العرب كتباً مستقلة بالصيدلة، فصنف الرازي كتاباً عن (حقائق الأدوية)، وجمع عبد الرحمن بن شهيد الأندلسي في كتابه (الأدوية المفردة) الكثير من العقاقير، وألف ماسويه المارديني (ت ١٠١٥ م) كتاباً كبيراً في العقاقير يقع في اثني عشر جزءاً ترجم إلى اللاتينية، وابن البيطار صاحب (الجامع الكبير) و(المغني في الأدوية المفردة)، وابن سعيد التميمي صاحب كتاب (المرشد إلى جواهر الأغذية وقوى المفردات).

وارتبط علم الزراعة بعلم الطب كذلك. وقد قام العرب بتطوير الزراعة وتحسين النباتات، ودرسوا مختلف الحشائش والأشجار والبذور والثمار. وعني أهل الأندلس بخاصة بالزراعة، ويذكر أحد المؤلفين أنهم استولدوا ورداً أسود بطريقة التطعيم المتوالي، ونبغ في هذا الميدان ابن رومية الإشبيلي (ت ٦٣٧ هـ) وتلميذه ابن البيطار (ت ٦٤٦ هـ)، وقد أشرنا إليهما. وكتب في علم الزراعة والنبات والماشية والري والمحاصيل أبو زكريا يحيى بن محمد بن العوام الإشبيلي (ت ٥٥٠ هـ)، الذي ألف كتابه الشهير (الفلاحة) وترجم إلى الإسبانية والفرنسية.

ويشهد مايرهوف على أهمية ما كتبه ابن البيطار بقوله: إن كتابه الجامع لمفردات الأدوية والأغذية يعد أعظم كتاب عربي ظهر في علم النبات.

وفي مجال الجغرافيا ظهر أعلام مشاهير، يقول سارتون: إن كتاب (معجم البلدان) لياقوت الحموي منجم غني للمعرفة وليس له نظير في سائر اللغات. ووضع أبو الفداء أمير حماة كتاب تقويم البلدان الذي ترجم إلى اللاتينية في القرن الثامن عشر.

وأما الإدريسي ففضله كبير ودوره خطير، كتب مؤلفه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)،

ووضع خريطة للعالم ، وتوقع وجود أمريكا في الطرف الثاني من الأرض قبل اكتشافها ببضعة قرون .. وقد جاء في الموسوعة الفرنسية (إن كتاب الإدريسي في الجغرافيا يعتبر أعظم وثيقة علمية جغرافية في القرون الوسطى) .

إن هذه اليقظة الفكرية ، بل النهضة العلمية التي انطلقت اشعاعاتها المبكرة من دمشق وبغداد ترجمة ، ثم تألق نورها في دار السلام عاصمة العباسيين ابتكاراً وتأليفاً ، قد انتشرت في أرجاء الوطن العربي : العراق وبلاد الشام وبلاد الجزيرة العربية ومصر والمغرب العربي والأندلس ، بل أرجاء دار الإسلام على امتداد مساحتها وسعة رقعتها ، وشارك فيها أبناء الأقطار العربية والأصقاع الإسلامية ، حتى يصح القول : إن الحضارة التي ارتفع صرحها عالياً إنما شارك فيها علماء أفذاذ من جميع هذه المناطق ، فهي حضارة عربية إسلامية ، ناظمها لغة الضاد التي أفسحت صدرها لسائر المعارف والعلوم ، بما تملك من مرونة وغنى وقدرة على التوليد والاشتقاق ، حتى صارت لغة العلم مئات من السنين : إليها ترجمت معارف السابقين ، وبها دون العلماء العرب تصانيفهم ومؤلفاتهم ، فكانت وعاء الفكر العربي الخلاق ومعلماً من معالم الحضارة العربية .

ثم تتالت الأحداث على العرب وحاقت بهم المحن والنوائب ، وتناوبت عليهم عوامل الضعف من الداخل وأسباب القهر من الخارج ، فحل الشتات محل الألفة والتجزئة مكان الوحدة والوهن موضع القوة ، وصار في الدولة دويلات ومع الخليفة سلاطين وأمراء ، وتوالت عليهم الغزوات والحروب المدمرة ، فخبا الألق الذي سطع قروناً ، وافتقر الناس إلى موارد الرزق ، وأصاب الحياة الاجتماعية سقام ، واعترى النشاط الفكري والعلمي ضمور .

وفي هذا الوقت أخذ الأوروبيون يترجمون الثقافة العربية وأشهر مترجميهم جيرارده كريمون . ويذكر أن بعضهم أمَّ البلاد العربية لينهل العلم من منابعه ، مثل جيربير الأفيرني الذي رقي فيما بعد إلى مرتبة البابوية باسم سلفستر الثاني ، إذ تعلم في الأندلس على أيدي العرب ونقل الأرقام إلى أوربا . ونقل ليونارد كتب الطبيعة والجبر ، وأمر روجه الأول في صقلية أن تكون كتب الإدريسي المرجع العلمي الصادق ، وحث الامبراطور فريدريك الثاني على دراسة علوم العرب ، حتى كان أبناء الفيلسوف العربي ابن رشد يقيمون في بلاطه ليعلموا دروس النبات والحيوان .

وقد جاءت بداية نهضة الأوروبيين في أعقاب اطلاعهم على تراث العرب الفكري والعلمي ، فأخذ يساورهم شعور بالعجز والتقصير أما م عظمة الفكر العربي وآثاره الرائعة ، شعور هو مزيج من

الدهشة والإعجاب والتقدير. وقد صور الشاعر الإيطالي بيترارك (١٣٠٤ ـــ ١٣٧٤م) هذه الحال عندما خاطب قومه محنقاً:

«ماذا إذا استطاع شيشرون أن يكون خطيباً بعد ديموستينس واستطاع فرجيل أن يكون شاعراً بعد هوميروس ثم بعد هؤلاء العرب لا يسمح لأحد بالكتابة؟ لقد جارينا اليونان وتجاوزناهم أحياناً ثم تقولون: لا نستطيع بلوغ شأو العرب. يا للخبال يا لعبقرية إيطالية الغافية!».

وقبل هذا، وبعده ترجمت الكتب العربية العلمية إلى اللغات الأوروبية للتعلم منها، وماتزال حتى الآن تترجم وتطبع بتلك اللغات تقديراً لقيمتها الكبيرة في تاريخ العلوم في العالم.

وبعد ركود وتوقف تنبه العرب إلى أن العلم هو مصدر القوة وأنَّ عليهم اكتسابه.

وقد كانت البداية مع تأسيس الكليات العلمية في مصر مثل كلية القصر العيني في بداية القرن الماضي، وكان التدريس فيها يتم باللغة العربية.

ولكن هذه التجربة الفذة لم تستمر، إذ داهم الاحتلال الانكليزي مصر عام ١٨٨٢م، فتحول بعده التدريس في الكليات العلمية إلى الانكليزية، فتضاءلت الترجمة العلمية إثر ذلك.

إن إضعاف اللغة القومية إضعاف للأمة، وانتقاص من مقومات ذاتيتها الثقافية، وإرباك لتحركها الطبيعي نحو التحرر والاستقلال.

وفي بلاد الشام، أواخر القرن المنصرم، خدمت الكلية الأمريكية في بيروت اللغة العربية مدة من الزمن، إذ جعل التعليم فيها بالعربية عند إنشائها، ثم لم يطل أمره وتحول إلى الانكليزية.

وبعد هاتين التجربتين اللتين لم يقيض لهما البقاء جاءت كلية الطب بدمشق التي تأسست في أواخر عام ١٩١٩ لتخلفهما وتعوض ما فاتهما، وبدأت تدريسها بالعربية منذ افتتاحها، واستمرت باطراد حتى اليوم، مع الكليات العلمية العديدة التي أُنشئت بعدها في القطر العربي السوري في جامعات دمشق وحلب وتشرين في اللاذقية والبعث في حمص.

إننا نتحدث عن التدريس العلمي وعلى الأخص التدريس الجامعي في سياق حديثنا عن الترجمة، لأن هذا التدريس إذا تم بلغة أجنبية فإنه لا يكون بحاجة إلى ترجمة مؤلفات علمية إلى

العربية ، لأن المدرس والطالب معاً يرجعان في اختصاصهما العلمي إلى الكتب مختصرة أو موسعة أو مرجعية أو إلى الدوريات بلغة التدريس الأجنبية .

وأما إذا كان التدريس الجامعي باللغة العربية ، فإنه يقتضي تأمين الكتاب باللغة العربية ، سواء أكان مؤلفاً أم مترجماً ، ويقتضي أن تنقل المراجع إلى هذه اللغة كيما يتاح للمدرس والدارس التوسع في الاختصاص بالعودة إلى أمهات الكتب فيه ، والتدريس بالعربية هو الأصل والنهج الصحيح . ثمة قائل يقول : كيف استطاعت كلية الطب بدمشق ومن بعدها الكليات العلمية والمعاهد في جامعات القطر العربي السوري أن تنهض بالتعليم بالعربية ؟ .

إن أساتذة كلية الطب الذين شقوا الدرب ، بذلوا من الوقت والجهد ماذللوا به الصعاب ، فقد ألفوا الكتب أو ترجموها في كل الفروع الطبية ، ورجعوا في البحث عن المصطلح العلمي إلى ما جاء في الكتب الطبية القديمة ، مثل قانون ابن سينا وكامل الصناعة ومفردات ابن البيطار ، والكتب الطبية التي وضعت من قبل في مصر وكلية بيروت ، وجعلوا في خاتمة كل كتاب مسرداً لمصطلحاته بالفرنسية أو الانكليزية وأصدروا المعجمات . وعلى هذه الطريق ، طريق الكفاح من أجل علم عربي اللسان ، أو من أجل عربية تفصح عن العلم الحديث ، سار الأساتذة في جميع هذه الجامعات والكليات التابعة لها وفي مراحل الدراسات العليا دون استثناء .

وليس معنى ما تقدم أن حركة الترجمة قد انحصرت حيث استمر التدريس الجامعي باللغة العربية ، بل وجدت هذه الحركة في سائر الأقطار العربية تقريباً ، على قدر متفاوت وذلك بسبب أن جمهرة القراء من أبناء الشعب ، حتى من اختص بعلم ما بلغة أجنبية يأنس بسماع نص علمي يتلى عليه بالعربية ، ويرتاح إلى قراءة بحث أو مقال علمي في مجلة أو صحيفة مكتوب باللغة الأم .

ومن هنا نجد في الأقطار العربية التي مازال التعليم العالي فيها في الفروع العلمية يقدم للطلاب باللغة الانكليزية أو اللغة الفرنسية ، مجلات علمية تصدر باللغة العربية ونسمع أحاديث في الإذاعة والتلفزة تقدم بالعربية ونجد كتباً علمية ، ولو قليلة ، تترجم للناشئين أو الشبان المختصين .

ولو كان التدريس الجامعي في جميع الأقطار العربية باللغة العزبية ، لعرفت حركة الترجمة نشاطاً واسعاً لتلبية الحاجات الكبيرة والمستجدة .

ونتساءل بعد هذا العرض : أي موقع بلغ مسير حركة الترجمة العلمية ؟ وما هي المعوقات وما

هي المنشطات وما هي الاحتمالات؟ وهل تستطيع الترجمة بالتالي أن تقوم بالدور الحضاري الذي قامت به في عصور الازدهار العربي؟.

لقد بدأت حركة الترجمة بصورة عامة والترجمة العلمية بصورة خاصة في القرن الماضي، ثم توبعت حتى منتصف هذا القرن بجهود أفراد أو دور نشر خاصة. وبعد الحرب العالمية الثانية أحدثت بعض الأقطار العربية مؤسسات تعنى بالترجمة وحدها أو تعنى بها وبالتأليف معاً، وذلك في نطاق وزارات التربية والتعليم العالي والثقافة والإعلام والجامعات.

فما هي حصيلة الثلاثين سنة التي انقضت على المنطلق الجديد في الخمسينيات؟ إن عدد الكتب المترجمة مازال يمثل نسبة متخلفة من المطبوعات في الأقطار العربية وما زال عدد الكتب العلمية المترجمة يمثل أيضاً نسبة أكثر تخلفاً بين المترجمات المختلفة.

إن هذه الظاهرة التي تمثل الواقع هي عكس ما ينبغي أن يكون.

إن عدد الكتب المترجمة ينبغي في نظري أن يفوق عدد الكتب المؤلفة، لأننا في هذه المرحلة من تطورنا الحضاري، وفي مرحلة الانتقال التي نعيشها من مرحلة التخلف الاقتصادي والاجتماعي والثقافي إلى مرحلة التقدم العلمي، نحتاج إلى معرفة ما وصل إليه هذا العالم، ما وصل إليه العلم ـــ ما استجد في كل فرع من فروع المعرفة، ما تقذفه كل صباح مراكز البحوث والدراسات من معلومات جديدة عن اكتشافات واختراعات تتتالى دون توقف أو انقطاع، إلى قراءة روائع الفكر والأدب التي صارت تراثاً إنسانياً نفيساً. أجل نحتاج إلى ذلك كله، مترجماً كيما نستوعبه ونتمثله، ونصل بمعارفنا وثقافتنا إلى حيث وصلت المعارف والثقافة في البلدان المتقدمة، وعندها سيتاح لنا أن نتابع من حيث وصل الآخرون كيما نأتي بالجديد.

ولست أقصد فيما أقول أن نهجر التأليف وبالأخص في الميادين العلمية، بل أقصد أن نلح على الترجمة ونكثر منها، لأنها هي بالذات ستقدم لنا مادة التأليف وتقربنا إلى حيث وصلت العلوم النظرية والمعارف التكنولوجية في هذا العصر.

إننا لا ننكر أن ازدواجية اللغة على ألسنة الناس في بعض الأقطار العربية، والتعليم بلغة أجنبية في المرحلة الثانوية أو المرحلة الجامعية فيها، إنما هي واقع قاسٍ أوجده استعمار طاغٍ أراد أن

يمحو الشخصية الوطنية، والثقافة القومية ويبدل الهوية الحضارية لشعوب عريقة في حضارتها معتزة بشخصيتها ومتمسكة بثقافتها.

وباء المستعمرون بالفشل، وذهبت مساعيهم أدراج الرياح، على الرغم مما خلفت من مآسٍ، وصارت العودة إلى (وضع سليم) وإن كانت ضرورية ليست بالأمر اليسير. بيد أن الإرادة التي حققت التحرر السياسي والتحرر الاقتصادي جديرة بأن تحقق التحرر التعليمي واللغوي والثقافي.

أما من حيث الكيف فإن الترجمة العلمية تقتضي أربعة شروط: إتقان المترجم اللغة التي يترجم منها، وإتقانه اللغة العربية، وطرق التعبير بها، والتخصص في المادة العلمية المنقولة، والممارسة التي تكسبه خبرة ودراية.

وفي واقع الحال لا تتحقق هذه الشروط دوماً في المترجم، لذا نجد في بعض الكتب العلمية المترجمة ضعفاً في الأداء اللغوي وركاكة في التعبير واضطراباً في المصطلح العلمي قد يكون مرده ضعف الوسائل التي بين يديه.

ورب قائل يقول: هل يعني الاهتمام بالترجمة العلمية الاستغناء عن الرجوع إلى ما ينشر من مباحث علمية وتقنية مبثوثة في الكتب والدوريات، باللغات الأجنبية؟.

إننا لو قصدنا ذلك لحكمنا على طالبي العلم في بلادنا وعلى رجال العلم بأن يكونوا مقصرين وغافلين عما يجد في الميادين العلمية.

إن حركة الترجمة العلمية يجب أن تترافق وتقترن بأمرين اثنين:

أولهما: أن يتقن الطالب الذي يتلقى العلوم باللغة العربية لغة أجنبية واحدة على الأقل، إتقاناً يمكّنه من أن يطالع ما يشاء في مجال تخصصه بتلك اللغة.

وثانيهما: أن نضع بين أيدي الدارسين ورجال العلم العرب أهم ما ينشر في أرجاء العالم من كتب ودوريات في جميع التخصصات باللغة العربية وفي الوقت الملائم.

وتظل الدعوة إلى الترجمة وتعريب العلم المطلب الملح:

١ ـــ مطلب وطني قومي يمليه انتاؤنا إلى أمة عريقة أسهمت في تقدم العلوم وبناء الحضارة

الإنسانية وقدمت إلى البشرية الشيء الكثير ، واللغة هي المقوم الرئيسي للقومية والشعور القومي .

٢ ــ مطلب نفسي تربوي ، لأن العربي الذي يقرأ كتاباً علمياً بلغة الأم يبذل مجهوداً واحداً لفهم معانيه ، ومن يقرأ كتاباً علمياً بلغة أجنبية يبذل مجهودين أحدهما لفهم اللغة الأجنبية لفظاً وعبارة وآخر لفهم المضمون .

٣ ــ مطلب مصيري حضاري لأن الأمم التي هي أقل منا تعداداً وأضأل تراثاً ، جعلت من لغاتها لغة علم ولأن الإبداع والابتكار لا يتولدان إلا من تمثل سليم كامل للمعطيات العلمية ، وهذا التمثل لا يتم إلا باللغة الأم .

وفيما يستمر النقاش هنا وهناك حول قدرة اللغة العربية على استيعاب العلوم الحديثة ، وحول ضرورة ترجمة الكتب العلمية والتقنية إلى اللغة العربية لتكون أداة التدريس والتعلم أو عدم ضرورتها ، تخطانا الآخرون ، نظراً وعملاً ، فتصدى العديد من دور الترجمة والنشر في البلدان الغربية وبخاصة في أمريكا وإنكلترا وفي البلدان الشرقية ، ولا سيما في الاتحاد السوفييتي إلى ترجمة كثير من الكتب العلمية إلى العربية ، سواء أكانت في العلوم الاجتماعية والإنسانية أم في العلوم الأساسية والتطبيقية والتقنية ، وذلك تقديراً منهم بأن الكتاب العلمي بخاصة لا بد أن يعرب في الوطن العربي ، عاجلاً أو آجلاً ، فلم لا يسهمون هم في ذلك سواء أكان إسهامهم بدافع نشر الكتب العلمية التي ألفها علماؤهم في البلدان العربية ، وفي ذلك ربح معنوي لهم ، أو بدافع كسب السوق العربية تجارياً لمنشوراتهم .

وقد أثار دهشة الغيارى على اللغة العربية أن ينهض بهذا العمل أغيار ، ونظل نحن أصحاب القضية والمصلحة حيارى مترددين . وقد تقبل بعضهم هذه البادرة بالإعجاب ، فكتبت الدكتورة عائشة عبد الرحمن في مجلة اللسان العربي ، وقد اطلعت على كتب علمية حديثة ترجمت وصدرت في موسكو في الستينات ، تقول :

« وكان مفاجأة لي أن أقرأ لغتي في هذه العلوم العصرية سليمة واضحة دقيقة طيعة ميسرة لا تتوقف ولا تتعثر ، وأن أمضي في قراءة المواد العلمية التي انعزلت عنها طويلاً مأخوذة بلهفة من يكتشف فجأة أن أسراراً من لغته غابت عنه بعد كل ما ضج به أفقنا العربي المعاصر من دعاوى طنانة تؤكد عجز لغتنا عن أداء علوم العصر وتبرز به جامعاتنا في الإصرار على تدريسها بلغة أجنبية » .

قد يقال إن هذه الكتب تفتقر إلى دقة المصطلح ، ولكن الكتاب العلمي ليس مجموعة مصطلحات بل هو في أكثره شروح وإيضاحات تعتمد على الألفاظ والتعابير العادية ، هذا من جانب ومن جانب آخر إلامَ نظل في خشية من المصطلح ولغتنا واسعة سعة لا حدود لها ، ولدينا أربعة مجامع لغوية نستفتيها ، ومكتب عربي للجمع والتنسيق والإقرار نرجع إليه ، ولغويون وعلماء في الجامعات العربية وفي غير الجامعات من معاهد العلم ومجالسه وهيئاته نستعين بهم ساعة نشاء .

وإننا لنتساءل : هل يكفي أن نترجم العلوم في بحوثها النظرية وتطبيقاتها العملية كيما نحقق الحالة الحضارية التي نتطلع إلى تحقيقها ؟

أقول : إن الترجمة العلمية شرط واجب وليست الشرط الكافي .

إنها تخلصنا من التبعية اللغوية ، وتضع في أيدينا وسائل العمل وأدواته ، وتجعلنا نقف على عتبة هذا العصر الزخر بالجديد في العلم والتكنولوجيا دون قطيعة تراثنا الكبير الذي استوعبته لغتنا العربية ، وتضعنا في حال (الاستعداد للفعل) ، الفعل الإيجابي الذي يتمثل بالمشاركة في الجهد العلمي البشري في هذا العصر .

ولا بد لنا من أن نستكمل الحلقات ، فنجمع إلى الترجمة العلمية وسائل أخرى تعين على تخطي التقبل إلى العطاء ، ومنها : تطوير التعليم العلمي في جميع مراحل الدراسة ، ولا سيما المرحلة الجامعية والدراسات العليا ، إحداث مراكز للبحوث والدراسات العلمية ومدها بالمخابر والأجهزة اللازمة ، رعاية رجال العلم والعلماء ، جمع الأدمغة العربية المهاجرة ، حسن استغلال الموارد الطبيعية والقوى العاملة ، ربط التعليم والبحث بالتنمية الاقتصادية والاجتماعية ، إحكام التكامل العربي في جميع هذه المجالات .

إن للترجمة العلمية دوراً أساسياً وطليعياً في بناء حضارة عربية في هذا العصر ، ولكن لا بد أن تندرج ضمن خطة علمية تنموية شاملة ، وضمن استراتيجيات تربوية وعلمية وثقافية واقتصادية واجتماعية يكمل بعضها بعضاً .

إننا ما زلنا في بعض الطريق ، ومازال أمامنا كثير من العمل على صعيد التخطيط والتنسيق والتنشيط والتشجيع ، كيما تأخذ حركة الترجمة دورها الحقيقي وتعطي النتائج المرجوة .

ونتساءل : لماذا ؟

ــ قد نجد جواباً عن هذا التساؤل إذا عرفنا أننا نحن العرب اليوم نعاني تعددية سياسية لم يعرفها العرب أيام العباسيين، فنحن أمة في دول عديدة، وآنذاك كان العرب أمة موحدة لا في الكيان السياسي فحسب بل أمة موحدة الهدف والإرادة، مما سهل على أولياء الأمور آنذاك أن ينشطوا هذه الحركة وينظموها ويمدوها بما احتاجت إليه من دعم.

هذا ولم يكن آنئذ من يبحث في صلوح اللغة العربية لتكون لغة علم فهذا أمر لم يكن يشك فيه، وأما اليوم فثمة من يؤمن بصلوحها وثمة من لا يؤمن، وثمة من يريدها لغة فقه وأدب وشعر لا لغة علم وتقنية، ومن هنا كانت الخطوات المترددة في إطلاق الترجمة إلى أهدافها وفي تعريب التعليم والتخلص من سطوة اللغة الأجنبية أو الازدواجية اللغوية في التعليم.

لقد تصدت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بوصفها الهيئة العربية المسؤولة عن التربية والثقافة والعلوم على النطاق القومي إلى معالجة هذه القضية واتخذت في ذلك خطوات:

١ ــ أحدثت منذ أقل من عام وحدة للترجمة في نطاق إدارة الثقافة تعنى بشؤون الترجمة وتنسيق مجهودات الأقطار العربية في هذا الميدان.

٢ ــ وأعدت مشروع خطة قومية تبين واقع الترجمة في الوطن العربي، وتبين أشكال التنسيق على المستويين الوطني والقومي، وتحديد دور كل من الدول العربية ودور المنظمة في هذا المجال.

٣ ــ وأعدت دراسة جدوى إحداث مؤسسة عربية تكون جهازاً من أجهزتها للترجمة والنشر يوكل إليها ترجمة الكتب والمؤلفات الأجنبية في العلوم والآداب وفق سلم أفضليات إلى اللغة العربية، وترجمة روائع الفكر العربي، قديمه وحديثه إلى اللغات الأجنبية لتعريف القراء بتلك اللغات بثمرات الفكر العربي الخلاق.

٤ ــ وأعدت دراسة جدوى إنشاء معهد عربي للترجمة يكون جهازاً من أجهزتها لإعداد مترجمين كتابيين وفوريين بمستوى رفيع.

وقد نظر مؤتمر وزراء الثقافة العرب الذي انعقد في بغداد من ٢ ــ ٥ تشرين الثاني ١٩٨١ في هذه الموضوعات وأقرها من حيث المبدأ، وطلب إثراءها واستكمال الدراسات حول واقع الترجمة في الأقطار العربية، وسوف تعرض على الهيئات والمجالس المختصة في إطار المنظمة بعد معاودة النظر فيها، لإقرارها.

وأثناء ذلك شرعت المنظمة باتخاذ إجراءات تنسيقية وتمهيدية منها: تكوين مكتبة في إدارة الثقافة بما ترجم إلى العربية في البلاد العربية، وإعداد دليل لمؤسسات الترجمة والنشر، ودليل المترجمين تُبيِّـن فيه أسماؤهم واختصاصاتهم واللغات التي يتقنونها، وجمع قوائم بالكتب المؤلفة باللغات الأجنبية والتي تصلح للنقل إلى اللغة العربية، وجمع قوائم بالكتب العربية، القديمة والحديثة، التي تصلح للنقل إلى اللغات الأجنبية، وطلب إشعارات من مؤسسات الترجمة والنشر الموجودة في الوطن العربي عن الكتب المقررة ترجمتها أو التي شرع بنقلها، كيما يعمم ذلك على الأقطار العربية للحيلولة دون التكرار والازدواجية، وإفساح المجال للتعاون والتكامل في هذا المضمار.

وكذلك شرعت إدارة التوثيق والمعلومات بالمنظمة بالتعاون مع وحدة الترجمة بإعداد حصر شامل لما ترجم من كتب من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية خلال الفترة ١٩٧٠ ــ ١٩٨٠.

إن الترجمة العلمية حريّ بها أن تستهدف تكوين لغة علم عربية الحرف والنطق، وجعل أدوات المعرفة العلمية في متناول المدرسين والدارسين والمختصين، وشق الدرب أمـام البـاحـثين والقادرين على الابتكار.. وعندها يكون أثرها بيناً في ترقية الوطن العربي حضارياً وإبلاغه المستوى المرتجى، وتمكينه من المشاركة الفعالة في الحضارة والثقافة المعاصرتين مع المحافظة على أصالته الثقافية وهويته الحضارية.

من أجل ذلك لا غنى لنا عن رسم خطة في مجال الترجمة قوامها:

١ ــ الوصول إلى لغة عربية عصرية بعيدة عن التحجر والجمود وعن العامية والركاكة في آن واحد.
٢ ــ تنسيق المصطلحات العلمية وتوحيدها وإقرار استخدامها في جميع البلدان العربية، ووضع المعجمات العامة والمعجمات المتخصصة التي تعين المترجمين العلميين على أداء مهامهم.
٣ ــ تعريب التعليم في سائر مراحله، الابتدائية والمتوسطة والثانوية والجامعية، وتوفير الكتاب الجيد مؤلفاً أو مترجماً: الكتاب المقرر والكتاب المرجع الموسع.
٤ ــ توفير المناخ الملائم للمترجمين فيعطى المترجم أجراً عادلاً على عمله، ويفرغ المجيدون من المترجمين لعمل الترجمة الذي لا يقل عن التدريس مثلاً، أهمية ونفعاً.
٥ ــ السعي لجعل ثمن الكتاب رخيصاً ولو بعون من الدولة المعنية ليسهل اقتناؤه، وتيسير

تداوله ، وتخفيض أجور الشحن ونفقات التوزيع ، وتخفيف الإجراءات الإدارية والمالية التي تحول دون وصوله إلى أيدي المنتفعين به .

ليس لنا أن ننتظر وليس لنا أن نسير ببطء ، إنها مهمة تاريخية أن نهتم بالترجمة : نخطط لها ، ننسق مجهوداتها ، نشجعها ، ندفع إليها ، نبذل من أجلها الجهد والمال ، ونحدث لها المؤسسات النشيطة القادرة .

الترجمة والنهضة العربية المعاصرة

دراسة نشرت في مجلة «الموقف الأدبي» التي يصدرها اتحاد الكتاب العرب بدمشق.

التقديم

عندما نتحدث عن النهضة العربية المعاصرة، فإنه لا مندوحة لنا عن تأطير البحث في الزمان والمكان، لنتعرف أبعاده وحدوده.

إننا لا نقصد بالنهضة العربية النهضة التي كان واحد من الأقطار العربية، في فترة زمنية ما، صانعاً لها أو حاملاً للوائها، بل هي النهضة التي عرفتها الأمة العربية وقامت بأعبائها، في هذا القطر أو ذاك، منذ ما يقارب قرنين من الزمن؛ وما زالت.

ولئن كانت شعلة النهضة تتقد حيناً في مكان ثم تخبو لتتقد في مكان آخر، فإن الصلات كانت على الدوام، جامعة بين أجزائها، صلات الوطن العربي الواحد، أرضاً وتاريخاً ومصيراً، والثقافة العربية الواحدة، واللغة العربية الواحدة.

لفتة إلى الأمس

إن النهضة التي نعيش في غمرتها اليوم، والتي بدأت تباشيرها في القرن الماضي، ليست مدخلنا إلى الحضارة والتاريخ، بل هي استئناف لمسيرة سابقة، وجهد جديد لاستعادة دور فاعل في صنع الحضارة الإنسانية والمشاركة في الكشف والإبداع في ميدان المعرفة البشرية.

وإن كان الشبه ماثلاً في الغايات المرتجى تحقيقها، فهو ماثل كذلك في الطرائق والوسائل المتخذة لبلوغ هذه الغايات.

لقد خرج العرب منذ أربعة عشر قرناً من البادية والجاهلية والعزلة في آن واحد، لا يملكون سوى بيان ساحر ومعارف هي عطاء البيئة والزمن.. وعندما استقر لهم الحكم في الشام والعراق وفارس ومصر وبلاد المغرب أقبلوا بشغف على علوم من سبقهم من الأقوام، واعتمدوا الترجمة وسيلة لنقل هذه العلوم من اللغات الأخرى: اليونانية والسريانية والفارسية والهندية إلى اللغة العربية.

هكذا بدأت النهضة العربية التي دخل بها العرب التاريخ بعزيمة وثقة، وكان عمادها ومنطلقها الترجمة، أي نقل ما كان قد بلغه الآخرون في ميادين العلوم من فلك ورياضيات وكيمياء وطب وهندسة وغيرها...

كانت حقبة من الزمن حافلة بنشاط عارم، وكان «بيت الحكمة» ببغداد نقطة الدائرة وبؤرة الإشعاع. مر العرب بعدها من حال إلى حال: اقتباس فتمثل فإبداع، وانعقدت لهم الأسبقية في العلوم العقلية مثلما كانت معقودة لهم في المعارف الدينية واللغوية والأدبية.

وكان للترجمة، في عهد الأمويين ثم في العصر العباسي بخاصة، أثر أي أثر في تقدم العرب العلمي ونهضتهم الحضارية اللذين امتدا بضعة قرون، كانت اللغة العربية فيها لغة العلم في العالم بأسره، وكان الوطن العربي، مشرقه ومغربه موطن حضارة إنسانية وارفة.

وليس يتسع المجال، هنا للإفاضة بما اتسمت به تلك النهضة، وحسبي أن أذكر أنها كانت شاملة لم تقتصر على جانب واحد من حياة العرب بل عمّت النواحي الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والفنية جميعاً، وأنها كانت عالمية لأنها لم تنشأ أو تعش في عزلة بل هي قبست من الحضارات التي سبقتها دون تحرج أو تردد، ثم أعطت العالم ثمرات اكتشافاتها وإبداعاتها، وأنها

كانت نهضة تاريخية امتدت بعيداً في الزمان والمكان، إذ استمرت نحواً من خمسة قرون بدءاً من مطلع القرن الثامن الميلادي، وامتدت على رقعة واسعة من الأرض، من تخوم الصين إلى شواطىء الأطلنطي وبلاد الأندلس وجزر المتوسط، ومن أقاصي طشقند وبخارى إلى منابع النيل في أواسط أفريقية.

ولعل خير شهادة تذكر في هذا المقام، هي الشهادة التي سطرها العالم الأمريكي الكبير جورج سارطون في كتابه الشهير (تاريخ العلوم) إذ يقول «لقد كان العرب أعظم معلمين في العالم، وقد زادوا على العلوم التي أخذوها، ولم يكتفوا بذلك بل أوصلوها إلى درجة جديرة بالاعتبار من حيث النمو والارتقاء».

مرحلة الانحسار

بيد أن فترة الازدهار الحضاري العربي ما لبثت أن انقطعت لأسباب داخلية وخارجية قاهرة، وجنح الحال إلى الانحسار والذبول، وفقد العرب القدرة على الفعل والإبداع، وانتقل مشعل التقدم والنهضة الفكرية من بين أيديهم إلى أيدي الأوروبيين من طرق شتى: بلاد الشام التي كانت مسرح الحروب الصليبية، والأندلس وجنوبي إيطاليا وجزيرة صقلية، وسائر نقاط التماس والتلاقي.

وقد حاول ابن خلدون أن يفسر هذه الظاهرة من الصعود والهبوط في سلم النهوض والرقي، فقال «... إن ما حصل هو من طبيعة الأمور لأن للدول والحضارات أعماراً كالأشخاص، وإن الدول تمر بثلاث مراحل تبلغ مائة وعشرين عاماً: في الجيل الأول تشتد العصبية، وفي الجيل الثاني يكون التملك والترف، وفي الجيل الثالث يعظم الترف ويستعان بالموالي وتذهب الدولة...».

قد يقصّر قول ابن خلدون عن تفسير الظاهرة، ولكنه رأي جدير بالتنويه.

النهضة المعاصرة

وبعد حلكة قرون، بزغت في الأفق العربي، في مطلع القرن الماضي، ومضات، فقد تنبه العرب، إثر الحملة الفرنسية على مصر، إلى أن العلم هو مصدر القوة، والجهل سبب الضعف، وقر في أذهانهم أن من واجبهم أن يستأنفوا ما انقطع ويعاودوا السير في طريق العلم والتقدم الاجتماعي، كيما يحققوا نهضة شاملة في حياتهم تكفل لهم الأمن والحرية والازدهار.

لقد كان المشروع الحضاري العربي يتجسد في إقامة دولة عربية واحدة تكون مستقلة وقادرة من جهة، وتكون قائمة على التقدم العلمي والرقي الحضاري من جهة أخرى.

وبالفعل، قام محمد علي وابنه إبراهيم بمحاولة جادة في هذا السبيل. فقد قاما بعمل حربي رائع بقصد إنهاء السيطرة العثمانية، وإقامة دولة عربية عزيزة الجانب تشمل وادي النيل وبلاد الشام ومناطق أخرى من الوطن العربي، وقام محمد علي بفتح المدارس والكليات والمعاهد العليا في مصر، وأوفد البعثات العلمية للدراسة في فرنسا، وشجع على الترجمة لنقل المعارف العصرية إلى اللغة العربية... الخ.

ولكن الاستعمار البريطاني والدولة العثمانية تآزرا لإحباط المحاولة، محاولة التوحيد والتحديث، محاولة النهوض من رقدة قرون.

وفي الحرب العالمية الأولى سنحت للعرب فرصة ثانية، إذ كانت نهايتها منعرجاً تاريخياً ومفترق طرق، وكان انهيار الدولة العثمانية فرصة للعرب لإقامة دولة موحدة حديثة، فعملوا من أجل ذلك، وقدموا الشهداء، وأشعلوا الثورة، وعقدوا العزم، ولكن الاستعمار البريطاني كان بالمرصاد هذه المرة أيضاً، فبسط سلطانه على فلسطين والعراق والأردن مستمراً في وجوده السابق بمصر، واتفق مع فرنسا تمارس سلطة الانتداب على سورية ولبنان (سايكس — بيكو ١٩١٦) مستمرة في بسط سلطانها على بلدان المغرب العربي، وأعطى وعد بلفور (١٩١٧) بإقامة وطن قومي يهودي في فلسطين.

وفي الحرب العالمية الثانية التي قاتل فيها الحلفاء «الفاشية والنازية» قتالاً ضارياً، ورفعوا فيها شعارات الحرية والعدالة للأفراد والشعوب، داعب النفوس أمل في أن تنال الشعوب التي آزرت الحلفاء وناصرت قضية الحرية، الاستقلال الذي كانت تحلم به ليكون سبيلها إلى تحقيق نهضتها الوطنية. ولكن الواقع أن القوات الغربية المحتلة لم تغادر الأقطار العربية إلا مرغمة، بعد نضال مرير ودامٍ مخلفة وراءها ركاماً من الفقر والعجز والجهل الخ...

زد على ذلك أن المنطقة العربية قد أصيبت فجر استقلال أقطارها، بل قبل تحرر بعض هذه الأقطار، بإقامة دولة إسرائيل في فلسطين، بدعم من الصهيونية العالمية وقوى الإمبريالية، مما استتبع نشوب خمس حروب بين الدول العربية وإسرائيل في المدة الواقعة بين عامي ١٩٤٨ و ١٩٨٢، وهذه الحروب كلفت العرب ثمناً باهظاً، واستنفدت مواردهم الاقتصادية وقواهم البشرية.

وهكذا حالت ظروف «الاستنزاف» المستمر، و «عدم الاستقرار»، دون تحقيق الهدفين الكبيرين اللذين يطمح العرب إلى تحقيقهما وهما الدولة القومية، والنهضة الحضارية، على وجه شامل وعاجل.

ولكن هل تلاشى الأمل؟

إن الأمل باقٍ في النفوس ما بقيت الحياة، ولا تسقط الراية من يد حتى تتسلمها يد أخرى، وتظل المسيرة منطلقة إلى هدفها، مهما كانت العقبات.

جهود بناءة

ولكن ثمة ظاهرة ينبغي الانتباه إليها، وهي أن النكسات التي أصابت المشروع العربي الكبير، في إقامة الدولة الموحَّدة والمحدَّثة لم تمنع العرب من إقامة مؤسسات قومية سياسية واقتصادية وثقافية تمثلت في جامعة الدول العربية ومنظماتها المتخصصة، وإنشاء الاتحادات النوعية العلمية والمهنية والثقافية، ووضع الدول العربية مخططات قطرية في كل المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافيّة ومُضِيِّها قدماً في نشر التعليم بجميع مستوياته الابتدائية والإعدادية والثانوية والجامعية، والعمل على محو الأمية بين الرجال والنساء وتشجيع الأعمال والمبادرات العلمية والأدبية والفنية، وباختصار إرساء أسس النهضة الحقيقية.

إن غاية هذا الجهد، المتفرق قطرياً، والمتكامل قومياً، والسائر قدماً دون توقف هو بناء الإنسان العربي والمجتمع العربي، بناء قائماً على الجمع بين الأصالة والتجديد، والتمسك بخير ما في التراث العربي من قيم إنسانية وفكرية وخلقية، مع الأخذ بمعطيات العلوم والتقانة المستجدة والمتقدمة باستمرار في تمازج عضوي يجعل هوية الإنسان العربي متميزة من جهة ومتسقة، من جهة أخرى، مع العصر الحالي بكل ما يزخر به من تفجر علمي وتقدم تقاني هما مصدر المنعة، ومبعث القوة للفرد والجماعة على السواء.

سمات العصر

ومن الجلي الواضح أن الحضارة البشرية تتطور باستمرار وتتخذ صوراً مختلفة بفضل الجهد المتواصل، ولا سيما الجهد العقلي الذي يدرك به الإنسان الواقع ليحوله إلى واقع أفضل ــ وهذا هو

معنى النهضة ــ والغاية دوماً هي الحفاظ على الجنس البشري، والرقي به بتحريره من الحاجة والخوف وجعله يحقق قدراته ويفجر مواهبه ويمضي قدماً في سلم الإنسانية.

وفي ضوء هذا التطور، نجد العالم اليوم ينقسم مجموعتين:

أولاهما: مجموعة الدول التي تعيش المرحلة الصناعية وما بعد الصناعية، وهي الدول الأكثر سلطة وقدرة وتأثيراً، وإنتاجاً وغنىً، وهي الدول المصنعة أو المتقدمة أو البالغة النمو أو دول الشمال ــ نسبة إلى موقعها الجغرافي ــ.

وثانيهما: مجموعة الدول التي تعيش مرحلة الزراعة مع مخلفات عهد الرعي المتميز بالبداوة والترحال، أو التي دخلت مرحلة التصنيع بحدود ضيقة، ويطلق عليها اسم الدول المتخلفة أو النامية، على سبيل التفاؤل، أو دول الجنوب ــ نسبة إلى موقعها الجغرافي ــ وهي دول أضعف قدرة من دول المجموعة الأولى وأقل إنتاجاً، وتتفاوت فقراً وغنىً حسبما تملك من موارد طبيعية.

وإلى هذه المجموعة الثانية تنتمي الدول العربية البالغ عددها اثنتين وعشرين دولة، عدد سكانها يقارب مئة وسبعين مليوناً يعيشون في منطقة من أهم مناطق العالم، غرب القارة الآسيوية وشمال القارة الأفريقية.

إن جهداً كبيراً وعملاً متواصلاً ينبغي الأخذ بهما ومتابعتهما دون كلل للحاق بركب الحضارة العصرية التي تحقق كل يوم كشفاً جديداً في مجال العلوم والتقانة، كيما يصح القول: إننا نعيش نهضة عربية معاصرة، جهداً وعملاً جديرين بأن ينصرفا قبل كل شيء إلى بناء الإنسان العربي والمجتمع العربي بناء سليماً ومتيناً وتنميتهما تنمية متوازنة ومتكاملة.

الترجمة أداة تقدم

وفي سياق البناء والتنمية، بناء الإنسان العربي وتنمية المجتمع العربي، تعليمياً وعلمياً وثقافياً، بالإضافة إلى تنمية الاقتصاد وحسن استغلال الموارد الطبيعية، تحتل الترجمة مكاناً مهماً ومتميزاً، لأنها الجسر الذي يصل بين الثقافات المختلفة، والوسيلة التي تمكننا نحن العرب من الاطلاع، بلغتنا العربية، على ما بلغه الآخرون وما أبدعوه من علم وأدب وفن، ولذا كانت بحق، نقطة البداية في

إرساء نهضة فكرية شاملة وصنع ثقافة عربية أصيلة ومعاصرة معاً تكون امتداداً لتراثنا الثقافي الذي شع ردحاً طويلاً من الزمن.

وإذا كان ثمة من يفصل بين التقدم العلمي والترجمة، بين التعلم واللغة، فهو على خطأ بيّـن، لأن شجرة المعرفة لا تثمر إلا في أرض اللغة... وليس من سبيل إلى توطين العلم في الأرض العربية إلا إذا نقلناه إلى اللغة العربية وتعلمناه وعلمناه بها، وغرسناه بالعقل العربي لينمو ويزهر في الأرض العربية. إن الاستيعاب الأمثل والإبداع الصحيح لا يكون إلا باللغة الأم؛ ثبت ذلك بالتجربة لدى جميع الأمم، فعمدت إلى نقل العلوم إلى لغاتها وجعلتها لغة التعليم في بلدانها. ومن هنا كان التعريب: تعريب التعليم والعلم، ضرورة، وكانت الترجمة أداته وسبيله.

ومن هذا الإحساس السليم بأهمية الترجمة ودورها الريادي في مجال العلوم والآداب والفنون، وبالتالي في مجال تحقيق النهضة العربية المعاصرة، اهتم الرواد العرب بالترجمة منذ مطلع القرن الماضي.

انصرف إليها أفراد نابهون يحفزهم حب الاطلاع والشوق إلى الجديد والمفيد، ثم نشأت لها مؤسسات خاصة وجدت في الترجمة الثقافية، والأدبية منها خاصة، عملاً فكرياً تؤديه ومنشطاً عملياً تحقق فيه كسباً وربحاً، وكان مسرح هذا النشاط على الأخص مصر ثم بلاد الشام.

ولا يخفى أنه مما حفز على الاهتمام بالترجمة أن التعليم بكل مستوياته، حتى الجامعية، في فروع الهندسة والعلوم الطبيعية والطب وغيرها، إنما كان يؤدي آنذاك باللغة العربية — في كلية الطب بالقصر العيني بمصر والكلية الطبية في الجامعة الأمريكية في بيروت مثلاً — مما استدعى أن تنقل إلى العربية كتب عديدة في الموضوعات العلمية المختلفة. ولكن تحويل التعليم العالي، بتأثير أجنبي، في مصر وبيروت، إلى الإنكليزية أقام حاجزاً بين الترجمة والتعليم وأضعف الحافز إلى نقل المؤلفات العلمية، بصورة خاصة، من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية. وقد استمر هذا الوضع في سائر مؤسسات التعليم العالي في الوطن العربي، إذ هي تدرس المواد العلمية بالإنكليزية أو الفرنسية، ما عدا الجامعات السورية التي عربت التدريس بكل مستوياته وتخصصاته منذ نشأته غداة الحرب العالمية الأولى حتى اليوم.

واقع الترجمة

إن حركة الترجمة في الوطن العربي، قد أعطت الكثير، منذ نشأتها في مطلع القرن الماضي

حتى اليوم. وقد نهض بها مثقفون بدافع ميولهم الثقافية، ودور نشر خاصة، ثم أحدثت لها مؤسسات رسمية حكومية مارست عمل الترجمة خدمة للقراء من المواطنين، فعملت على تقديم هذا الغذاء الفكري لهم وفق الإمكانات التي أتيحت لها والبرامج التي وضعتها.

ولكن السؤال الذي يطرح هو بالتالي: هل قامت الترجمة بالدور المتأهلة له اسهاماً في تكوين الإنسان العربي وتغذية عقله وشعوره وتفتيح مواهبه وزيادة قدراته الفكرية والعملية؟ وهل كانت متوافقة مع حاجات المجتمع العربي المتطلع إلى التحرر الاقتصادي والاجتماعي، بعد إحرازه التحرر السياسي، والطامح إلى إرساء نهضة شاملة تعتمد التنمية الاقتصادية والاجتماعية أداة لتحسين ظروف عيش المواطنين ورفع مستواهم الاجتماعي والثقافي؟.

إن نظرة نقدية تقويمية لا تصح إلا على أساس الدراسة المعمقة والاعتماد على الإحصاءات والبيانات، كيما يكون الحكم سليماً من الخطأ والارتجال، ولكن المعطيات التي قدمتها بعض الأعمال التوثيقية التي أصدرتها جهات ثقافية عديدة في البلدان العربية، والنشرات البيبلوغرافية التي أعدتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تساعد على إعطاء حكم تقريبي، وتشكيل صورة قريبة من الواقع عن حركة الترجمة. ونتيجة ذلك نستطيع أن نلمح في هذه الحركة سمات ثلاثاً:

١ — لم يتوافر تطابق تام بين الحاجة والفعل، فقد ترجمت كتب كثيرة ليس فيها كبير نفع، دفع إلى ترجمتها ما حظيت به من اهتمام في بلدان الغرب، وما أثير حولها هناك من صخب، وهي تتناول شؤوناً وقضايا غربية بعيدة عن شؤوننا وقضايانا، بل ترجمت كتب كثيرة فيها إساءة للتربية الخلقية وتزيين للرذيلة وتمجيد للجنس والعنف، حضّت على نقلها إلى العربية الرغبة في الإثراء العاجل بتملق المراهقين، الذين تغويهم مثل هذه الكتابات فيقعون في شباكها ويقبلون على شرائها، دون التنبه إلى ما تنطوي عليه من إضرار بهم.

ولكن لئن حصل ذلك، في غياب رقابة ذاتية أو رسمية، فإنه لا ينكر أن حركة الترجمة قد زودت اللغة العربية بروائع فكرية هي ثمرات العبقرية والإبداع باللغات الأخرى، وقلما نجد أديباً أو مفكراً في أية أمة من الأمم إلا وقد ترجمت بعض من أعماله إلى اللغة العربية، كما أننا قلما نجد مفكراً أو أديباً أو عالماً عربياً لم يتأثر بما ترجم إلى العربية من مؤلفات ودراسات أو أعمال أدبية مختلفة.

إن هذا الذي حصل من عمل جليل النفع وعمل آخر ظاهر الضرر، إنما هو نتيجة لعدم توافر خطة عربية شاملة في ميدان الترجمة، توفق بين الحاجات وبين المترجمات:

أ ــ حاجات الأفراد على اختلاف أعمارهم وتخصصاتهم وبيئاتهم.

ب ــ حاجات المجتمع العربي الذي يصنع «نهضته» ويخوض معركة التنمية الاقتصادية والاجتماعية.

ويتصل بهذا أنه ليس ثمة قواعد تضبط اختيار الكتاب المراد ترجمته... فغالباً ما ينتقي الكتاب مثقف هاوٍ يرغب في إنجاز عمل ثقافي، فيترجم ما انتقاه، ثم يبحث عن دار لطبع الكتاب المترجم ونشره، أو ناشر يقع اختياره على كتاب سمع عنه وتوقع رواجه وإقبال القراء على اقتنائه، أو مسؤول عن إدارة ثقافية يرشده في عملية الاختيار ذوقه الخاص واطلاعه الشخصي. وليس سوى قلة من المؤسسات في الوطن العربي، وضعت معايير للانتقاء والاختيار.

٢ ــ إن حركة الترجمة لم يتوفر ها التوازن: فالموضوعات الأدبية والاجتماعية استأثرت بنسبة مرتفعة من الكتب المترجمة، في حين أن الكتب العلمية كانت أقل عدداً وأضأل شأناً. ولم تنل حركة الترجمة اهتماماً واحداً في جميع الأقطار العربية، بل ثمة تفاوت كبير بهذا الشأن، أضف إلى ذلك أن هذه الحركة في البلدان العربية، جملة، أقل منها في بلدان أخرى.

فقد دل إحصاء بيبليوغرافي قامت به المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم عما ترجم خلال إحدى عشرة سنة ١٩٧٠ ــ ١٩٨٠ أن عدد الكتب المترجمة يبلغ (٢٨٤٠) كتاباً موزعة كما يلي:

المملكة الأردنية الهاشمية	٢٢
دول الإمارات العربية المتحدة	٠٢
الجمهورية التونسية	٤٠
الجمهورية الجزائرية	١٦
المملكة العربية السعودية	٠٧
جمهورية السودان	٠٩
الجمهورية العربية السورية	٤٤٢
الجمهورية العراقية	٢٣٨
سلطنة عمان	٠٠٥
فلسطين	٠٠٥
دولة قطر	٠٠٣

دولـــة الكـويـــت	٠٩٥
الجمهورية اللبنانية	١٥٢
الجماهيرية الليبية	٠٤٤
جمهورية مصر العربية	١٧٥٨
المملكة المغربية	٠٠٢
	٢٨٤٠

فنلاحظ من هذه المعطيات أن ثمة تفاوتاً كبيراً في عدد الكتب التي ترجمت في هذا القطر أو ذاك . تأتي جمهورية مصر العربية في المقدمة بنسبة ٦٢ ٪ ، وتليها الجمهورية العربية السورية بنسبة ١٧ ٪ ، ثم الجمهورية العراقية بنسبة ٩ ٪ ، فالجمهورية اللبنانية بنسبة ٥٫٤ ٪ الخ ... كما نلاحظ أن عدد الكتب المترجمة الكلي دون الحد المطلوب سواء بالقياس إلى عدد السكان أو بالقياس إلى الحاجات الفكرية والثقافية .

وإذا نظرنا إلى الإحصائية المذكورة من ناحية أنواع المعارف المترجمة نجد التالي :

المعارف العامة	٢٢
الفلسفة	١٦٥
الديانات	٢٣٥
العلوم الاجتماعية	٥٦٠
اللغويات	٠٢٠
العلوم الأساسية	٢٢٤
العلوم التطبيقية	١٨٤
الفنون الجميلة	٩٣
الآداب	١٠٢٢
التاريخ والجغرافيا	٣١٥
	٢٨٤٠

وهذه الأرقام تدلنا على عدم توازن في أعداد الكتب المترجمة بين المعارف المختلفة ، مع نقص ظاهر في كتب العلوم الأساسية والعلوم التطبيقية ، إذ لا تزيد نسبتها عن ١٤ ٪ ، في حين أن الآداب من قصة ورواية ومسرحية ونقد وفلسفة وتاريخ وجغرافيا وعلوم اجتماعية تزيد نسبتها عن ٧٠ ٪ .

إن هذه النسبة تدل على خلل واضح ، ولا سيما أن البلدان العربية تمر بمرحلة تنمية اقتصادية واجتماعية شاملة تستند ، بل ينبغي أن تستند ، إلى العلوم والتقنيات قبل كل شيء آخر !

ولعل من الأسباب الوجيهة في هذا النقص أن التعليم الجامعي ما زال في أكثر البلدان العربية غير معرب ، ولا سيما في الكليات والأقسام والمعاهد العلمية والتقنية ، مما أدى إلى العزوف عن ترجمة الكتب المنهجية والمراجع الموسعة والبحوث والدراسات العلمية ، إلا في حدود ضيقة وفي بعض الأقطار العربية دون سواها ، لأن المدرس والدارس في البلدان التي لم تعرب التعليم يجدان مطلبهما من الكتب العلمية والتقنية باللغة الأجنبية المكتوبة بها أصلاً .

٣ ــ إن حركة الترجمة لم تبلغ النضج والاكتمال من ناحية اللغة والأسلوب ، ومن ناحية الأداء واستخدام المصطلح ، بل إن في ذلك تفاوتاً كبيراً .

لقد تميزت بعض الترجمات بدقة كبيرة وبحسن نقل المعنى واختيار اللفظ وصوغ العبارة ، ولا سيما تلك التي أشرفت عليها مؤسسات حكومية ، وتم اختيار أشخاص أكفياء للنهوض بها . ومن المعلوم أن الشروط الأولية لترجمة ناجحة أن يكون المترجم متقناً اللغة العربية ، المنقول إليها ، إتقاناً حسناً وملماً بصرفها ونحوها وبلاغتها وأساليب التعبير السليم بها ، وأن يكون متقناً اللغة الأجنبية ، المنقول منها ، إتقاناً مقبولاً فلا يغيب عنه معنى من المعاني ، أو لفظ من الألفاظ ، أو قاعدة من القواعد ، كيما يكون عمله أدنى إلى الأمانة وأقرب إلى السلامة ، وأن يكون مختصاً في الموضوع أو ملماً به إلماماً حسناً ، فلا يتصدى لترجمة الأدب إلا أديب أو ذواقة أدب ، ولا ينقل كتاباً في الفيزياء إلا مختص في هذا العلم ، لأنه يكون عارفاً بالأفكار التي ينطوي عليها المؤلِّف ، ويكون قادراً على فهمها على وجه صائب دون لبس أو التواء .

قد يقول قائل : هذه بديهيات ، ومن المفروض أن تتوافر هذه الشروط في المترجم لتستقيم الأمور ويكون النص المترجم ، علمياً كان أم أدبياً ، نصاً يضاف إلى الثقافة المتاحة للقارىء العربي باللغة العربية السليمة التي لا تشوبها شائبة . ولكن واقع الحال ليس كذلك ، إذ يتصدى للترجمة أشخاص لا يملكون الشروط التي أتينا على ذكرها ، أو ، إذا كانت موفورة لهم ، لا يحترمون الأمانة في

الترجمة فيزيدون في النص المترجم أو ينقصون، أو يدركهم الطمع فيستعجلون المكافأة ويستحثون القلم غير آبهين بتأدية صحيحة للمعاني أو صياغة سليمة للمباني، فيأتي بعض كلامهم معميات أو أشبه بالمعميات، فتشمل الإساءة المؤلـف والقارىء معاً، وينقلب النفع على أيديهم ضرراً الخ...

ولكن بعد، كيف تستقيم حال الترجمة فتصبح منشطاً ثقافياً مهماً يؤدي دوره في تكوين الإنسان العربي: تغذي عقله وشعوره بثمرات العبقريات الإنسانية، منقولة من لغات مختلفة إلى اللغة العربية التي ألفها منذ صباه، ودرجت على لسانه وارتاحت إلى جرسها أذنه، وطابت بها نفسه، وبها يفكر ويعبر، فإن كانت أداته في الإطلاع كانت استجابته أقوى لأنها أداته الطيعة في الأخذ والعطاء، وفي التمثل والإبداع.

إنها لتستقيم إذا توفرت لها جميع أسباب النجاح ومقومات السلامة من حسن اختيار للكتاب، إلى المترجم القادر، إلى المؤسسة الواعية، إلى الشروط الأخرى الكثيرة التي ينبغي توفيرها ليصل الكتاب المترجم إلى القارىء جيد المضمون حسن الشكل لا تحبسه عنه رقابة عاتية ولا ثمن باهظ.

الجهد العربي

وإننا لنتساءل: مادام أمر الترجمة بالغ الخطورة في رفد النهضة العربية المعاصرة، فماذا كان موقف النهضة العربية من هذا الموضوع، وهل منحته اهتمامها وعملت له تخطيطاً أو تنسيقاً أو تنفيذاً؟

إننا سنشير بايجاز إلى جهود جامعة الدول العربية والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في هذا المضمار.

١ ــ نصت المعاهدة الثقافية التي أبرمت عام ١٩٤٥، وهي أول معاهدة عقدت بين الدول العربية التي وقعت ميثاق جامعة الدول العربية في العام المذكور نفسه، في إحدى موادها على ضرورة تنشيط الجهود التي تبذل لترجمة عيون الكتب الأجنبية القديمة والحديثة وتنظيم تلك الجهود في دول الجامعة.

٢ ــ وجاء ميثاق الوحدة الثقافية العربية الذي أقره مجلس جامعة الدول العربية عام ١٩٦٤

لينص في المادة السادسة عشرة منه على أن تعمل الدول الأعضاء على تنشيط الجهود التي تبذل لترجمة عيون الكتب الأجنبية القديمة والحديثة وتنظيم تلك الجهود.

٣ ــ وأما المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم التي قامت في تموز ١٩٧٠ فقد نص دستورها الذي تم إقراره عام ١٩٦٤، على أن هدف المنظمة هو التمكين للوحدة الفكرية بين أجزاء الوطن العربي عن طريق التربية والثقافة والعلوم، ورفع المستوى الثقافي في هذا الوطن حتى يقوم بواجبه في متابعة الحضارة العالمية والمشاركة الإيجابية فيها.

وفي ميدان الواقع والتطبيق انعكست هذه النصوص أعمالاً وخططاً ومشروعات:

١ ــ قامت الإدارة الثقافية، التي كانت إحدى إدارات جامعة الدول العربية منذ إنشاء الجامعة، بعمل ريادي في مجال الترجمة، إذ عملت على تقديم انموذجات تكون شواهد حية يحتذى بها، لغة ومضموناً، موضوعاً وأسلوباً، فترجمت بعض شوامخ الأعمال الأدبية والفنية، مثل تاريخ الأدب العربي لبروكلمان وقصة الحضارة لوول ديورانت وأعمال شكسبير وراسين المسرحية وتاريخ العلوم لسارتون وكتاب الرياضيات لبرتراند راسل الخ...

٢ ــ ودعت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم إلى عقد حلقة دراسية لمناقشة قضايا الترجمة، فانعقدت الحلقة في الكويت من ٢٤ ــ ٣١ ديسمبر / كانون الأول ١٩٧٣ وحضرها مندوبون من ثلاث عشرة دولة عربية. وقد قدمت إلى الحلقة عروض وتقارير عن واقع الترجمة في البلدان العربية، وبعد مناقشتها اتخذت توصيات دقيقة وشاملة ترمي إلى النهوض بحركة الترجمة ورسم السبل المؤدية لذلك.

٣ ــ إن أعمالاً عديدة تولت شأنها المنظمة العربية رفدت الترجمة، بصورة غير مباشرة، ومن هذه الأعمال الإنجازات التي حققها مكتب تنسيق التعريب بالرباط التابع لها، إذ إنه قام بإعداد أربعة وثلاثين معجماً للتعليم العام والعالي والتقني والمهني، منسقاً ما توفر من مصطلحات في المجامع اللغوية ومستأنساً بالمصطلحات المتداولة باللغات الأجنبية. وقد أقرت مؤتمرات التعريب الدورية الخمسة التي انعقدت حتى الآن والتي تتمثل فيها الدول العربية جميعاً هذه المعاجم..

ولا يخفى ما لهذا العمل من أهمية بالغة في رفد حركة الترجمة بالمصطلح الموحد، وهو إحدى اللبنات الأساسية في عملية الترجمة الناجحة.

كذلك قامت المنظمة العربية بجميع المساعي والإجراءات التي آلت إلى صياغة «الاتفاقية العربية لحماية حقوق المؤلف» التي وقعتها حتى الآن أربع عشرة دولة عربية. وتشمل الحماية بموجب هذه الاتفاقية الكتب المترجمة إلى اللغة العربية إذا كانت الترجمة قد تمت بموافقة المؤلف الأصلي.

٤ ــ وبعد دراسات معمقة قامت بها المنظمة العربية بدءاً من عام ١٩٨١ عن موضوع الترجمة وما يمكن أن تسديه من عون للنهوض بها، اختارت أن تواجه الموضوع من ثلاثة جوانب:

١ ــ جانب التنسيق والتخطيط: تمثل عملها في وضع «الخطة القومية للترجمة».

٢ ــ جانب تكوين المترجمين: تمثل جهدها في وضع مشروع «المعهد العربي العالي للترجمة» ومتابعة إنشائه.

٣ ــ جانب إنتاج الترجمات: تمثل سعيها في وضع مشروع «المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر» ومتابعة إنشائه.

إن هذا المنحى الذي سلكته المنظمة العربية في اتجاه التنسيق والتخطيط وإحداث المؤسسات القومية القادرة، بديلاً عن تقديم نماذج من الترجمات الناجحة، جاء متوافقاً مع المرحلة التي بلغتها الأقطار العربية في هذا الشأن من حيث توافر عدد كبير فيها من الهيئات الرسمية الحكومية ودور النشر الخاصة التي تعنى بالترجمة والنشر وإصدار الموسوعات والسلاسل والمعاجم الخ...

أ ــ الخطة القومية للترجمة

إن هذه الوثيقة التي وافق عليها المجلس التنفيذي للمنظمة العربية عام ١٩٨٢ قد عرضت لواقع الترجمة في الوطن العربي ماضياً وحاضراً، وبينت ملامح العمل المستقبلي: منطلقاته وأهدافه وأسسه ووسائله ومراحله وطرائق تنفيذه، ثم بينت الدور الذي يحسن أن تنهض به كل من المنظمة العربية والدول العربية.

لقد دعت الخطة الدول العربية إلى الأخذ بما يلي:

١ ــ دعم مؤسسات الترجمة والنشر الحكومية لديها ومساندة دور النشر الخاصة وتشجيعها، وإحداث مؤسسات للترجمة والنشر أو التشجيع على إحداثها في الأقطار التي لا تتوافر فيها أو التي ليس فيها عدد كافٍ من المؤسسات.

٢ ــ رسم خطة للترجمة على نطاق القطر وفق الاحتياجات القائمة والإمكانيات المتوافرة، وإصدار التشريعات اللازمة لتنظيم حركة الترجمة والرقي بها.
٣ ــ إقامة الاتصال والتعاون مع الأجهزة والمؤسسات المماثلة في الأقطار العربية الأخرى، ومع المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ومنظمة اليونسكو والهيئات الدولية والأجنبية ذات العلاقة.

كما دعتها إلى الاهتمام الجاد بقضايا الترجمة المهمة مثل: اختيار الكتب للترجمة، والمستوى الفني للترجمة، وتكوين المترجمين وتدريبهم، وإنشاء جمعية أو اتحاد للمترجمين، والعمل على تيسير تداول الكتاب المترجم وتوزيعه خدمة للقارىء.

أما دور المنظمة فهو يشمل أموراً عديدة: كالتوثيق والإعلام، والإرشاد، ورصد واقع الترجمة في البلدان العربية، وإصدار الأدلة التي تساعد على التعريف والإفادة كدليل المترجمين ومؤسسات الترجمة والنشر الخ...

ب ــ المعهد العربي العالي للترجمة

قامت المنظمة العربية بإعداد دراسة حول إنشاء هذا المعهد تلبية لطلب الأمانة العامة لجامعة الدول العربية. ويرمي هذا المعهد إلى تكوين مترجمين كتابيين وفوريين عرب يعملون بصورة خاصة، لدى الهيئات الدولية والإقليمية والإسلامية والعربية... وسيكون جهازاً تعليمياً وعلمياً مرتبطاً بالأمانة العامة المذكورة، يقبل طلابه من جميع الأقطار العربية ممن يحملون الإجازة الجامعية، وستكون مدة الدراسة فيه سنتين، يحصل بعدهما الدارس على شهادة في الترجمة تعادل الماجستير.

وقد تابعت المنظمة العربية خطوات إقامة هذا المعهد، واشتركت في وضع نظامه الأساسي واختيار مقره بالجزائر ووضع ميزانية له. وينتظر أن يباشر هذا المعهد عمله فور تأمين تمويل له وفقاً للقواعد النافذة في جامعة الدول العربية.

ج ــ المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر

أدركت البلدان العربية، منذ زمن بعيد، ضرورة قيام مركز عربي ينهض بتبعات التعريب والتثقيف في الوطن العربي، ويتولى تأمين الكتاب المعرب، مؤلفاً ومترجماً، لإغناء الثقافة العربية بما

بنقله من المؤلفات الأجنبية إلى اللغة العربية ، والمساعدة على تعريب التعليم ، وعلى الأخص التعليم العالي ، بتوفير مستلزماته من الكتب المنهجية والمرجعية والبحوث والدراسات والمستخلصات ، باللغة العربية .

ويؤدي هذا المركز مهامه من منطلق قومي ، وبجهد عربي شامل ، وتمويل عربي ، ليكون مبعث حركة ثقافية ولغوية ، تعليمية وتعريبية تعم البلدان العربية جميعها .

أضف إلى ذلك أن هذا المركز سيهتم بنقل روائع الفكر العربي ، قديمها وحديثها إلى اللغات الأجنبية لإطلاع القراء بتلك اللغات على خير ما في تراثنا العربي ، وأفضل ما ينتجه الفكر العربي في الوقت الحاضر .

ومن المنتظر أن يبدأ هذا المركز عمله في مطلع عام ١٩٨٨ بعد أن وافقت على إقامته الهيئات المختصة وتقدمت أكثر من دولة عربية بطلب استضافته لتكون مقراً له .

الخاتمة

إننا نعيش في عصر ، تقلصت فيه المسافات بين البلدان والقارات ، وكثرت فيه وسائل الاتصال وتبادل المعرفة والمعلومات « عصر تفجر المعرفة » أو « عصر العلم والتكنولوجيا ــ التقانة » .

إن العزلة في هذا العصر تكريس للتخلف ووقوف عن التطور ، في وقت صارت التنمية والتقدم : التنمية الشاملة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، والتقدم العلمي والتكنولوجي ، السمة البارزة في سعي الشعوب والأمم لبلوغ حياة أفضل . إن العالم تحول إلى « قرية » كبيرة يتسامع فيها الناس ويتراؤون ، لا يحول محيط أو صحراء دون تواصلهم وتأثر بعضهم ببعض : أخذاً وعطاء .

إن النهضة العربية التي يتوق إلى تحقيقها العرب تقوم على ركيزتين هما : الوحدة بدءاً بصيغة التضامن ووحدة الصف وانتهاء بالوحدة الدستورية ، والحداثة أي المعاصرة الصحيحة التي تنقل العرب إلى حيث وصل الآخرون ، إلى آفاق المعرفة الرحبة التي تسمح لهم باستئناف دورهم الرائد في صنع الحضارة الإنسانية . ولئن كان علينا اليوم أن نأخذ ، فلقد سبق لنا أن أعطينا : معرفة وعلماً ، وفي مرحلة الاقتباس الإيجابي ، لا التقليد البليد ، يجب أن نحفظ الهوية التي تكونت عبر العصور ، لنكون في زماننا هذا نحن ، لا صورة باهتة للغير .

وتظل الترجمة، بعد هذا كله، أحد الجسور التي نعبر عليها إلى حال نتشوف إليها، حال اليقظة والعطاء والمشاركة الإنسانية الفاعلة.

اللغة العربية والتقدم العلمي والتكنولوجي في هذا العصر

دراسة قدمت في الملتقى الدولي الثالث في اللسانيات تونس ١٨ ــ ٢٣ فبراير | شباط ١٩٨٥

إن الحديث عن اللغة العربية والمعاصرة التكنولوجية، يحمل في طياته هذا التساؤل: هل تصلح اللغة العربية التي كانت وعاء حضارة زاهرة خلال قرون عدة في الماضي، أن تكون وعاء حضارة أخرى، الحضارة القائمة على التكنولوجيا في هذا العصر؟ وبعبارة أخرى: هل تستطيع اللغة العربية أن تعبّر عن معانٍ ومفاهيم وأعيان ومستحدثات لم يبتكرها أهلها ولا ولدت على أرضهم، بل ولدت في الغرب وابتكرها آخرون؟

أهمية السؤال والإجابة عنه تكمن في أنه في حال الصلوح والاستطاعة، نجمع بين الأصالة المتمثلة باللغة العربية، والحداثة المتمثلة بالتكنولوجيا، ونوائم بين دالٍ موروث ومدلول جديد، وفي حال السلب نخسر أحد أمرين: إما لغتنا التي هي مقوم هويتنا القومية وجوهر ثقافتنا العربية لننطق بلغة «الآخر»، أو نخسر المعاصرة والحداثة لنعيش خارج حدود الزمن الذي نحيا فيه.

إن هذه القضية ليست من القضايا العارضة أو الهامشية التي يمكن إغفالها أو تجاهلها أو تركها للزمن الذي قد يجد لها علاجاً وحلاً، بل هي من القضايا الخطيرة المتصلة بوجودنا ذاته ومصيرنا نفسه، إذ ليس من وجود سليم لنا إذا خسرنا لغتنا وهي جماع الحرف الذي ألفناه وأحببناه، لأنه يحمل في نبراته أعز ما نملك من عقيدة وأدب وتراث، ولا مصير سليماً لنا إذا خسرنا حضورنا في هذا العصر، ووقفنا على بابه مشدوهين ــ وهو الذي شهد ويشهد ثورة في العلم والتكنولوجيا وتتفجر فيه المعرفة، كما لم يحدث البتة من قبل.

ولا بد لنا قبل الدخول في معالجة الموضوع هذا، من أن نلقي بعض الأضواء على مفهوم التكنولوجيا التي صارت سمة من أبرز سمات هذه الحقبة من الزمن.

لم تعرف كلمة من الشيوع والانتشار على أقلام الكتاب وألسنة الناس، عامة، ومن التأثير في العقول والمشاعر، ما عرفته كلمة التكنولوجيا في هذا العصر، حتى خيل للبعض أنها مفتاح التقدم الفرد وسبيل السعادة الأوحد، فكأنما هي القوة السحرية التي تبدل أوضاع الأفراد والجماعات من حال إلى حال، -والمدخل الأمين إلى عالم القوة والثروة والسلطان.

والحق أن لفظ «التكنولوجيا» يحمل كثيراً من الغموض وليس له دلالة واحدة عند الناطقين به. ولذا فإن الباحث مطالب قبل الخوض في موضوع التكنولوجيا بأن يقع على تعريف محدد واضح لها، ويوضح الفارق بينها وبين العلم، ولا سيما أنهما مقترنان في الأذهان حتى ليظن أنهما واحد أو أن بينهما علاقة تلازم لا في الزمن الحاضر فحسب، بل منذ نشأتهما وفي كل زمن عبر التاريخ المديد.

إن للتكنولوجيا تعاريف كثيرة نسوق بعضاً منها: إنها مخزون المعرفة المتاحة لمجتمع ما في لحظة معينة في مجال الفنون الصناعية والتنظيم الاجتماعي، أو هي تطبيق المعرفة العلمية لحل مشكلة احتياجات الإنسان المادية... وأما العلم فهو ثمرة النشاط العقلي للإنسان.

وإذا ما قارنا بين العلم والتكنولوجيا تبرز حدودهما وسماتهما:

• العلم يجيب عن السؤال: لماذا؟ وهي تجيب عن السؤال: كيف؟

• العلم يأتي بالنظريات والقوانين العامة، يستمدها من البحوث المبتكرة، والتكنولوجيا تحول هذه النظريات والقوانين إلى أساليب وتطبيقات عملية تستنبطها.

• العلم يملك صفة العمومية لأنه نتاج فكري، والفكر واحد عند بني الإنسان، وهي تتميز بالخصوصية لأنها ذات طابع عملي ونتاج الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية التي يواجهها مجتمع ما.

• العلم لا جنسية له ولا تحده حدود جغرافية أو قومية أو سياسية، وبالتالي لا وطن له ولا يقع تحت احتكار، وأما التكنولوجيا فهي من صنع مجتمع معين، ووليدة ظروف محددة، وحصيلة شروط ينبغي توافرها، ولذا فهي قد تخص هذا البلد أو ذاك، وفي مقدور صانعها أن يخص نفسه بثمراتها وأن يحتكرها، كما هي الحال اليوم.

ولئن وضع العلم نظرية معينة عن القمر وطبيعته، وتنبأ بقدرة الإنسان على النزول على سطحه، فإن التكنولوجيا الفضائية قد استطاعت أن تصل بالإنسان إلى القمر، وتحصل على عينات من تربته، وتعيدها إلى الأرض لتفحص في المختبرات العلمية.

أما من حيث النشأة، فالاختلاف قائم كذلك بينهما. إنها أسبق وجوداً منه، وقبل أن يكون كانت. لقد وجدت منذ وجد الإنسان، لأنها كانت وسيلة من أجل الحفاظ على ذاته بتأمين غذائه وكسائه ومأواه، وأداته في كفاحه، مدفوعاً بغريزة حب البقاء، ضد الطبيعة بقرّها وحرّها وسيولها وعواصفها وظلمتها، والحيوان بسباعه وزواحفه وحشراته، والإنسان الآخر من بني جنسه: المنافس والغاضب والناقم والحاقد الخ...

إن الخطوات التي قطعها الإنسان لإيجاد الطرائق والوسائل والأدوات التي تساعده في معركة الوجود، وتطويره إياها، إنما ترسم قصة حضارته، هذه القصة العجيبة التي حاك خيوطها بالعرق والدم والجد والنصب: استخدام الحجارة والعظام والأخشاب، ثم استعمال المعادن من حديد ونحاس وبرونز ورصاص، ثم صنع العربة والزورق والزجاج والورق... لقد قامت حضارات العالم القديم على التقنيات التي استحدثها الإنسان وطورها، فأسعفته في استنبات الأرض والعمل في الزراعة، وتأهيل الحيوانات ودرء خطرها، وبناء السدود والمساكن، وحياكة الملابس، وممارسة الفنون كالنحت والرسم والموسيقى. وقد سارت الأمور على هذا النحو، حتى تخمرت المعارف العلمية ذات الطابع العملي، والتي أسهمت شعوب كثيرة في إيجادها وإغنائها في وادي النيل وبلاد الرافدين وشواطىء المتوسط والشرق الأقصى، فكانت بداية العلم النظري والنظرة الفلسفية عند الإغريق.

وعندما دخل العرب ميدان الحضارة الإنسانية بثقة وعزيمة، بعد أن استناروا بهدي الإسلام، وتفتحت عقولهم للمعرفة بتأثير تعاليمه الداعية إلى طلب العلم، جمعوا في صيغة فذة العلم النظري والتطبيق العملي، وحققوا أول لقاء بين العلم والتكنولوجيا، وأورثوا ذلك الأوروبيين من بعد.

وبعدما أخذ الغرب بالمنهجية التجريبية في مطلع القرن السادس عشر، سار قدماً في عصر النهضة وما بعده، فوجدت الصناعة تطبيقاً للنظريات العلمية، واتصل العلم بالتكنولوجيا اتصالاً وثيقاً في القرن التاسع عشر، وحدث بينهما تفاعل وتأثير متبادل: العلم يفتح أمام التكنولوجيا آفاقاً جديدة بما يجدّ في ساحته من نظريات وآراء، والتكنولوجيا تمدّ العلم بوسائل فعالة وتضع بين أيدي

العلماء ما يمكّنهم من ارتياد المجهول. وتسارعت الخطوات في هذا السبيل، حتى كانت الثورة العلمية التكنولوجية بعد الحرب العالمية الثانية.

وفي العقود الأربعة الأخيرة، تشعبت هذه الثورة، بعد اتساعها، إلى مجموعة من التشعبات، في مقدمتها التكنولوجيات الدقيقة ذات التطبيقات المتعددة في المجالات الكثيرة، وعلى الأخص مجال الاتصالات والمعلومات، وثورة التكنولوجيات البيولوجية وثورة هندسة المكوّنات الوراثية، وثمة من يتكلم عن ثورة جيولوجية ترمي إلى اكتشاف المواد الطبيعية التي تختزنها الأرض والمحيطات، وثورة في مجال إيجاد مواد جديدة يمكن استخدامها في مجال البناء وصناعة مستلزمات الثورة الإلكترونية.

ولعل أهم اختراعات القرن العشرين، بل العصور كلها، هو اختراع الحاسب الالكتروني في الأربعينيات، واجتياز أجياله الخمسة مراحل مذهلة من التقدم تتجلى في تقلص حجمه وازدياد قدرته على اختزان البيانات وتحليلها، حتى لتقدر قدرة تخزين الترانزستور الواحد من الجيل الخامس منه مليون معلومة، في حين يتوقع ألا تزيد مساحة هذا الترانزستور في عام ١٩٩٠ على مساحة ظفر الإبهام! ومن المتوقع أن يصبح هذا الحاسب آلة ذكية قادرة على إيجاد حلول لكثير من المشاكل على غرار الرجل الآلي (الرابوت).

ويتوقع الباحثون أن يكون لهذه الثورة الالكترونية نتائج بعيدة المدى في الدول المصنعة والدول النامية على السواء، مثل اختفاء كثير من الأعمال القائمة على الجهد العضلي وكثير من الوظائف غير التخصصية، وتقل ساعات العمل الأسبوعية، وتتبدل العلاقات الاجتماعية، وتخلق أعمال ووظائف جديدة تتطلب دربة ومهارة. وقل مثل ذلك في التشعبات الأخرى للثورة التكنولوجية في ميادين البيولوجيا والجيولوجيا والفضاء، مما لا يقع تحت حصر ويفتح أمام البشرية أبواب عصر حافل بكل جديد.

إننا إزاء هذه الثورة التكنولوجية العاصفة التي نشأت في البلدان المصنعة ليس في مقدورنا، كما أنه ليس في مقدور غيرنا من شعوب بلدان العالم الثالث، أن نقف مكتوفي الأيدي حيث نحن، إذ إن البلدان المصنعة تسير بخطوات جبارة ولا تتوقف عن السير، مما يزيد البون بينها وبيننا في هذا المجال، وليس من خيار لنا إلا أن نلج هذا الميدان العلمي والتقني بكل الطاقات البشرية والمادية

والمالية التي نملكها . ومن المفيد أن نحدد خطواتنا ونلتمس الوسائل التي من شأنها أن تنقلنا من وضع المشاهدة إلى وضع العمل ، ومن دور السكون إلى دور الحركة ، ومن حال الاستهلاك إلى حال الإنتاج ، من موقف الأخذ والتلقي والتقليد إلى موقف الفعل والابتكار والإبداع ، في سياق خطط محكمة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية الشاملة التي تعتمد العلوم والتكنولوجيا قاعدة لها ، وتأخذ في حسابها الخامات الطبيعية والقدرات البشرية المتوافرة لدينا ، والحاجات الأساسية للمواطنين ، وتربط النظام التعليمي بهذه الخطط ، وتشرك الجمهور الواسع في إنجاز المهام التاريخية التي نحن بصددها .

ومن هذا المنطلق أخذنا نسمع منذ وقت ليس ببعيد بالدعوة إلى نقل التكنولوجيا من البلدان المتقدمة صناعياً إلى البلدان العربية ، وعقدت من أجل هذا الغرض اجتماعات ومؤتمرات .

ونستطيع أن نتلمس في هذا الموضوع بعض الحقائق :

• إننا لا نستطيع أن نعيش في معزل عن العالم أو نغمض الطرف عما يجري فيه وما يستحدث في رحابه ، في وقت طغى فيه الإعلام وازداد الاتصال وتقلصت المسافات بين البلدان والقارات .

• في الواقع الراهن نستورد منتجات التكنولوجيا بأثمان غالية ندفعها من خامات أرضنا العربية ومن ثمرات هذه الأرض وجهود أبنائنا ، فنحن مستهلكون لا منتجون .

• ليس المهم أن ننقل التكنولوجيا ، وإن كان هذا النقل يقتضي الكثير من الجهد والنفقة ، بل المهم توطين العلوم والتكنولوجيا في الأرض العربية واستنباتها فيها ، لأن هذه المعاصرة ، التي غدت ضرورة حياتية ، لا تعني التقليد والاتباع ، أو النقل والاستهلاك بل هي الفهم والتمثل والألفة والمعايشة والمواءمة ثم الابتكار والإبداع ... إنها السبيل إلى امتلاك القدرة ، بل صنع القدرة من أجل حفظ الذات والحصول على ما يضمن السلامة والأمن والحرية والكرامة في عالم عاصف تحركه المطامع والنزوات ، والطريق إلى استئناف دورنا الرائد في عالم المعرفة والعلم .

وحريّ بنا أن نعلم ، ونحن في هذا السياق ، أن التكنولوجيا المعاصرة التي نجدها اليوم في الغرب والتي هي سرّ قوته وجبروته ، بل وسيلته إلى استنزاف خيرات الشعوب والتحكم بمصائرها ، لم يبتدعها الغرب من عدم ، ولا تفرد في استنباطها ، بل هي الحلقة الأخيرة من سلسلة الاكتشافات والابتكارات التي لم تنقطع ، والتي أسهمت فيها أمم وشعوب كثيرة منذ بدأ الإنسان يُعمِلُ عقله ويده للتغلب على الظروف القاسية التي تكتنفه وإيجاد ظروف أوفر أمناً وسعادة له ... وقد كان للعرب ، خلال مئات السنين فضل الريادة في مضمار الكشف والإبداع ، وأضافوا إلى ما أخذوه

عمن سبقهم إضافات مهمة في ميدان العلوم والتكنولوجيا، فضلاً عن المواءمة بينهما انطلاقاً من نظرتهم إلى الإنسان وَحْـدةً قِوامها الفكر والعمل.

فلئن قبسنا اليوم مما حصّل الآخرون، فقد سبق لنا أن أعطينا الكثير، ويشهد مفكرو الغرب أنفسهم بأن الغرب مدين للعرب، وأنه استنار بما قبس من علومهم ومعارفهم.

وينبغي التأكيد أننا، ونحن نتطلع إلى الانعتاق من حال التخلف التي أورثتنا إياها عهود عانينا فيها التسلط والقهر، ونقبل على المعاصرة التكنولوجية دون وَجَل أو تردد، لنتمسك في أن نظل «نحن» محتفظين بمقومات وجودنا القومي وبتراثنا الروحي والخلقي الذي هو جوهر أصالتنا وسمة شخصيتنا المميزة.

إن من مقومات وجودنا القومي الذي نحرص على التمسك به ونحن نواجه قضية المعاصرة التكنولوجية، اللغة التي ننطق بها، اللغة العربية التي انتقلت إلينا، منذ عصور موغلة في القدم، فحملت إلينا تراث الأجيال المتعاقبة عقيدة وفكراً وشعوراً، واستوعبت ثقافتنا فغدت وعاءها وعنوانها.

• إن اللغة العربية ليست شيئاً منفصلاً، كساء نرتديه عندما نشاء ونخلعه عندما نشاء، بل هي شيء منا نعيشه منذ الطفولة حتى النفس الأخير.

إنها أهم مقومات شخصيتنا وأبرز طابع لهويتنا القومية.

• إن هذه اللغة، هي مستودع القيم والتجارب التي انتقلت إلينا، ومُختَـزَن ثقافة الآباء والأجداد، ومجلى إبداعهم وعطائهم، وهي فوق ذلك بل قبله لغة القرآن الكريم، وبها، دون غيرها، تتلى الآيات البينات في طول الدنيا وعرضها آناء الليل وأطراف النهار.

إن حرصنا على التمسك باللغة العربية في مواجهة المعاصرة التكنولوجية، يتطلب منا أن تكون العربية وسيلة التفكير والتعبير في مجال العلم. ومن أجل بلوغ هذا الهدف، ينبغي أن يكون التعليم، وعلى الأخص تعليم العلوم والتكنولوجيا، في جميع مراحل التعليم، بما فيها التعليم العالي، باللغة العربية.

وواقع الحال أن العلوم والتكنولوجيا لا يتم تعليمها باللغة العربية في جميع الأقطار العربية، ولا سيما في المرحلة الجامعية. فثمة قطر واحد هو سورية، قد بدأ التعليم باللغة العربية منذ ما ينوف على

ستة عقود، ثم استمر كذلك حتى الآن في كل مستوياته وفروعه وتخصصاته. وثمة أقطار عربية تسلك الطريق إلى تعريب العلوم بهمة عالية، وقد شرعت، بعد تعريبها العلوم الاجتماعية والإنسانية في تعريب العلوم الأساسية والتطبيقية في مراحل مختلفة من السلم التعليمي، وفي طليعتها العراق والجزائر. وثمة أقطار عربية ترغب في التعريب وتتلمس دربها إليه ولكنها لم تَـخْـطُ في سبيله سوى خطوات متواضعة.

لقد تنبه قادة الفكر ورجال الثقافة العرب إلى هذا الأمر «تدريس العلوم بغير العربية»، وتناولوه بالدرس والتمحيص، وعقدت من أجله الندوات والمؤتمرات وصدرت التوصيات والقرارات، ولكن الحصاد الفعلي كان قليلاً.

ولكن ماذا يعني أن يكون تدريس العلوم، ولا سيما في المرحلة الجامعية بغير العربية؟ إنه يعني أن العربية لا تصلح لغة علم وتعليم، ولذا فإنه يستعاض عنها بلغة أخرى، هي حصراً الإنجليزية في بلدان المشرق العربي ووادي النيل والفرنسية في بلدان المغرب العربي.

فهل هذه هي الحقيقة؟

إن هذا الزعم وهم أو بطلان. هو وهم لأن دعاة هذا الاتجاه الذي ندعوه «التغريب» مقابل «التعريب»، إذا تركنا جانباً من كان سيء القصد منهم وغرضه الكيد للعرب والعربية، هم أناس قد أتموا اختصاصهم العلمي في بلد أجنبي وبهرهم التقدم العلمي في ذلك البلد، فخيل إليهم أن للعلم لغة دون سواها أو لغات قليلة تصلح له، وأن ثمة لغات لا تصلح أن تكون لغة علم وتعليم منها اللغة العربية، التي هي لغتهم أصلاً.

وبالطبع فإن هذا الاعتقاد خاطىء، لأنه لم يكن للعلم خلال التاريخ لغة واحدة بل تغيرت اللغات التي حملت مشعله من حقبة زمنية إلى أخرى. وفي الوقت الحاضر لا تحتكر العلم والتكنولوجيا لغة واحدة، بل تتقاسم حمل رايته لغات عدة كالانكليزية والروسية والألمانية والفرنسية، وليست اللغة العربية أقل من هذه اللغات قدرة على أن تكون لغة علمية، وإن كان ثمة عجز في مجال ما فليس مرده قصورها، بل تقصير الناطقين بها عن العناية بإيجاد المصطلح الملائم والتصدي لإغنائها بالترجمة والتأليف.

وهذا الزعم بطلان تدحضه وقائع عدة وتظهره عارياً من الصحة:

• لقد استطاعت اللغة العربية ، في القرن الثاني للهجرة وما تلاه ، أن تواجه علوم الأقدمين من فرس وهند ولا سيما علوم اليونان ، فتستوعب ألفاظها ومعانيها ثم تفسح صدرها لما أبدعه العلماء العرب وأضافوه ، فإذا بالريادة تعقد لها بضعة قرون متوالية .

• وفي النصف الأول من القرن الماضي ، بدأ التعليم الجامعي في مصر بالعربية ، واستمر أكثر من ستة عقود ، ووضعت بالعربية ترجمات ومؤلفات قيمة ، وكذلك جرت تجربة في بيروت ناجحة ــ الجامعة الأمريكية (كلية الطب) ــ إلا أن رياح الاستعمار قد أطفأت المصباح .

وأما دمشق فقد تواصل فيها التعليم بالعربية في مستوى الجامعة منذ عام ١٩١٩ حتى اليوم ، وفي جميع الفروع والاختصاصات وبنجاعة ظاهرة .

• وقد شهد العالم بأسره على ما تتميز به العربية من الحيوية والغنى والمرونة والقدرة على تقبل الجديد وتوليد اللفظ ، وقدّر ما تحمل من إرث علمي إنساني كبير وما تتصف به من قدرة على الوفاء بسائر الأغراض ، فاعترفت منظمة الأمم المتحدة والمنظمة العالمية للتربية والعلم والثقافة والمنظمات والوكالات الدولية الأخرى ، بأن العربية لغة عالمية حية ، واعتمدتها لغة رسمية إلى جانب اللغات الخمس الأخرى : الإنكليزية والفرنسية والإسبانية والروسية والصينية .

وإذا ما خصصنا بالذكر التعليم ولا سيما العالي منه في حديثنا عن التعريب ، فإن مبعث ذلك أهميته في تكوين الإنسان وبناء المجتمع . ولكن الهدف في الحقيقة هو أبعد من ذلك إذ هو تعريب الحياة برمتها وبكل وجوهها والمجتمع بكل أبعاده ، وذلك كيما تكون اللغة العربية لغة الإنسان العربي أيـاً كان وحيث كان .

والمسألة ليست ذات وجهين ولا تقبل حلين . ثمة خيار واحد هو التعريب ، وإذا صح نقاش ففي الطرائق والوسائل والمراحل لا في المبدأ .

إن المرء لا يختار لغته ، لأنها قدره المتصل بوجوده ومصيره . ومن اتخذ لغة غير لغته الأصل ، في التعليم أو المعاش كان كمن تنكر لوالديه أو جحد فضلهما عليه أو حط من قدرهما ، وحسب اللغة قيمة ورفعة أن تكون من مقومات القومية ومدعاة الانتماء إلى الأمة وطابع الحضارة وسمة الثقافة .

إن انتشار لغة ما معزة لأهلها وقوة ، وانحسارها مهانة لهم وضعف ، ولذلك نجد الأمم القوية تبذل الجهد والمال لنشر لغتها في أصقاع غير صقعها وتنشىء المجامع العلمية للحفاظ عليها . وفي ضوء

هذه الحقيقة ندرك تماماً مسلك الاستعمار في مشرق الوطن العربي ومغربه إذ بذل جهوداً مستميتة لإضعاف اللغة العربية وتضييق انتشارها: حاول أن يطرد اللغة العربية من الحياة العامة، وأن يجعلها ترتبط في أذهان الناس بالتخلف الاجتماعي، وأن يفتت وحدة اللغة العربية بلفت النظر إلى اللهجات، واعتبارها بمنزلة تضاهي منزلة الفصحى، وأن ينفّر الناس من لغتهم باتهامها بالجمود والقصور والعسر، وأن يضعف أثرها الاجتماعي بجعل اللغة الأجنبية سبيل الحصول على الرزق والمكانة الاجتماعية.

واختلفت السبل التي سلكها الاستعمار، فتراوحت أساليبه بين المحاولات الاستيعابية الكاملة للشعوب المستعمَرة في لغتها وثقافتها، كما هي الحال في الاستعمار اللاتيني، وبين المحاولة التهميشية للغات والثقافات المحلية وتسييد لغة المستعمر وثقافته في مجالات الحياة العامة وفي السياسة والإدارة والاقتصاد والثقافة والعلوم والتكنولوجيا، ويتمثل ذلك بالاستعمار البريطاني.

كل ذلك كان له أثر في البلدان العربية التي عانت وطأة الاستعمار، وقام من يشكك في كفاءة اللغة العربية مأخوذاً بالتضليل. وعلى الرغم من انقضاء عشرات السنين على جلاء المستعمر والحصول على الاستقلال ما زال أثر هذا التضليل سارياً.

وإذا لم يكن للعلم وطن، فإن للعلماء ورجال العلم أوطاناً. ليست الغاية أن يكون لدينا حملة شهادات وخريجو جامعات يرطنون بالأجنبية ولا تصلهم بأبناء جلدتهم إلا أوهن الأسباب، بل الغاية أن يكون من أبنائنا علماء ورجال علم يفكرون بالعربية ويعبرون بها ويتعاملون بعفوية وصدق مع مواطنيهم، ويضعون خبراتهم في خدمة التنمية للنهوض ببلدهم إلى المستوى المنشود.

في هذه الحال يسكن العلم عقولنا وجامعاتنا، ويتجول في حقولنا ومعاملنا، وينبت ويزهر ويثمر في مدارسنا ومختبراتنا، وتصبح المعرفة نبضاً في عروقنا ونسغاً في أجسامنا لا حلية نتزين بها أو برقعاً نخفي وراءه جهلنا وغربتنا.

وهذه الدعوة الملحة إلى تعريب التعليم العلمي ليست بدعة أو ردة، بل هي دعوة إلى تصحيح خطأ وعودة إلى أصل. ولسنا نحن العرب أول من دعا إلى ذلك، بل سبقتنا إليه شعوب وأمم أخرى وأخذت تدرس العلوم والتكنولوجيا بلغاتها القومية: مثل هذا فعلت اليونان واليابان وبلغاريا وفنلندا وهنغاريا... والأغرب من هذا كله أن إسرائيل منذ أنشأتها الصهيونية العالمية في فلسطين

العربية بؤرة عدوان وتوسع وتسلط ضد الوطن العربي كله ، قد أحيت اللغة العبرية التي تعتبر لغة مية مندثرة لتجعل منها لغة حية تدرس بها العلوم والتقنيات في جميع مراحل التعليم .

إن أهمية التعريب لا يرقى إليها شك ، وليس من يجهل أن ازدهار اللغة القومية كان دوماً إشارة تدل على قوة الأمة ومناعتها ، وأن حركات التحرر والانبعاث كانت تبدأ بإحياء اللغة القومية .

ونضيف إلى هذا أنه لا حياة للغة لا تفي بحاجات العصر ولا تخدم متطلباته الفكرية والثقافية ، ولا تنمية حقيقية في ظل الازدواج اللغوي والاغتراب الثقافي . إن عماد التنمية هو الإنسان ، وليس يستطيع هذا الإنسان أن يعطي ما يرغب في عطائه إلا إذا كان منسجماً مع نفسه واثقاً من قدرته متفاعلاً مع أقرانه وأبناء قومه .

ولا بد من التنويه هنا بالاتجاهات الإيجابية التي أقرها المؤتمر الثاني لوزراء التعليم العالي والبحث العلمي في الوطن العربي ، الذي انعقد في مدينة الحمامات بتونس من ٢٠ — ٢٣ تشرين الأول / أكتوبر ١٩٨٣ وهي :

١ — تأكيد مبدأ التعريب في مجال التعليم العالي وضرورة البدء بتنفيذه .
٢ — ضرورة الخروج من الحديث النظري عن التعريب إلى اتخاذ القرار في ذلك على المستويين القومي والقطري .
٣ — اتخاذ أسلوب التدرج في التعريب وفق خطط مرسومة شريطة التزامها وتنفيذها في مواعيد محددة .

وتثبيتاً لهذا الاتجاه أوصى المؤتمر بإحداث المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر ، هذا المركز الذي تطلعت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم إلى إقامته ، وأعدت الدراسات اللازمة بشأنه كيما يساعد على تعريب التعليم العالي بتأمين احتياجاته من الكتب والمراجع والبحوث والدراسات في مختلف ميادين المعرفة والعلوم والتكنولوجيا عن طريق الترجمة والتأليف والنشر ، ويساعد على خدمة الثقافة العامة بترجمة روائع الأدب والفكر العربي ، وكذلك يعرّف القراء باللغات الأجنبية بروائع الفكر العربي قديمه وحديثه بترجمتها إليها . ويمكن لهذا المركز أن يستثمر الجهود التي سبق أن بذلت في وضع المصطلحات العلمية في أعمال الترجمة والتأليف التي سيقوم بها ، وقد تكرمت دولة الإمارات العربية المتحدة باستضافة هذه المؤسسة الهامة .

ومن المهم أن نشير إلى أن تعريب التعليم العلمي لا يعني البتة إهمال تعليم اللغات الأجنبية في مدارس الوطن العربي وجامعاته، ولا يتعارض مع إكساب المتعلم لغة أجنبية تكون أداته للاتصال بالثقافة الأجنبية وبمصادر العلم والمعرفة بتلك اللغة، ولكنه يتعارض مع إحلال اللغة الأجنبية محل العربية. إن التعليم باللغة الأم ليس هو الأوجب فحسب، بل هو الأجدى، وقد دلت الدراسات والتحريات أن المتعلم يستوعب ما يسمعه ويقرؤه بلغته الأم أكثر مما يستوعب ما يسمعه ويقرؤه بلغة أخرى. وإذا ما جرى التعليم بالعربية فإن دراسة أية لغة أجنبية أخرى تحمل للمتعلم النفع وتفتح له نافذة على الثقافات الأخرى. إن التعريب انفتاح واغتناء لا انغلاق وافتقار.

وإذا ما أردنا أن نصل بالبحث إلى جوهر الموضوع، نشير إلى أن مناهضي التعريب يزعمون أن العربية تفتقر إلى المصطلح العلمي، وبالتالي فليس من سبيل إلى اتخاذها لغة للعلوم والتكنولوجيا الحديثة.

وإني لحريص على مناقشة هذا الرأي.

إن المصطلح أداة للتأليف والترجمة، وهو ضرورة ماسة للتعريب، بيد أنه ينبغي أن نلاحظ أن النص ولو علمياً، ليس جملة مصطلحات بل هو شرح وتفسير وإيضاح، إضافةً إلى عدد من الألفاظ الفنية. إن الكتابة عن التلفزيون مثلاً: تركيبه، آليته، استخدامه للأغراض التعليمية والتثقيفية شيء ولفظة تلفزيون وحدها شيء آخر، وإن استخدام كلمات أجنبية بلفظها لعدم العثور على مقابلات عربية لها ينبغي ألا يؤخر التعريب، إذ خير لنا أن نستخدم فيما نؤلف ونترجم بعضاً من الألفاظ الأجنبية من أن نكتب ونعلم بلغة أجنبية.

هذا ولسنا نحن العرب نواجه وحدنا مسألة المصطلح ونتعرض للغزو اللغوي، فإنه أكثر لغات العالم تواجه هذه المسألة بسبب كثرة المصطلحات التي تستنبط كل يوم للدلالة على الجديد. إن المخترع أو المكتشف هو الذي يطلق على الجديد اسمه بلغته وتعمل اللغات الأخرى على تدبر أمرها لاقتباس هذا الاسم أو إيجاد مقابل له.

ولقد سلك العرب قديماً ويسلكون اليوم مسلكاً محدداً في إيجاد المقابلات العربية للمصطلحات، ويمكن أن ندعو هذا المسلك منهجية المصطلح.

ففي عصر الازدهار العباسي لم يقرأ العرب العلوم باليونانية أو الفارسية أو الهندية، بل عمدوا

إلى ترجمتها إلى العربية، ووضعوا مصطلحات كثيرة تدل على الأعيان والمعاني، وكانت ألوفاً مؤلفة. والألفاظ الجديدة إما عربية خصصت لمعان محددة كالذبحة والربو والاستسقاء والسرطان والخانوق وذات الجنب، أو عربوها فقالوا: الترياق والقولنج وغير ذلك.

ودخلت هذه الألفاظ كلها لغة العرب ومعجماتها القديمة، وانتقلت عبر الزمن إلينا ومازالت تستعمل فيما وضعت من أجله.

لم يكن في تلك الحقبة مجامع علمية أو لغوية أو لجان فنية، ولكن المترجمين اجتهدوا وصوب واحدهم ما أخطأ به الآخر، وطالما ترجم كتاب أكثر من مرة لتجديد النقل ألفاظاً وعبارات.

ويمكن تلخيص القواعد التي اتبعوها بمايلي:

١ ــ تضمين الكلمة العربية معنى جديداً غير معناها السابق.
٢ ــ اشتقاق ألفاظ جديدة من أصول عربية أو معربة.
٣ ــ ايجاد مقابلات عربية لألفاظ أجنبية بمعانيها.
٤ ــ تعريب كلمات أجنبية واعتمادها.

وهذه الطرائق ما زالت صالحة حتى اليوم.

وفي العصر الحديث قام رواد الثقافة والعلم ومن تصدى للتأليف والترجمة بالعناية بالمصطلح، بداية من القرن الماضي وحتى اليوم، واستحدثوا ألوف المصطلحات الحضارية والعلمية، وأصدروا المعاجم العامة والمتخصصة. ونشأت المجامع العلمية واللغوية وأسهمت الجامعات في خدمة المصطلح العلمي لحاجتها إليه في المؤلفات والمترجمات، وشكلت لهذا الغرض لجاناً متخصصة.

وحرصت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، التي تختص بالجانب الثقافي والتربوي والعلمي من نشاط جامعة الدول العربية، على أداء دورها في هذا المضمار، فتبنّت عمل مكتب تنسيق التعريب بالرباط الذي صار جهازاً من أجهزتها، وعهدت إليه بأعمال جمع حصائل ما تصل إليه جهود المجامع والجامعات واللجان والأفراد، وتنسيقها وإدراجها في مشروعات معاجم تعرض على مؤتمرات التعريب للموافقة عليها.

وحسبي أن أذكر بعض الأرقام القليلة لأبين الجهد الكبير الذي بذل ويبذل في خدمة اللغة العربية باغنائها بالمصطلح العلمي العربي:

• بلغ عدد المعاجم التي أعدها مكتب الرباط ووافقت عليها مؤتمرات التعريب الثاني والثالث والرابع (٣٤) معجماً، وقد أعد المكتب (٢٠) معجماً آخر لعرضها على المؤتمرين الخامس والسادس القادمين.

• بلغ عدد الأعمال المعجمية الجادة في حقل الطب وحده، والتي صدرت بين عامي ١٨٨٣ و ١٩٨٣ ثلاثة وخمسين معجماً طبياً، بعضها طبي عام وبعضها في أحد فروع الطب.

• وبلغ عدد الكتب الطبية التي ترجمت من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية خلال عشر سنوات فقط ١٩٧٠ ـــ ١٩٨٠ (٦٦) كتاباً الخ.

وقد اتبع كل من تصدى لموضوع المصطلح وإيجاد المقابل العربي، في العصر الحديث، من هيئات وأفراد، قواعد محددة موصولة النسب بالقواعد التي اتبعت في عصر الازدهار العربي أيام الحكم العباسي. وقد انتهى النظر في أمر هذه القواعد التي وضعتها المجامع اللغوية ورسخها الاستعمال إلى وضع منهجية في الندوة التي عقدها مكتب تنسيق التعريب بالرباط عام ١٩٨١ وصاغتها في ثماني عشرة مادة... وإني لأود أن ألفت النظر إلى مضمون المادة الرابعة التي تدعو إلى استقراء وإحياء التراث العربي، وخاصة ما استعمل منه أو ما استقر منه من مصطلحات علمية صالحة للاستعمال الحديث وما ورد فيه من ألفاظ معربة.

صحيح أن رواد التأليف والترجمة وأعضاء المجامع العلمية واللغوية العربية قد تفطنوا إلى هذا الأمر واستفادوا منه، ولكنني أعتقد أنه مازال في المعجمات العربية القديمة والمؤلفات العلمية، المخطوطة والمطبوعة، المحققة والتي لم تحقق بعد، كنوز من المفردات التي ينبغي نبشها والاستفادة منها لجعلها مقابلات لمصطلحات علمية جديدة، ولذا فإننا ندعو إلى إجراء مسح لعلومنا القديمة من طب وصيدلة وهندسة ورياضيات وفلك وزراعة وموسيقى وفلسفة وسواها، بقصد استحياء المصطلحات المبثوثة فيها للإفادة منها. ولا بد لإنجاز هذا العمل المهم من تفرغ فريق من العلماء العرب له يعتمد في تحرياته على التقنيات الحديثة، ويأخذ بأنجع الأساليب.

إن الأوروبيين قد رجعوا في وضع مفرداتهم العلمية إلى الأصول اللاتينية واليونانية، وعندما لم يجدوا طلبتهم سمّوا بعض المكتشفات بأسماء مكتشفيها.

ولقد وقع تقصير واضح من المؤلفين العرب في بعض الأحيان، إذ عمدوا إلى التعريب بدلاً

عن الاستفادة من الأصول، فقالوا: الجغرافيا وكان في مقدورهم أن يقولوا: تقويم البلدان، وقالوا: علم الاجتماع، وكان في مقدورهم أن يستعملوا: علم العمران، وكلا اللفظين: تقويم البلدان وعلم العمران راسخ في تراثهم الفكري.

وكذلك ألفت النظر إلى ما تضمنته المادة السابعة عشرة التي أجازت التعريب عند الحاجة، وخاصة المصطلحات ذات الصبغة العالمية مثل الالكترون والترانزيستور والكالوري والترام الخ... وكذلك يصح التعريب في الألفاظ المركبة من أحرف أو مختصرات متعارف عليها دولياً (اليونسكو، الفاو، اليونيدو)، أو الأسماء الموضوعة تخليداً لذكرى عالم أو مخترع مثل: فولت وروننتجن وكوري وأمبير، أو الأسماء الكيميائية للعناصر الحديثة الاكتشاف مثل: بلوتونيوم ويورانيوم وألومينيوم وهافنيوم. فهذه كلها تعرب بألفاظها، علماً بأن بعض علمائنا المتشددين حاولوا أن يجدوا لها مقابلات عربية، فكانت أصعب على الفهم والذاكرة من الكلمات الأجنبية المعربة، ففشلت محاولتهم ولم يؤخذ بالألفاظ التي اقترحوا استخدامها.

وفي حقيقة الحال لا يكفي وضع القاعدة ضمن المنهج العام، بل المهم حسن استخدام هذه القواعد وتطبيقها. فإذا تعذر إيجاد مقابلات عربية للألفاظ السابق ذكرها لأن في ذلك افتعالاً وإقحاماً، فإنه أمكن واستسيغ وضع مقابلات عربية لألفاظ أخرى بالرجوع إلى أصولها ومعانيها، وهي، في الأساس، صفات مثل: مستقيمة الأجنحة لكلمة أورتوتيرا وكلمة: رملية لـ أريناريا، وشوكيات الجلد لـ إيكابنو درماتا، في نطاق المصطلحات المتعلقة بعلمي النبات والحيوان.

وأما الاقتباس من كلام الناس وأهل الصناعة، فأمر ممكن ولكن بحذر وانتباه. فمن المقبول أن تستعمل الألفاظ التالية: ورشة **Workshop** وفرشاة **Brush** وقلاووظ **Screw** وحنفية **Tap**، ولكن هذا الاقتباس لا يكون موفقاً دوماً، فعندما استخدم الغربيون كلمات عادية لمعان اختصاصية مثل ثقافة **Culture** وحضارة **Civilisation** حصلت بلبلة، وامتدت البلبلة إلى العربية.

وإذا كان لإيجاد المصطلح قواعد قننت في منهجية بعد أن أجمع عليها أهل اللغة والاختصاص، فإن لوضع المصطلح طرائق متفقاً عليها أهمها: الاشتقاق، وهي الطريقة المفضلة في توليد الكَلِم ويكون بأن تُنـزَع كلمة من كلمة أخرى على أن يكون بينهما تناسب في اللفظ والمعنى. وبهذه الطريقة وضعت ألوف من الألفاظ قديماً وحديثاً كالمِبْذَر من البذر والمُتْحَف من الإتحاف والمِقْوَد من قاد، وفارزة من فرز... إنه سبيل العربية إلى التوالد الحي والتكاثر

الخلاق، ومنها المجاز أي استخدام اللفظ في غير ما وضع له أصلاً مع قرينة تمنع إرادة المعنى الأصلي. فالطيارة تدل في الأصل على الفرس الشديد والسيارة تدل على القافلة، ثم أطلقتا حديثاً على الآلتين المستحدثتين اللتين تجوبان اليوم الأرض والفضاء.

وثالثهما النحت وهو انتزاع كلمة من كلمتين أو أكثر على أن يكون تناسب في اللفظ والمعنى بين المنحوت والمنحوت منه، وقد قيل قديماً: البسملة والحوقلة وعبشمي وعبقسي، وقيل حديثاً: برمائي ولاسلكي وكهرحراري وكهرطيسي.

ورابعتهما التعريب وهو أن تلفظ الكلمة الأجنبية على طريقة العرب: فقيل قديماً: السوسن والدرهم والبلور والفلسفة. وقيل حديثاً: الترام والسينما والفلم والالكترون.

إن اقتباس اللغات بعضها عن بعض أمر معروف ومشروع، وفي لغات الغرب مئات من المفردات من أصل عربي.

إن الحديث عن المصطلح عامة والمصطلح العلمي والتكنولوجي خاصة، حديث يطول لتشعب دروبه وسعة آفاقه. وتقضي الأمانة بأن نؤكد أن حالنا اليوم أفضل بكثير مما كانت في القرن الماضي أو في النصف الأول من هذا القرن، إذ صار لدينا معاجم عامة، وإن لم تكن كافية، ومعاجم متخصصة في كثير من الفروع العلمية، وقد تعددت الجهات التي تعنى بالمصطلح من مجامع وجامعات ولجان، وتكاثفت التجارب واتصلت في هذا الميدان.

ولكننا، والحق يقال، مازلنا نفتقر إلى الكثير، وأخص الأمور التالية:

١ ــ أن نستكمل المعاجم العامة الثنائية اللغة بعد دراسة متأنية للحاجات، ونستكمل المعاجم المتخصصة الثنائية والثلاثية اللغات لتشمل جميع العلوم والتكنولوجيا التقليدية والمستحدثة، وسد الحاجة إلى المصطلح في كل مستويات التعليم العام والجامعي.

٢ ــ أن ندرس المصطلحات المختلف بشأنها بين جامعة وجامعة، أو قطر وقطر، بغية توحيد المصطلح في الاستعمال، إذ ما تزال مصطلحات كثيرة لم يُجمِع رجال العلم عليها ومازالوا مختلفين بشأنها.

٣ ــ أن نبحث عن طريقة ناجعة لتحويل مبدأ الالتزام بما تقره مؤتمرات التعريب العربية من مصطلحات، إلى إلزام تمارسه جهة ما لأن الالتزام لم يحقق ما نرجوه من توحيد للمصطلح.

٤ ــ أن ننشط للتوسع في مشروعاتنا المتصلة بالتعريب والمصطلح لتشكيل خطة لغوية تدخل في نطاق التخطيط الشامل للثقافة العربية، وتعنى بشكل خاص بما يلي:

١ ــ تعريب التعليم في شتى الفروع العلمية وجميع مستويات التعليم في الوطن العربي.
٢ ــ تعريب المجتمع العربي: الإدارات والمصارف والتجارة والاتصال.
٣ ــ تعريب وسائل الإعلام والاتصال باعتماد الفصحى وهجر اللهجات المحلية.
٤ ــ تيسير تعليم اللغة العربية وتحسين طرائق تدريسها.
٥ ــ تعليم اللغة العربية للعرب المقيمين في خارج الوطن العربي.
٦ ــ تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها ونشر الثقافة العربية في العالم.
٧ ــ وضع الدراسات والبحوث اللغوية التي تساعد على مواءمة العربية للعصر الحديث ومتطلباته.
٨ ــ السير بالترجمة وفق الأسس والقواعد التي تضمنتها الخطة القومية للترجمة التي وضعتها المنظمة.
٩ ــ إقامة المؤسسات التي تعمل على صيانة اللغة ونشرها ودعم التعريب وإشاعته في نطاق المعاصرة التكنولوجية والتقدم الحضاري مثل: المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر ــ بيت الحكمة الجديد، والمعهد العربي للترجمة، والجامعة العربية، والمكتبة القومية المركزية.
١٠ ــ أن ننشط البحث والدرس والتأليف في هذا الميدان بتقديم الجوائز التقديرية والتشجيعية.

ومن المعروف أن هذه الخطط لم تغب عن بال المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، فكلها من اهتماماتها ومشروعاتها، وقد قطعت في بعضها أشواطاً، وتسعى للسير قدماً في بعضها الآخر.

وخلاصة القول: إن التعريب لا يخدم اللغة العربية وحدها بأن يمكّن لها في أرضها وخارج أرضها حاملة في ثناياها ثقافة أصيلة إنسانية إلى العالم، بل يخدم كذلك المعاصرة التكنولوجية إذ لا اكتساب صحيح للمعرفة إلا باللغة الأم، وبالتالي لا إبداع في مجال العلم والتكنولوجيا ولا مشاركة في حضارة العالم المعاصر إلا من خلال اللغة القومية.

إن الإبداع ليس تقليداً، والمشاركة ليست محاكاة ــ بل كلاهما جهد إيجابي فاعل، وتحرك

سويّ مؤثر، عمادهما العقل واللسان، عقل العربي ولسانه، العقل المتفتح واللسان الطليـق، موصولين بالماضي متطلعين إلى المستقبل الزاهر الذي ننشد.

تدريس العلوم باللغة العربية في الوطن العربي

دراسة قدمت في حفل أقامته الجمعية العربية الأمريكية الطبية بولاية أوهايو في الولايات المتحدة الأمريكية مدينة كليفلند: ١١/١/١٩٨٤

أيها السادة

إنه ليسعدني أن ألتقي بكم في هذه الأمسية الجميلة ، بَلْـهَ أن أقف بينكم محدثاً ، وأنتم نخبة طيبة من أبناء الوطن العربي ، قدمتم هذه الديار يحدوكم طموح إلى الأعلى ، ويحفزكم شوق إلى الأفضل ، فكنتم القدوة في الجِد والكفاح ، والمَثَل في التفوق والنجاح ، واستمسكتم بلغة الآباء والأجداد في لقاءاتكم ومنتدياتكم ، واحتفظتم بالشيم العربية والقيم المثلى في شتى مسالك الحياة .

وإني لأسوق إليكم التهنئة خالصة والتمنيات صادقة بعام جديد نرجو أن يكون عام يمن وخير ، وتقدم وفلاح لبني الإنسان جميعاً في مشارق الأرض ومغاربها .

وإنها لبادرة كريمة وإنجاز طيب إقامتكم الجمعية العربية الأمريكية الطبية في أوهايو ، لتنضم إلى مثيلاتها في الولايات الأخرى ، فتشكل معها هيئة منظمة مهنية وعلمية ذات نفع كبير وأثر محمود .

ولعل الاهتمام الذي أبديتموه بتعليم أبنائكم اللغة العربية ، ومباشرتكم تنفيذ هذه الخطة ، بل واجتماعنا اليوم هو ثمرة من ثمرات عمل هذه الجمعية التي نرجو لها المضي قدماً في مشروعاتها المفيدة .

أيها السادة

عندما طلب مني حديث لهذا الاجتماع عرضتُ أحد الموضوعات التالية : اللغة العربية ، أو

الثقافة العربية ، أو تدريس العلوم بالعربية في الوطن العربي ، وهو الموضوع الذي تم الاتفاق عليه . غير أنه جدير بالتنويه أن هذه الموضوعات الثلاثة شديدة الارتباط والاتصال فيما بينها : فاللغة العربية هي المقوم الأساسي لهويتنا القومية ، والثقافة العربية التي هي ثمرة الفكر العربي على تعاقب الأجيال إنما وعاؤها اللغة العربية . وأما تدريس العلوم بالعربية فالقصد منه أن تستوعب العربيةُ المعارفَ الجديدة ، وتغدو لغة العلم والتعليم في هذا العصر ، وهذا لا يتعدى حدود الممكن والواجب .

العرب أمة واحدة

وعندما نتحدث عن الوطن العربي ، ينبغي أن نميز بين الثوابت والمتغيرات ، ولئن كانت المتغيرات ، وهي المذاهب الاقتصادية والاتجاهات الاجتماعية والنظم السياسية تفرق حيناً بين قطر عربي وآخر ، مثلما هي الحال أحياناً بين جماعات وطنية ضمن دولة واحدة ، فإن الثوابت تظل الرابطة الجامعة بين العرب جميعاً ، على اختلاف أقطارهم ، وهي رابطة نسجها التاريخ عبر الزمن ، وستظل العروة الوثقى بينهم في الحاضر والمستقبل ، ونستطيع أن نلخص الثوابت في حياة أمتنا بما يلي :

• إن العرب أمة واحدة ، ولو تعددت دولهم ، تجمعهم مقومات الانتماء القومي ، وفي مقدمة هذه المقومات وحدة اللغة والثقافة والتاريخ ، ووحدة الإرادة والهدف والمصير .

• بنى العرب في الماضي حضارة اتسمت بالشمول والغنى والأصالة ، وأسهموا في إغناء المعرفة الإنسانية عبر العصور وقدموا للبشرية منجزات جليلة الشأن في ميادين الفكر والعلم والأدب والفن ، فكانت حضارتهم حضارة عالمية في امتدادها الزماني والمكاني ونزوعها الإنساني ، وهذا تراث مشترك يبعث فيهم الشعور بالاعتزاز بالماضي ويحفزهم لبناء مستقبل زاهٍ مجيد .

• يتطلع العرب في هذا العصر إلى تحقيق التنمية الشاملة ، والتغلب على التحديات التي تواجههم كالتخلف والجهل والتجزئة ، والانفتاح على الفكر الإنساني والعلم الحديث للمشاركة في بناء الحضارة المعاصرة ، على أساس من العدل والسلام والتعاون بين الشعوب مع إقامة توازن بين الأصالة والحداثة والحفاظ على الهوية القومية والذاتية الثقافية .

تلكم هي الثوابت التي تحفظ للأمة العربية كيانها المعنوي وتدعم مؤسساتها القومية : مؤتمرات القمة ، وجامعة الدول العربية ومؤسساتها وأجهزتها المتخصصة وعلى رأسها « اليونسكو

العربية » : المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، ومؤتمرات الوزراء المسؤولين عن القطاعات المختلفة ، وغير ذلك كثير لا يحاط به في هذه العجالة .

نشأة العربية ونموها

ولنقف وقفة قصيرة عند اللغة العربية قبل أن نخوض الموضوع الأساسي ، إنها إحدى اللغات التي يطلق عليها اسم اللغات السامية . ولكن هذه التسمية اصطلاح ، إذ لا نعرف لغة أصلية تدعى السامية ، ولكن ثمة لغات متقاربة : الفينيقية والكلدانية والآشورية والآرامية والعبرانية والعربية ، ولا بد أنها تفرعت عن لغة أصل كانت لغة الساميين قبل التاريخ . بيد أن العربية هي أرقى هذه اللغات وأغناها مفردات وأوسعها اشتقاقاً وأفضلها تعبيراً .

وقد كان للعرب في الجاهلية لهجات مختلفة في ديار القحطانيين كالسبئية والحميرية والمعينية في جنوب الجزيرة العربية ، والثمودية والصفوية والنبطية في شمالها . بَيْدَ أن هذه اللهجات اندثرت ، وبقيت لنا لغة العرب العدنانيين في الحجاز وإن لم تَخْلُ لهجاتهم من تباينات بين قبيلة وقبيلة .

وجاء القرآن الكريم بلغة قبيلة قريش المضرية العدنانية التي كانت قد بدأت تسود أرجاء الجزيرة العربية ، فكرس سيادتها وأثراها بلاغةً وبياناً وأغناها عقيدة وتشريعاً وحكمة ، وأفسح لها سبيل الانتشار في أعقاب الفتوح فغدت لغة الإدارة والثقافة ، والعلم والأدب ، بل لغة الحياة بمختلف وجوهها في أرجاء الإمبراطورية العربية الإسلامية ، التي امتدت من تخوم الصين إلى شواطىء الأطلنطي .

وإن الحديث عن العربية : نشأة وخصائص ونمواً ، لحديث طويل وشائق في آن . بَيْدَ أن من تفحص مزاياها في مفرداتها وتراكيبها وشعرها ونثرها ، وحكمها وأمثالها ، أخذه العجب العجاب من فصاحة الكلم وعذوبة اللفظ وجزالة التركيب ورقة العبارة وجلال المعنى . وإذا كانت عبقرية فينيقيا قد تجلت في الملاحة والتجارة وركوب البحر بحكم الموقع ، وعبقرية مصر الفرعونية قد تبدت في بناء الأهرام ونحت التماثيل وتحنيط الأجسام ، بحكم البيئة ، فإن العرب الأولين ، وأكثرهم ، أهل الوبر ، يسكنون الخيام ويرحلون ، إلْفُهم سماءٌ صافية وصحراء فسيحة وبوادٍ مديدة ، وأقلهم ، أهل المدر ، يسكنون القرى والمدن في الإمارات والدويلات التي قامت على أطراف الجزيرة العربية ، قد

فاضت عبقريتهم كلاماً عذباً ، يناجون به الأحبة ، ويصفون الخيل والليل ، ويمجدون الشهامة والإباء ويمتدحون الشجاعة والنجدة والكرم ، إلى جانب حكايات منقولة وأمثال مأثورة .

وحسبي في هذا المقام أن أشير إلى خاصيتين من خواص العربية :

أولاهما : اتصالها الوثيق بالطبيعة ، ذلك أنه ظهر لأهل اللغة أن المفردات قد تكونت من أصول ثنائية البناء أي مركبة من حرفين ، تحاكي أصوات الطبيعة كأصوات الريح والمياه والمطر والرعد وأصوات الحيوانات وأصوات الإنسان البدائي مثل : هبوب الريح وخرير الماء ومواء الهر وصهيل الجواد ، فإنّ فاء الفعل وعينه في أفعالها : هَـبَّ وخَـرَّ ومَـاءَ وصَـهَـلَ يحاكيان الصوت الطبيعي .

ومثال آخر لفظ قَـطْ الذي يدل حرفاه على صوت القطع ، فإنه قد ولّد جملة ألفاظ تدل على هذ الصوت مع تنوع ، فقيل : قـطّ وقطع وقطل وقطم وقطف ، وذلك بزيادة حرف عليه ، ولفظ نَـبَّ الذي يدل حرفاه على خروج الصوت وارتفاعه ، فإنه قد ولد جملة ألفاظ تدل على ذلك بزيادة حرف عليه فقيل : نـبّ ونبس ونبض ونبر ونبح ...

وثانيتهما : اتصالها المحكم بالمجتمع ، ذلك أن العرب عاشوا أسراً محكمة الأواصر ، تجتمع في أفخاذ وبطون وعشائر وقبائل تغوص عمقاً في النسب الصريح ، وتنداح اتساعاً بالتزاوج والتوالد ، وهي في كل حال متماسكة يشد بعضها بعضاً ، مفاخرة بالآباء والأجداد ، معتدة بالأبناء والأحفاد : قحطان وعدنان ومنها قيس وكندة وبكر وتغلب وعبس وتميم وهذيل .. وعلى صورة هذا المجتمع ومثاله كان كلامهم وجرى لسانهم : الألفاظ تتوالد وبينها آصرة القربى ، فالأصل هو المصدر مثل : عِـلْـم ومنه الماضي المجرد : عَـلِـم ، ومنه اسم الفاعل : عالم واسم المفعول : معلوم والصفة المشبهة : عليم ووزن المبالغة : علّامة واسم التفضيل : أعلم . ومن فعل جمع يؤخذ اسما الزمان والمكان : مَجْـمَـع ومن فعل فتح يؤخذ اسم الآلة : مِـفْـتَـاح .. وجميع هذه المشتقات متفقة في حروفها الأصلية وترتيبها ومعناها الأصلي .

ومن الثلاثي المجرد تؤخذ مزيدات الثلاثي ، ومن الرباعي المجرد تؤخذ مزيدات الرباعي ، ولكل فعل مزيد مصدره ومشتقاته : فمن كـرّم مكـرِّم ومن اجتمع مجتـمَـع ومن استشفى مستشفى ... وهلم جرا . والفعل المجرد ومشتقاته ومزيداته ومشتقاتها ومصادرها تلتقي جميعاً لتشكل جماعة ، هي بمثابة القبيلة التي تعبر عن الجماعة الإنسانية في مرحلة من مراحل تكون الأمة .

إنها لغة تقوم على التكاثر الحي والتوالد الخلاق ، لا على الإلحاق والتبني . ونمت اللغة العربية خلال الزمن ، وبحكم الحاجات المستجدة والاتصال بالثقافات الأخرى . جرى ذلك في الجاهلية على نطاق ضيق باقتباس العربية بعض الألفاظ من الأمم المجاورة ، وجرى على نطاق واسع في عصر الأمويين والعباسيين عندما ترجم العرب فلسفة الأقدمين وعلومهم إلى لغتهم . وما تزال ذكرى بيت الحكمة في بغداد تحيي الآمال وتنعش النفوس اعتزازاً بالماضي وثقة بالمستقبل . وقد استطاعت العربية عندما واجهت الثقافات والعلوم القديمة كالهندية والفارسية ولا سيما اليونانية ، بما تضم تلك الثقافات والعلوم من أسماء للأعيان والمعاني ، أن تستوعبها وتوجد لمصطلحاتها مقابلات بفضل ما أوتيت من غنى ومرونة وقدرة على التوليد ، فكان نماؤها ذاتياً داخلياً أكثر منه دخيلاً خارجياً .

وبعد أن جاز العرب مرحلة النقل والاقتباس ، انتقلوا إلى مرحلة الوضع والإضافة والتأليف والكشف والإبداع في كل ميدان من ميادين المعرفة الإنسانية ، واحتلوا مركز الريادة قروناً عديدة . وقد شهد لهم بالفضل كبار مفكري الغرب ، فقد قال سارتون كبير مؤرخي العلم والثقافة «إنه لعمل عظيم أن ينقل إلينا العرب علوم اليونان وفلسفتهم وأن يزيدوا عليها حتى أوصلوها إلى درجة مرموقة من النمو والارتقاء» ، وقال أوسلر : «لئن أشعل العرب سراجهم من القناديل اليونانية ، فإنهم ما لبثوا أن أصبحوا جميعاً شعلة وهاجة استضاء بنورها أهل الأرض» .

ومن العرب استقت أوروبا المعرفة بشتى فروعها وأصنافها . ومن أقنية عديدة تسربت الثقافة العربية إلى الغرب ، لتشكل الأساس في النهضة الفكرية والعلمية والأدبية والفنية التي حققها الغرب في القرون الثلاثة الأخيرة .

ولكن هبت على البلدان العربية رياح عاتية من الغزوات والحروب وأخضعت لتسلط أجنبي عاتٍ ، فضمرت قدرتها على العطاء وتضاءلت ثقافتها وتجمدت ، وشاع الجهل بين أبنائها ، ذلك كله في وقت انطلقت فيه البلدان الأوروبية في مسالك التقدم ودروب النهضة ، ولا سيما في القرن الحالي الذي يطلق عليه بحق اسم عصر العلم والتقنية ، أو عصر التفجر العلمي الهائل والتكنولوجيا المتطورة .

وفي مطلع القرن التاسع عشر ، استيقظت أمتنا العربية ، فواجهت مثلما واجهت في بداية نهضتها الحضارية ، علوماً وآداباً وفنوناً قد أحرزت في الغرب تطوراً كبيراً ، فهبّت تسعى وما تزال للحاق بالركب واستدراك ما فات بإرسال البعثات للتعلم والتخصص في البلدان المتقدمة ، وبفتح

المدارس والمعاهد ونشر التعليم بشتى مراحله الابتدائية والمتوسطة والثانوية ، والعمل الدؤوب على محو الأمية وتثقيف الشعب ، ثم نشطت للترجمة والتأليف ، وأنشأت الجامعات والمعاهد العليا ، وشجعت قيام المطابع وصدور الصحف والمجلات . كل ذلك في خضمّ الكفاح المرير من أجل الدفاع عن الذات والأرض والهوية ، ورد الاستلاب والتغريب ، وإحراز الاستقلال والحرية ، وتحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، ومدافعة التحديات الداخلية والخارجية ، في عالم مضطرب قاسٍ لا مكان فيه للحق بغير القوة ولا سلامة لوطن لا يفتديه أبناؤه بكل غالٍ ونفيس .

ولذا كان من أهم مشكلاتنا في هذا العصر ، الحضارية والثقافية ، أن نقبس المعارف والعلوم ، بل أن نوطن العلم في الأرض العربية لنصون وجودنا ونستعيد دورنا البناء ، وأن نعرِّب هذه المعارف والعلوم لنصون استقلالنا الثقافي واللغوي ونخلص من التبعية والاستلاب ، ونجسّد كياناً عصرياً يجمع بين الأصالة والحداثة ويربط بين التراث والجِدة ، ويصل الماضي بالحاضر والمستقبل .

مشكلة تعريب التعليم العالي

وهكذا نجد أنفسنا إزاء مشكلة تحتاج إلى نظر ، بل تحتاج إلى عمل ، وهي أن نجعل التعليم ولا سيما العالي منه باللغة العربية في أرجاء الوطن العربي .

إن الحديث عن هذا التعريب ينطلق من واقع هو أن التعليم العالي مازال غير معرب ، أي أنه يؤدي في قسم كبير منه بغير اللغة العربية ، وعلى وجه التحديد ، بالإنكليزية والفرنسية .

وإنه لينبغي لنا أن نشير إلى أننا عندما نتكلم عن تعريب التعليم العالي ، فإنما ينطوي كلامنا بالضرورة على تعريب التعليم ما قبل الجامعي . إن هذا التعليم ، سواءٌ في سلم الأولويات أو في سلم التسلسل المرحلي ، يأتي قبل التعليم العالي ، بل لا يمكن أن نتصور بلداً يكون التدريس في جامعاته باللغة القومية والتدريس في مراحل التعليم السابقة بلغة أجنبية .

وإذا كنا نخص في حديثنا عن التعليم العالي تدريس العلوم في الجامعات بالنصيب الأوفى ، فإن مرد ذلك إلى أن الخلاف يدور غالباً حول اللغة التي ينبغي أن تدرس بها العلوم الأساسية والتطبيقية ، أكثر مما يدور حول اللغة التي يحسن أن تدرس بها العلوم الاجتماعية والإنسانية ، فكأن المسألة المطروحة للنقاش والتي تختلف فيها الآراء وتتباين وجهات النظر هي التالية :

هل تصلح اللغة العربية أن تكون لغة العلم في هذا العصر أم لا ؟

دواعي تعريب التعليم

إن لتعريب التعليم ولا سيما العالي منه دواعي قومية ونفسية وتربوية وحضارية نجملها بما يلي :

• إن اللغة ليست أداة للقول ووسيلة للتعبير فحسب ، بل هي وسيلة التفكير وتجسيده . إنها الفكر نفسه في حالة العمل ، وليس من تفكير حي دقيق دون لغة حية دقيقة . إن تعريب العلم والتعليم هو تعريب للفكر والتفكير .

• إن الوعي القومي متصل بالوعي الثقافي ، وليس من ثقافة أصيلة دون لغة تستوعبها وتعبر عنها . إن كل شعور بوحدة الأمة العربية مرتبط أصلاً برباط اللغة التي هي الجامع الأساسي بين أفراد الأمة . إن حدود الوطن العربي من الخليج إلى المحيط هي حدود انتشار اللغة العربية .

• إن الإبداع والابتكار لا يتولدان إلا بعد تمثل صحيح للمعطيات . ومن الأسهل ، أن يتم هذا التمثل من اللغة التي يتعلمها الإنسان منذ نعومة أظفاره فتخالط تفكيره وتندرج بيسر على لسانه فيأتلف معها أخذاً وعطاء .

يضاف إلى هذه الدواعي العامة أسباب خاصة بالتعليم العالي الذي يقدم في رحاب الجامعات والمعاهد العليا والمتوسطة ، في وقت انتشرت فيه هذه المؤسسات في طول الوطن العربي وعرضه ، وصارت مصنع الفئات القائدة في المجتمع العربي ، والممسكة بزمام السياسة والإدارة والتوجيه ، والقيّمة على تنمية موارد البلاد وتطويرها اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً ، ومن هذه الأسباب :

١ ــ إن هذه المؤسسات مدعوة إلى تحقيق التوازن الطبيعي بين الفكر واللسان ، بين المعرفة واللغة ، ليكون ما يكسبه الدارس تمثلاً فإبداعاً لا استعارة فترديداً .. إن العربي ينبغي أن يعي ذاته ، ووعي اللغة ، بمعنى من معانيه ، وعي للذات .

٢ ــ إن هذه المؤسسات وجدت لخدمة المجتمع العربي ، وليست بقادرة على ذلك ما لم تكن قريبة من المجتمع . إن اللغة العربية هي الجسر الواصل بين المتعلمين والمختصين وبين أفراد الجماعة الآخرين .

٣ ــ لقد اتسع العلم في هذا العصر اتساعاً كبيراً وظهرت التخصصات الدقيقة فيه . ومن

الواجب أن نجعل الدارس ينصرف بكل ملكاته إلى دراسة المادة العلمية باللغة الأم، وألا نحمله عبء تعلمها بلغة أجنبية فنجمع عليه صعوبتين في آن واحد.

٤ ــ يحتاج الوطن العربي في أعمال التنمية إلى ثلاث فئات يساند بعضهم بعضاً: فئة العلميين المتخصصين، وفئة العلميين المتوسطين، وفئة العمال الفنيين. والجامع اللغوي بين هذه الفئات إنما هي اللغة العربية، فإذا ما تعددت لغاتهم اضطرب التعاون فيما بينهم.

٥ ــ إن اعتماد لغة أجنبية ما في التدريس الجامعي يستوجب إعداد المدرسين في بلد واحد هو صاحب تلك اللغة، والاعتماد على المراجع العلمية المكتوبة بها. وإنه لمن الأجدى أن نعدد بلدان الدراسة للموفدين للتخصص، وأن نعدد المراجع العلمية، وذلك كي نحصل على خير ما في البلدان المتقدمة من علوم ومؤلفات وخبرات. وفي هذه الحال لا يكون التدريس الجامعي إلا باللغة العربية، التي تجمع ما بين المدرسين العرب جميعاً مهما تعددت اللغات الأجنبية التي تلقوا بها اختصاصاتهم.

٦ ــ إن التعليم في عالم اليوم صار للمواطن بمنزلة الخبز يقبل عليه أبناء الفئات الاجتماعية المختلفة، لا أبناء الفئات المتمتعة بالجاه أو المال فحسب. ومن هنا نشأت فكرة «ديمقراطية التعليم» أي إتاحة الفرصة لجميع طالبي العلم والراغبين فيه مهما تباينت أوضاعهم الاجتماعية والمادية. وهذا المبدأ ينفي احتكار العلم من قبل فئة متميزة في مقدورها أن تنفق على الدراسة في المدارس الأجنبية أو الخاصة، وصار لزاماً أن يؤمن التعليم في جميع المراحل وفي كل الاختصاصات لكل قادر عليه باللغة العربية من قبل الدولة.

إننا لسنا أول قوم فكروا بجعل لغتهم لغة العلم والتعليم في بلادهم، بل فكر بذلك أقوام وشعوب هي أقل منا عدداً وأصغر رقعة أرض، وليس لهم مشاركة مثل مشاركتنا في صنع الحضارة الإنسانية في العصور السالفة. أليس من العجب أن يكون تدريس العلوم في بلدان مثل فنلندا وبلغاريا واليونان ورومانيا بلغاتها الخاصة، بل أن تبعث إسرائيل اللغة العبرية من سباتها العميق لتدرس بها العلوم المستجدة الدقيقة، ونظل نحن في الوطن العربي الكبير برقعته وعدد أبنائه وبثقافته الغنية قديمها وحديثها قانعين بالتدريس بلغات أجنبية؟ ألا ينطوي هذا الموقف على اتهام للغتنا المجيدة بالقصور والعجز من قبلنا نحن أنفسنا، في وقت تعترف الأمم المتحدة والمنظمة العالمية للتربية والعلم

والثقافة أن اللغة العربية لغة عالمية حية ، وتعتمدها لديها ولدى المنظمات الدولية المرتبطة بها لغة رسمية إلى جانب الإنكليزية والفرنسية والاسبانية والروسية والصينية؟!

٧ ـــ إن التدريس بلغة أجنبية يضعف العربية ذاتها ، لأن اللغة كائن حي يولد وينمو مع الزمن ويتأثر بالبيئة الطبيعية والاجتماعية ، فإذا ما جعل في عزلة ، وأُبعد عن مجاري الحياة ومساقات التطور ، ضمر أو جمد مكانه . وعندها يلتفت إلى اللغة أبناؤها يعيبون عليها العجز والقصور ، في حين أنها لا عاجزة ولا قاصرة وإنما هم الذين ضنوا عليها بالجهد ، وحجبوا عنها عوامل النماء والتطور .

إن الكاتب في موضوع التعريب لا تعوزه الحجج والبراهين ، ولكنه يحس أنه يناقش في موضوع هو من البداهة بمكان ولا يحتاج لأي حجة أو برهان .

التعلم بغير العربية واستمراره

قد يتساءل أحدنا : كيف بدأ التدريس الجامعي بغير العربية ، خلافاً لما ينبغي أن يكون وكيف استمر بعد ذلك؟

للإجابة نذكر أن محمد علي إذ تولى الحكم في مصر في مطلع القرن المنصرم ، أراد الأخذ بأسباب المدنية الغربية فاهتم بنشر العلم ، فافتتح المدارس المتنوعة ، وأرسل البعوث ، وأصدر الصحف ، وشجع الترجمة وغير ذلك كثير . وكان مما أحدثه مدرسة للطب في أبي زعبل عام ١٨٢٦ ثم نقلت إلى القاهرة عام ١٨٣٧ وكان التدريس فيها بالعربية . وهب النابهون من الأساتذة يؤلفون بالعربية ويترجمون إليها ، فألف محمد علي البقلي في الجراحة ، ومحمد الشافعي في الأمراض الباطنية ، وعلي رياض في الصيدلة ، ومحمد ندى في الكيمياء والنبات والحيوان ... ولكن بعد الاحتلال البريطاني بخمس سنوات أي في عام ١٨٨٧ ، حول التدريس من العربية إلى الإنكليزية بعد أن لبث يؤدى بالعربية أكثر من ستين عاماً .

لقد أريد للاحتلال ألا يكون عسكرياً واقتصادياً فحسب ، بل أرادوه احتلالاً ثقافياً ولغوياً كيما يكون أصلب وأرسخ ، وأرادوا أن يسددوا السهم إلى قلب الأمة : لغتها الجامعة بين أبنائها .

أما في دمشق فقد حصلت مصادفة طيبة ، إذ أسست كلية الطب فيها في العهد الفيصلي عام ١٩١٩ ، فاتخذت العربية لغة للتدريس ، وانبرى رواد أفاضل يؤلفون ويترجمون ، أمثال الدكاترة

الأطباء مرشد خاطر وأحمد حمدي الخياط وميشيل الخوري وحسني سبح وصلاح الدين الكواكبي ومحمد جميل الخاني وغيرهم ، فأرسوا الأساس وذادوا عنه وتابعهم في ذلك أساتذة كرام حتى اليوم .

وكما انهارت العربية في قصر العيني ، انهارت في الكليات الأخرى في مصر ، وكما ثبتت العربية في كلية الطب بدمشق انتقلت إلى كليات الهندسة والعلوم الأساسية وسواها في سورية .

إن التدريس الجامعي بالعربية شاهد على الاستقلال السياسي والكرامة القومية . أما لماذا استمر التدريس بغير العربية حتى اليوم ، فأمر مرده إلى قوة الاستمرار والتقليد ، والخوف من التغيير ، وعدم الثقة بقدرة اللغة العربية ، واستسهال المدرس أن يتخذ في تدريسه الكتاب والمرجع اللذين استخدمهما خلال دراسته أو تخصصه في الخارج ، وتراخي المسؤولين في الأقطار العربية عن اتخاذ القرار الحازم ، وعدم توفير مستلزمات التدريس بالعربية من كتب مترجمة ومؤلفة ، والتأخر في وضع المصطلحات العلمية وتوحيدها .

ولذا فإنني أسجل بالتقدير والإعجاب الاتجاهات التي أقرها المؤتمر الثاني لوزراء التعليم العالي والبحث العلمي في الوطن العربي المنعقد في الحمامات بتونس من ٢٠ ــ ٢٣ / ١٠ / ١٩٨٣ وهي :

١ ــ تأكيد مبدأ التعريب في مجال التعليم العالي وضرورة البدء بتنفيذه .
٢ ــ ضرورة الخروج من الحديث النظري إلى اتخاذ القرار في ذلك على المستويين القومي والقطري .
٣ ــ اتخاذ أسلوب التدرج في التعريب وفق خطة مرسومة شريطة أن يلتزم بها وتنفذ في مواعيد محددة .

العناية بتدريس اللغة الأجنبية

إن الحديث عن تعريب التعليم العالي يستدعي بالضرورة توجيه السؤال التالي : هل تعني الدعوة إلى تعريب تدريس العلوم إهمال اللغات الأجنبية ؟

إننا نعتقد أن تعريب التعليم لا يتعارض البتة مع تدريس اللغة الأجنبية ، فإذا كان للتعريب دواعيه فإن لتدريس اللغة الأجنبية ضروراته أيضاً . ليس من أحد يريد التعريب اكتفاء أو انغلاقاً بل يريده الداعون إليه اغتناء وانفتاحاً ، اغتناء بتمكين المتعلم من كسب أكبر قدر من المعرفة وبأيسر

السبل، وانفتاحاً على نتاج المعرفة في البلدان المتقدمة. إن المتخصصين من أبنائنا ينبغي أن يكون في مقدورهم الوقوف على مصادر المعرفة بلغة أجنبية واحدة على الأقل، يتقنونها كل الإتقان ويتابعون التخصص بها في البلد الناطق بها، ويرجعون بها عند الحاجة إلى المراجع العلمية المدونة بها من كتب ومؤلفات وموسوعات ودوريات. ونستطيع أن نرسم لذلك خطة نطبقها في التعليم الاعدادي والثانوي والتعليم العالي تقوم على الأسس التالية:

١ ــ نمكن الطالب من أن يتعلم لغة أجنبية واحدة على الأقل في المدارس الإعدادية والثانوية.

٢ ــ نساعد الطالب في الجامعة على إتقان اللغة التي تعلمها في المرحلة الثانوية ونخصه بدروس بتلك اللغة تتصل باختصاصه.

٣ ــ ندرج في الكتب المؤلفة والمترجمة المصطلحات الأجنبية وبجانبها المقابلات العربية إما في متن النص أو في مسارد تدرج في أواخر الكتب.

ليس ثمة من يقول بهجر اللغة الأجنبية، ولكن الدعوة قائمة وملحة إلى عدم إحلال اللغة الأجنبية محل اللغة العربية لغة للعلم والتعليم.

إن التعريب هو الخيار الوحيد، ومن هذا المنطلق لا نناقش فيه من حيث المبدأ والأساس بل من حيث الوسيلة والتطبيق.

تحويل التدريس إلى العربية

إن المسألة العارضة اليوم ليست إنشاء كلية أو جامعة تدرس باللغة العربية، بل تحويل عشرات من الكليات الجامعية والمعاهد العليا والمتوسطة التي تضم مئات من الأقسام العلمية، من التدريس بإحدى اللغتين الانكليزية أو الفرنسية إلى التدريس باللغة العربية.

إن هذا التحويل ليس بالأمر الهيّـن اليسير، ولذا يحسن أن نواجهه بكثير من الحيطة والأناة، كيلا ينقلب نقصه إلى ضرر ويصاب مئات الألوف من طلابنا الجامعيين، وهم طلائع أجيالنا الصاعدة، بالخيبة والمرارة.

إن الشرط الأساسي في نجاح هذا التحويل، أو بالأحرى لجعله عملاً مقبولاً ومفيداً ومثمراً، هو أن نجعله مدعاة لاكتساب الطلاب المعرفة بمزيد من اليسر، وألا يرافقه انتقاص البتة مما كانوا يُعْطَوْن من معلومات، وألا تُحْجَب عنهم مصادر المعرفة.

إن اللغة العربية من الخصوبة والغنى والقدرة على التعبير والنماء، وفي الوطن العربي من القدرات المادية والبشرية ما يُمَكِّنُ من الإقدام على هذا التحويل دون خوف أو وَجَل.

مستلزمات التدريس بالعربية

إن للتعريب مستلزمات أهمها أمران هما المصطلح والترجمة. إن التعريب يعتمد على استخدام المقابل العربي للمصطلح الأجنبي وعلى الأخص العلمي منه، ولذا فإن كل سعي للتعريب ينبغي أن يرافقه جهد لإيجاد المصطلح بالعربية، وبالمقابل فإن كل جهد يبذل لإيجاد المصطلح وتوحيده بين الأقطار العربية يخدم قضية تعريب التعليم.

وأما الترجمة فهي القناة التي تصلنا بمصادر المعرفة والعلم. والتدريس بالعربية يتطلب أن تنشط الترجمة ليجد المتعلم بغيته منقولة إلى لغته: كتاباً مرجعياً أو منهجياً أو بحثاً، وبالمقابل فإن حركة الترجمة تعبد الطريق لتعريب التعليم شريطة أن تكون هادفة تتم وفق تخطيط محكم.

وإنه من الخير أن يباشر تعريب التعليم ووضع المصطلح والترجمة بل والتأليف أيضاً في آن واحد وبتنسيق مُجْدٍ، حتى تسدّ الثغرات وتبلغ الغايات دون وهن أو إبطاء.

الخاتمة

هذا وإني أود أن أختتم حديثي بالملاحظتين التاليتين:

الملاحظة الأولى: إننا لسنا من العدم نبدأ في عملية تدريس العلوم باللغة العربية وما تقتضيه من وضع المصطلح وتنسيقه وتوحيده وتنشيط الترجمة والتأليف، فثمة جهود كبيرة بذلت في هذا المجال، ونجاحات تمت فيه. ولكن هناك مشكلات بحاجة إلى حل وثغرات يجب أن تسد وبدايات ينبغي أن تتابع، مع حرص شديد على قومية المعرفة ووحدة اللغة العربية الفصحى وسلامتها وذلك بالتخلص من التعليم باللغة الأجنبية ومقاومة الازدواجية اللغوية، مع الاصرار على أن هذا التوجه لا يتعارض مع تعلم الطالب لغة أجنبية حيّة وإتقانه إياها.

الملاحظة الثانية: إن تعريب العلم والتعليم، والعمل على نقل العلم والتكنولوجيا إلى البلاد العربية وتوطينها واستنباتهما في الأرض العربية، إنما يقع ذلك كله في سياق حركة الإنسان العربي للتخلص من الجهل والتخلف اللذين أورثته إياهما عهود الغربة التي نأت به عن حقيقته وموقعه، عهود القهر

والتسلط والاستعمار وسعيه لاستعادة دوره في مسار الحضارة الإنسانية، لاكتساب الجديد وإدراك الحداثة مع حفاظه على الأصالة المتمثلة في تراثه الحضاري الضارب في أعماق التاريخ.

التعريب والمصطلح

دراسة أعدت بمناسبة انعقاد «ندوة التعاون العربي في مجال المصطلحات علماً وتطبيقاً» في تونس من ٧ ــ ١٠ | ٧ | ١٩٨٦

تساءلت وأنا أهم بالكتابة في موضوع « التعريب والمصطلح » عما إذا كنت سآتي بجديد في أمر تداولته الأقلام وخاض لُـجَّـاتِهِ الباحثون، وكان مدار حوار ومناقشات في العديد من الاجتماعات والندوات والمؤتمرات!

قلت: إن موضوع « التعريب والمصطلح » على كثرة ما كتب فيه وقيل بشأنه، مازال، في أكثر البلدان العربية، مشكلة قائمة لم تجد لها حلاً، وهو، على أية حال، قضية مهمة من قضاياها الثقافية والقومية تستحق أن نوليَها المزيد من العناية والاهتمام، ولعل كل إسهام جادٍ في دراسة هذا الموضوع وإنارة بعض جوانبه يساعد على مواجهته وتمهيد السبيل لبلوغ الحل الناجع له.

أولاً ــ معنى التعريب

وعندما نتصدى للحديث عن التعريب، نجد أنفسنا مسوقين إلى تحديد معناه كي لا يكون ثمة لبس أو غموض، ذلك أن التعريب من الألفاظ المشتركة متعددة المعاني. التعريب مصدر عرّب بالتضعيف، وفي المعجمات: عـرّب فلان منطقه من اللحن أي: خلصه، وعرب الاسم الأعجمي: تفوه به على منهاج العرب، وعـرّب عن صاحبه: تكلم عنه واحتج له، وقالوا: أعرب الأعجمي وتعرب واستعرب: إذا فُهِم كلامه بالعربية. والواقع أن لفظ التعريب قد استخدم للدلالة على ثلاثة معانٍ:

١ ـــ المعنى الأول

يقصد به استخدام العرب ألفاظاً أعجمية على طريقتهم في اللفظ والنطق أي أنهم، عند وضع الكلمات المعربة، يحافظون على الأوزان العربية والإيقاع العربي، قدر الإمكان، حتى لا تتنافى هذه الألفاظ مع روح العربية وموسيقاها فلا يستثقلها اللسان العربيّ أو ينوء بها.

إن هذا الضرب من التعريب يسمى الاقتراض. وعن هذه الطريق دخلت اللغة العربية، قديماً في عصر النقل والتأليف، ألوف الألفاظ الأجنبية، من اللغات اليونانية والفارسية والسريانية وغيرها، نتيجة الاتصال بالثقافات التي كانت سائدة آنذاك، فساعد ذلك على بناء ثقافة عربية متطورة والتعبير عن الفكر العربي الخلاق في تلك الحقبة من الزمن.

وفي العصر الحديث، أجازت مجامع اللغة العربية الاقتراض في حال عجز الطرائق الأخرى عن إيجاد المصطلح، وهي الاشتقاق والمجاز والنحت، عن تلبية القصد. وقد اشترط مجمع القاهرة أن تراعى في التعريب الأصوات والصيغ العربية.

وبالفعل فقد أفاد الاقتراض في إغناء اللغة العربية بألفاظ كثيرة ولا سيما أسماء أعيان المواليد من نبات وحيوان وجماد، وأسماء الأدوية والعقاقير والآلات العلمية والمركبات الكيميائية وبعضٍ من أسماء اللباس والطعام والشراب، فقيل: الالكترون، والكالوري، والترام والفيلم والتلفزيون أو التلفزة...

٢ ـــ المعنى الثاني

يقصد بالتعريب نقل النصوص من إحدى اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية، أي أن معنى التعريب ينصرف هنا إلى الترجمة: ترجمة العلوم والآداب والفنون وسائر أصناف المعرفة، مثل الترجمة القانونية والاقتصادية والإدارية والسياسية والإعلامية والتجارية والمصرفية... وسواء أكانت الترجمة كتابية أم شفوية.

فهنا تكون كلمة تعريب مرادفة لكلمة ترجمة التي هي نقل المعنى من لغة إلى لغة، وفي الأصل تفسير الكلام وإيضاحه والإبانة عنه، وتكون كلمة معرِّب مرادفة لكلمة مترجِم، وطالما نقرأ على غلاف كتاب مترجم أنه تعريب فلان أو أن معربه فلان.

وعلى عكس التعريب في هذا السياق كلمة التعجيم التي يراد بها نقل الأثر من اللغة العربية إلى أية لغة أجنبية أي غير لغة العرب.

٣ ــ المعنى الثالث

يقصد به جعل اللغة العربية لغة الإنسان الأساسية والحياتية، أي أن تكون له لغة العلم والعمل، لغة الفكر والشعور والحراك الاجتماعي، يعبر بها عن مكنونات نفسه وومضات فكره وخلجات فؤاده، كما يعبر بها عن رغباته وحاجاته المختلفة.

وتبعاً لذلك، يقال: عربنا المجتمع أي: جعلنا العربية لغته الأساسية والحياتية، وعربنا التعليم: إذا جعلنا أداته، في كل درجاته وتخصصاته، اللغة العربية، وعربنا العلم: إذا وطناه أرضنا ووصلناه بثقافتنا فصار دوحة وارفة في بستاننا لا وروداً صناعية تقبع جامدة في آنية عندنا.

إن هذا المعنى هو ما نقصده في هذا البحث عن التعريب، وحبذا لو استخدمت كلمة الاقتراض للمعنى الأول وكلمة الترجمة للمعنى الثاني، واقتصرت لفظة التعريب على الدلالة على المعنى الثالث، فإن ذلك أسلم استخداماً وأنفى للاشتراك في المعنى وما يسببه من اضطراب.

ثانياً ــ دواعي التعريب

إن من المسلمات التي تتسق مع طبيعة الأمور أن تكون العربية السليمة الفصحى لغة العرب أجمعين، لغة علم وتعليم، وإدارة وعمل، لغة الحياة الاجتماعية بكل حركاتها وسكناتها، على الرغم من وجود صور باهتة عنها في الاستعمال اليومي، وهي اللهجات العامية الدارجة على الألسن في كل قطر عربي بل في كل مدينة وقرية، شأنها في ذلك شأن اللغات الأخرى التي تتوالد منها لهجات عامية دارجة بفعل التطور اللساني والصوتي والتباعد في المكان والزمان.

بيد أن الظروف السياسية التي مرت بالبلدان العربية في العصور السالفة، وبشكل خاص في القرن الماضي، خرقت هذه المسلمة وجعلت بين الأمة العربية ولسانها ثلمة ينبغي رتقها، وبينها وبين ثقافتها فرجة يجب سدها.

لقد حاول المستعمرون الذين اقتحموا البلدان العربية غزاة ومحتلين، أن يغيروا الخريطة اللغوية، ويفرضوا لغاتهم على المناطق التي بسطوا عليها سيطرتهم ويجعلوا منها أدوات التعبير في الحكم

والسياسة والإدارة والتجارة والصحافة والتعليم العلمي والتقني بل في المحاكم والمصارف والشركات، ويردوا اللغة العربية إلى الظل، لغة للعلوم الدينية والأدب العربي، بالإضافة إلى محاولتهم تغليب العامية على الفصحى واستبدال الحرف اللاتيني بالحرف العربي.

إن التعريب هو رد الأمر إلى ما ينبغي أن يكون عليه، تصحيح لمسار. إنه اختيار أوحد تدعو إليه جملة من الدواعي، كل واحد منها كافٍ ليجعله في مقدمة المهمات التي ينبغي أن تنهض بها أمتنا العربية لاستعادة دورها الحضاري الرائد في هذا العصر:

١ ـ إن اللغة العربية ليست شيئاً طارئاً دخيلاً يمكننا قبوله أو التخلي عنه، بل هي منا أفراداً وجماعات، فهي جزء من تكويننا النفسي ونسيجنا الاجتماعي، تحمل في ثناياها آثار طباعنا وميولنا وعلامات منازعنا وطموحاتنا.

إن الإنسان لا يختار لغته بل هي قَدَرُهُ، مَثَلُها مَثَلُ والديه اللذين أنجباه، والأرض التي ولد فيها والقوم الذين إليهم ينتمي. إن اللغة هي جزء من كيان الإنسان ومقوم لهويته، ومَمَيِّزَة له عن غيره ممن ينطقون، منذ الطفولة، بلغات أخرى.

٢ ـ إن اللغة العربية هي مستودع الثقافة العربية ووعاء التراث الحضاري. إنها صلة أفراد الأمة بالأجيال السالفة، وصلتهم بعضهم ببعض في الحاضر، وصلتهم بالأجيال القادمة في مستقبل الأيام.

إنها الرباط القومي الوثيق وأول المقومات التي تجعل هذه الجماعة البشرية تعيش من المحيط إلى الخليج، أمة متميزة بخصائصها ونفسيتها وعاداتها وتقاليدها وطرز سلوكها وحياتها عامة.

٣ ـ إن التعريب هو امتداد لحركة التحرر السياسي والتخلص من النفوذ الأجنبي التي خاضها الشعب العربي في جميع أقطاره، وقدم فيها التضحيات الجسام للظفر بالحرية، وتعبير عن السيادة الوطنية والاستقلال في الرأي والعمل اللذين حازهما الشعب بعد نضال قاسٍ وكفاح مرير.

إنه جزء لا يتجزأ من الحركة الشاملة للأمة العربية في يقظتها ونهضتها من أجل البقاء والنماء، هو تحرير للفكر واللسان بعد تحرير الأرض والإنسان.

٤ ـ إن التعريب هو السبيل إلى بناء الشخصية العربية الجديدة، نفسياً وثقافياً لتجمع بين الأصالة والتجديد، والتراث والمعاصرة في صيغة عبقرية تصل الماضي بالمستقبل وتغني الحاضر بمآثر

الثقافة العربية القديمة وروائع الفكر الإنساني المعاصر. إنه استجابة لتطلعات جماهير الأمة، وتعبير عن إرادتها في مصير عربي مشترك: واحدٍ ونَيِّر.

ثالثاً ـــ واقع التعريب

ولكن ما هو واقع العربية والتعريب في البلدان العربية اليوم؟

إن حديثنا لا ينصرف البتة إلى اللهجات العامية للعربية التي شاعت بفعل عوامل مختلفة شأن ما حصل للغات الأخرى، بل ينصرف إلى اللغة العربية الفصحى، العدنانية القرشية التي أثراها القرآن الكريم ونشرها في الآفاق بين الأمم والشعوب التي اعتنقت الإسلام ديناً.

لقد استطاعت هذه اللغة قديماً أن تستوعب الثقافات والعلوم عندما نقلت إليها معارف الأمم من هند وفرس وإغريق، وأصبحت لفترة مديدة من الزمن لغة العلم في العالم المتحضر آنذاك، من الأندلس غرباً إلى بلاد ما وراء النهر شرقاً، وعبر اللسان العربي عن دقائق الأمور بكفاية ويسر. قال الجاحظ في كتاب الحيوان «وقد نقلت كتب الهند، وترجمت حِكَم اليونانية وحُوِّلت آداب الفرس فبعضها ازداد حسناً وبعضها ما انتقص شيئاً». وقال العالم الكبير أبو الريحان البيروني في كتابه الصيدنة «وإلى لسان العرب نقلت العلوم من أقطار العالم، فازدانت وحلت في الأفئدة، وسرت محاسن اللغة منها في الشرايين والأوردة». ولكن عندما ضعفت الأمة العربية وبسط الأعاجم نفوذهم عليها، تغيرت الحال إذ توقف تقدم العلم وتوقف معه تقدم اللغة، وران الجمود على العقول والأقلام، فصار العلم اجتراراً والكتابة زخرفاً وتكراراً. ويشرح ابن حزم في كتاب «الإحكام في أصول الأحكام» مشيراً إلى تلك العلاقة القائمة على الترابط المحكم بين الأمة ولغتها «... فإن اللغة يسقط أكثرها ويبطل بسقوط دولة أهلها، ودخول غيرهم عليهم في مساكنهم، أو بنقلهم عن ديارهم واختلاطهم بغيرهم. فإنما يقيد لغة الأمة وعلومها وأخبارها قوة دولتها ونشاط أهلها وفراغهم، وأما من تلفت دولتهم وغلب عليهم عدوهم واشتغلوا بالخوف والحاجة والذل وخدمة أعدائهم فمضمون منهم موت الخاطر، وربما كان ذلك سبباً لذهاب لغتهم ونسيان أنسابهم وأخبارهم وبيود علومهم. وهذا موجود بالمشاهدة، ومعلوم بالعقل ضرورة».

إن هذه المقولة لابن حزم تفسر لنا ما ناب اللغة العربية من توقف وجمود، في عصورٍ طابَعُها التخلف والتجزئة والتبعية.

وفي عصر النهضة الحديثة ، رافقت النهضةُ اللغويةُ الثقافيةُ اليقظةَ الوطنيةَ والقومية . وحفلت أيام محمد علي بمصر بمجهودات جبارة من أجل بناء دولة عربية موحدة ومُـحَـدَّثة ، وكان مما اشتملت عليه هذه المجهودات السعي لترجمة العلوم العصرية إلى العربية ، وجعل لغة الضاد تتبوأ مكانها الطبيعي لغة للتعليم والعلم في جميع المستويات والتخصصات .

ولكن الهجمة الاستعمارية التي امتدت قرناً أو أكثر وشملت الأقطار العربية جميعها أو أكثرها ، حالت دون تحقيق العرب أمنياتهم وبسطت على الوطن العربي الجهل والفقر ، وأشاعت فيه الظلم والقهر ، وامتدت إلى اللغة العربية بصفتها عاملاً من عوامل الحفاظ على الشخصية العربية الإسلامية ، فانبرت تحاربها وتحاصرها وتستلب منها أبناءها وتفتري عليها ، لتحل محلها لغة المستعمر ، بالترهيب حيناً وبالترغيب حيناً آخر .

ولكن بعد أن تراجعت العربية أمام الهجوم الشرس ، وتحصنت في معاقل منيعة من الإيمان والإخلاص ، نهضت مع النهوض الوطني والقومي بعد الحرب العالمية الثانيـة ، وكـرستها الإرادة الجماهيرية قبل أن تكرسها دساتير الأقطار العربية ، وعادت إلى ميدان الفكر والعلم بخطوات ثابتة .

ولكن على الرغم من جميع الجهود التي بذلت من أجل أن تستعيد العربية مكانتها في أرضها وبين أهلها ، فإن العقبات لم تذلل جميعها ، وما يزال للغات الأجنبية أنصار وأتباع في قطاعات عديدة ، يدفعهم إلى ذلك تكوين لغوي لم يختاروه ، واعتياد في الكتابة والتخاطب شبوا عليه .

ومن أجل ذلك يطرح موضوع التعريب مرة بعد مرة ، وتشرح دوافعه ونتائجه ومجالاته ووسائله ، حيناً بعد حين ، وسيظل الأمر كذلك حتى يتحول النظر إلى عمل ، وتسترجع العربية ما فقدت من مواقع ، فتكون أداة التفكير والتعبير عند العرب جميعاً ، ولا ضير بعد ذلك إن اكتسب العربي لغة أجنبية أو أكثر تكون عوناً له على الاتصال بثقافات العالم المعاصر ، بل إن اكتسابها مفيد ومحمود .

ويمكننا أن نجد على الخريطة اللغوية ثلاثة أصناف من الدول العربية :

١ ــ دول عربية للغة العربية وجود ضعيف فيها ، ولكنه وجود يعتمد على خلفية دينية وتراثية قوية ، وتعززه إرادة الدولة شعباً وقادة ، هذه الإرادة التي تجلت في نصوص دستورية وقانونية ، كما تجلت في انتساب هذه الدول إلى جامعة الدول العربية .

إنه لا يقصد بالتعريب في هذه الدول، أي دعمِ اللغة العربية وتقويتها ونشرها، القضاءُ على اللغات المحلية فيها، بل يمكن أن يكون تعايشٌ بين العربية وبينها، كما يمكن أن يكون لإحدى اللغات الأجنبية دور اللغة المعينة.

إن هذه المشكلة ليست متماثلة في هذه الدول بل تختلف من واحدة إلى أخرى، إذ هي في إحداها شاملة أي تشمل السكان جميعهم، وفي أخرى جزئية أي أنها تقتصر على جزء من السكان. وفي كل حال، تفرض أهمية الموضوع أن تحشد الجهود الوطنية والقومية وتسخر القدرات البشرية والإمكانات المالية للتصدي لهذه المشكلة، التي تتصل بالهوية الثقافية والحضارية لهذه البلدان، والتي ترسم مصيرها ومستقبلها إلى أمد بعيد.

٢ ـــ دول عربية للغة العربية وجود كامل تقريباً في الشعب ووجود في خطابها السياسي والاجتماعي والإعلامي، كما أن للعربية فيها مؤسساتِها العريقةَ التي احتمت بها أيام الاحتلال ورفعت رايتها بعد الاستقلال.

بيد أن النظام التعليمي في هذه البلدان، تأثراً بما فرضه المحتلون واستمراراً في النهج الذي رسموه، ظل يفسح للغة الأجنبية مكان الصدارة ولا سيما في التعليم العلمي والمهني في المراحل الجامعية وما قبل الجامعية، ويمنحها السيادة في ميادين مهمة مثل الاقتصاد والمال والمصارف والمهن الفنية كالطب والهندسة والصيدلة.

إن التعريب يعني في هذه البلدان إلغاء هذه الازدواجية بجعل العربية لغة العلم والمجتمع، الأساسية، ووضع اللغة الأجنبية في الموضع الصحيح، لغة مساعدة على الاتصال بالثقافات الأجنبية.

٣ ـــ دول عربية للغة العربية فيها وجود كامل على المستوى الشعبي والرسمي ولكن مشكلة التعريب فيها تنحصر في أن هذه الدول قد اصطنعت اللغة الأجنبية لغة للتعليم العالي في الكليات العلمية والمعاهد الفنية وفي مراكز البحث العلمي والدراسات العليا. ووراء ذلك ما يدعيه أنصار هذا الوضع من أن الكتب والمراجع العلمية غير موفورة بالعربية، وأن المصطلح العلمي يعاني من النقص والتباين، وأن المدرسين القادرين قد أتموا دراستهم في الخارج بلغة أجنبية يحسن أن تكون أداة تدريسهم.

إن المشكلة هنا أخف وطأة وأيسر معالجة، وهي تحتاج على أية حال إلى خطة ترمي إلى

تعريب التعليم العالي والفني والبحث العلمي بتوفير ما يشكى من فقدانه ونقصه وهو : المصطلح الموحد والكتاب الوافي بالغرض والمدرس العربي القدير . ويتفرد من بين هذه الفئة القطر العربي السوري الذي بدأ التعليم العالي فيه معرباً بعد الحرب العالمية الأولى واستمر كذلك إلى اليوم بنجاح بَيِّن .

رابعاً ــ مجالات التعريب

إن كل خطة توضع ينبغي أن يحدد لها هدف يراد بلوغه . والهدف فيما يوضع من خطط للتعريب هو جعل اللغة العربية لغة المجتمع بأسره ، أي تمكين العربية من أن تكون لغة حياة الناس جميعاً : في المدرسة والإدارة والمعمل والسوق ، وفي المدينة والقرية والبادية ، حتى يواجه المواطن شؤون الحياة كلها من منطلق اللغة والثقافة العربية .

بيد أن كل خطة ينبغي أن تأخذ في الاعتبار الظروفَ الاقتصاديةَ والاجتماعيةَ والثقافيةَ واللغويةَ الخاصة بالبلد المعني ، وأن تشتمل على المجالات التي يحتاج إليها ، وتعتمد على الوسائل البشرية والمادية المتاحة له ، وذلك كيما تكون استجابة صحيحة لحاجاته ودواءً شافياً لما يشكو منه .

وإيضاحاً لشمولية التعريب الذي نصفه بالتعريب الشامل ، نسرد باقتضاب أهم المجالات التي يصح الاهتمام بها كيما تكون العربية أداة التعبير في المجتمع :

١ ــ مجال التعليم النظامي

إنه من أهم مجالات التعريب لأنه ينصرف إلى النشء في مطلع تكونهم اللغوي والثقافي فيكسبهم ملكة اللغة العربية ، ويغرس في نفوسهم حبها ، ويدرج على ألسنتهم نطقها ونبرتها ، ويملأ نفوسهم بمعانيها وموسيقاها . أضف إلى ذلك أن من يتلقون هذا التعليم هم الكثرة الكاثرة من أبناء المجتمع وبناته ، وتتابع فئة منهم دراستها العليا فتغدو فئة مستنيرة ومؤثرة في المجتمع ومنها تنبثق قياداته الفكرية والسياسية والاجتماعية والعلمية والفنية .

يشمل هذا المجال جميع مراحل التعليم : الابتدائية والإعدادية والثانوية ، كما يشمل التعليم الديني والمهني والفني والنسوي ومعاهد إعداد المعلمين ومعاهد وكليات التعليم الجامعي .

إن اللغة العربية يجب ألا تدرس بمثابة لغة فحسب ، بل أن تكون أداة تدريس جميع المواد الأخرى في العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم البحتة والتطبيقية .. وأما اللغة الأجنبية فتدرس بمثابة «لغة ثانية» .

وفي مواجهة التعريب في هذا المجال ، لا بد من توفير جميع الأسباب التي تكفل له النجاح : المدرسة الملائمة ، والمعلم الكفء ، والكتاب الجيد ، ويظل المعلم في هذا المجال حجر الزاوية ، ولذا يتوجب رفع أهلية المعلمين القائمين بالعمل عن طريق التدريب والتأهيل أثناء الخدمة ، وإعداد المعلمين الجدد في دور المعلمين ، التي تشكل الخلايا الحية في هذه العملية التعليمية الكبيرة ، وإعداد المدرسين في كليات التربية .

هذا ويتصل بهذا المجال تعريب التعليم العالي ، أي تدريس جميع المواد في المعاهد والكليات الجامعية باللغة العربية . إنه مشكلة من مشكلات الثقافة العربية التي لم تجد حلاً بعد ، على الرغم مما قيل بشأنها وما اتخذ من قرارات وتوصيات في المؤتمرات الوزارية والاجتماعات واللقاءات العربية المختلفة .

٢ ــ مجال التعليم غير النظامي

يتسع هذا المجال ليصيب فئات عديدة في المجتمع مشتملاً على نشاطات عدة ، مثل محو الأمية وتعليم الكبار والتنمية الريفية والإرشاد الزراعي والتثقيف الصحي والرعاية الاجتماعية والثقافية العمالية والتوجيه السياسي والتوعية المهنية والنقابية الخ ...

إن العمل في هذا المجال يتطلب الكثير من العناية والجهد ، ولا بد من مراعاة ظروف كثير من المستفيدين وأكثرهم من الأميين والأميات ، كما أن العمل في هذا المجال يقضي باتباع طرائق خاصة تجمع في صيغة بارعة مادة التعليم وطريقته وحسن الايصال بالعربية إلى كل من هذه الفئات .

٣ ــ مجال الثقافة الجماهيرية

لقد صار هذا المجال منافساً للتعليم النظامي والتعليم غير النظامي ، لصلته الوثيقة بالجمهور ، وتأثيره الفعال في عقول الناس ومشاعرهم .

ويشمل هذا المجال أشكالاً عديدة من الثقافة ووسائلها : الإذاعة والتلفزة والصحافة والمسرح والسينما والفيديو ، ومنها المعارض والمكتبات العامة والمراكز الثقافية .

إن اللغة العربية إذا كانت أداة الاتصال في هذه الأجهزة ، فإنها ترسخ في نفوس الجمهور وتغدو مألوفة يستعملونها بعفوية ويسر . ولا بد لتحقيق الهدف من توفير الوسائل المعينة من كتب ومسجلات وصحف ومجلات وتوفير المنشآت اللازمة من مكتبات ومسارح وصالات عرض .

٤ ـ مجال النشاط الفكري

يتصل هذا المجال بالعمل الفكري والإبداعي الذي يقوم به رجال الفكر من مؤلفين ومترجمين وكتاب وعلماء وفنانين .

إن اللغة العربية عندما تكون لغة هذا النشاط الفكري تغنيه وتغتني به ، تغنيه إذ تمده بالألفاظ الفصيحة والعبارات البليغة والأساليب البارعة ، وتغتني منه إذ تحث المبدعين من رجال الفكر على استنباط الألفاظ الدالة والتعابير الجزلة والرشيقة التي تخدم الأغراض الأدبية والعلمية التي يقصدونها .

٥ ـ مجال الإدارة والعمل

يتصل هذا المجال بنشاط المواطنين المهني والعملي في الإدارة والمعمل والحقل والسوق ، فهو بكلمة ، يتعلق بتحرك المواطن وسعيه في حياته المعيشية اليومية .

ويشتمل هذا المجال على الأعمال المتعلقة بالعمل الحكومي والأهلي على السواء : في التشريع والقانون والقضاء والإدارة والتجارة وفي المصارف والضرائب الخ ...

ثم هناك مظاهر في ساحة الحياة اليومية تحتاج إلى إمعان نظر ، مثل اللافتات التي تحمل أسماء الشوارع والأحياء والأزقة ، أو التي تدل على المحال التجارية والفنادق والمطاعم ، ثم إشارات المرور وأسماء السلع وأثمانها والبريد وجوازات السفر وغيرها .

والمطلوب يظل دوماً هو أن يكون المجتمع العربي عربياً في جوهره ومظهره ، فذلك أدعى ليكون هو هو وأدعى لإحراز التقدم والنجاح .

خامساً ـــ وسائل التعريب

إن الوضع القائم اليوم والمتمثل بضعف اللغة العربية، قليلاً أو كثيراً في هذا البلد العربي أو ذاك، لم ينشأ مصادفة ولا استمر عبثاً، بل ثمة من أحدثه من أرباب السلطة والنفوذ إضعافاً للأمة العربية، في وقت لم تكن فيه هذه الأمة تملك مقدراتها، وثمة من يرعاه ويدافع عنه من ذوي المصالح الشخصية والامتيازات الاجتماعية، وبالتالي فإن كل سعي جاد لتغيير هذا الواقع سيقابله سعي للذود عنه والإبقاء عليه.

ولذا فإن كل خطة توضع للتعريب وتقوية اللغة العربية في قطر عربي ما، ينبغي أن تهيأ لها المستلزمات الواجبة للعمل حرصاً على تجنب النكسة وإدراك النجاح.

يمكننا أن نتصور ثلاثة أصناف من الوسائل المختلفة:

١ ـــ القوى البشرية

إن عمل التعريب وتقوية اللغة العربية، إنما يعتمد، بالدرجة الأولى، على العناصر البشرية التي تتولى رسم الخطة والقيام بتنفيذها، ولذا كان نجاح هذا العمل إنما يتوقف على قدرة هؤلاء الناس ومدى ما يتحلون به من الإيمان بالهدف والإخلاص في العمل.

وإلى جانب المخططين والباحثين والخبراء الذين يضعون الخطط والبرامج، لا بد أن يتوافر عدد وافر من المدرسين والمعلمين والمشرفين والمدربين والفنيين... وعلى مقدرة هؤلاء جميعاً وحماستهم في العمل يقوم النجاح ويتحقق الفوز.

ومما لا ريب فيه أن للتكوين والتدريب دوراً فاعلاً وإيجابياً في إعداد هذه العناصر البشرية للعمل الناجع، ويتم هذا الإعداد بدعم المؤسسات القائمة أو إنشاء الجديد منها مثل معاهد إعداد المعلمين وكليات التربية، والتدريب المستمر في دورات نظامية.

٢ ـــ الإمكانات المادية

إن العمل على تقوية اللغة العربية ونشرها يقتضي حشد الجهود البشرية وتوفير الإمكانات

المادية في آن واحد ، لتأمين النشاط الفعال في جميع المجالات التي تقضي الأوضاع القطرية بالعمل فيها .

وتشمل الإمكانات المادية الإنشاءات اللازمة من مدارس ومعاهد وكليات ، وتوفير الأجهزة والمعدات الفنية والأدوات والوسائل التعليمية المختلفة ، وكذلك الكتب والمراجع والمجلات والصحف والأشرطة ... وليس من ريب في أن توفير هذه الإمكانات المادية يتطلب أموالاً قد لا يكون في طاقة البلد المعني أن يخصصها لهذا المشروع . ولكن ، انطلاقاً من أهمية التعريب ، وبوصفه عملاً يدخل في نطاق حركة التنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، فإن السلطة مطالبة برصد كل ما تستطيع من اعتمادات له في خططها التنموية وميزانياتها السنوية ، علماً بأنه عمل استثماري رابح ومفيد وسيكون مردوده على البلد أضعافاً مضاعفة لا على الصعيد المادي وحده بل على الصعيد المعنوي كذلك .

هذا وإن الاعتماد على الذات في هذا الموضوع لا يتعارض البتة مع السعي للحصول على عون ثنائي من دولة شقيقة ، أو دعم قومي من مؤسسات قومية ، انطلاقاً من مبدأ قومية المعرفة ومبدأ وحدة المصير .

٣ ــ التشريع والتنظيم

إن القيام بعملية التعريب في بلد ما ، وإشاعة اللغة العربية وتقويتها بين فئات أهلية ، يرتب حقوقاً ويفرض واجبات ، ولا بد من صدور نصوص تشريعية ، من الجهات المختصة تضبط العمل وترسم حدوده وتبين موجباته وتعين مؤيداته : قوانين ومراسم وقرارات تنظيمية الخ ...

وأما التنظيم فهو القاعدة التي يقوم عليها البناء ، ولا بد لإحكامه من إيجاد مجلس أعلى يتولى التوجيه والإشراف ولجان منطقية وفرعية وقطاعية تحشد الجهود وتتعاون على إنجاح المشروع .

ومن المهم أن يعتمد العمل على الجهد الشعبي إضافةً للجهد الحكومي ، وذلك على أساس المشاركة الواعية لأنه أصلاً إنما هو من أجل الشعب بجميع فئاته .

ومن المهم أن نذكر أن ما سبق بيانه عن مجالات التعريب ووسائله إنما هو من مقتضيات شمول التعريب جميع أوجه النشاط الاجتماعي ، إذا استدعت الحال ذلك ، ولكن معالجة كل حالة بمفردها ، وعلى الأخص الحالات الجزئية مثل العمل على إزالة الازدواجية اللغوية أو تعريب التعليم

العالي، إنما يتطلب التبصر في معالجتها، في ضوء ما يكتنفها من أوضاع وما تستدعي من حلول وإجراءات.

سادساً ـــ فوائد التعريب

إن السعي لتحقيق التعريب الشامل، بما فيه تعريب التعليم ولا سيما العالي منه، كي تكون العربية لغة العلم والتعليم والحياة بأسرها، ليس بدعة أو ردة، بل هو إعادة الأمور إلى مسارها القويم، إعادة ما هو كائن إلى ما يجب أن يكون.

هذا ولسنا ـــ نحن العرب ـــ نرغب وحدنا في التمكين للغتنا أن يكون لها المقام الأول في أرضها وبين بنيها، بل كل قوم يرغبون في مثل ما نرغب فيه، وقد نجح في هذا الأمر أقوام أقل منا عدداً، وأضأل قدرة، ولم يكن لهم في التاريخ مثل إسهامنا في بناء الحضارة الإنسانية. لقد فعل ذلك البلغار واليونان وأهل فنلندا وهنغاريا واليابان، بل ثمة ظاهرة أبعد مدى، إذ فعلت ذلك إسرائيل التي اصطنعتها الصهيونية من جماعات تتكلم بلغات مختلفة، فأحيت العبرية بعد موات ودَرَّست بها العلومَ الحديثة بكافة أنواعها!

هذا ونحن العرب سادرون في الخطأ، متمادون في الإهمال، نتحدث ولا نفعل، ونقرر ولا ننفذ، ونجتمع ولا نتفق، ندعو إلى الإلزام ولا نتقيد بالتزام، ونظل على اللغات الأجنبية عالة، والسنوات تمر وتتوالى، بل يجد بعضنا في استخدامها ولو لم تدعه ضرورة لذلك، إشارة لتفوقه في المعرفة وعلامة على تبحره في العلم!

إن التعريب يجب أن يكون هماً من همومنا وهدفاً من أهدافنا حتى يتحقق على كل صعيد، وما أكثر الفوائد التي نحصل عليها والثمرات التي نجتنيها:

١ ـــ إن التعريب ليس عملاً لغوياً خالصاً، إذ إنه يشتمل على بناء الإنسان بناء سوياً سليماً، بتعميق وعيه بتراثه وقوميته، وتصحيح نظرته إلى العالم من موقع الثقة بالنفس والاعتزاز بالماضي والتطلع إلى المستقبل. ولذا فإن هذا العمل يعد عملاً تنموياً رفيعاً لأن الإنسان، وقد بني هذا البناء السوي السليم، يصبح عاملاً رئيساً في تنمية بلاده، اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً، وتحقيق التقدم والازدهار لها.

٢ ـــ إن التعريب هو طريق الكشف والإبداع، ذلك أن تقبل المعرفة باللغة الأم أدعى إلى

استيعابها بالنسبة للفرد، وأدنى إلى توطنها بالنسبة إلى القوم، وهذان هما شرطان ضروريان لظهور مبدعين في مختلف مجالات المعرفة، في العلوم والفنون والآداب.

وإذا حصل أن نبغ عربي يستعمل لغة أجنبية في تفكيره وتعبيره، فذلك شاذ لا يقاس عليه، ويصب عمله في الحوض الثقافي لتلك اللغة الأجنبية.

٣ ــ التعريب انفتاح على الحضارة العالمية من موقع متميز، ولا سيما جانب الثقافة العلمية والتكنولوجية منها، وليس انغلاقاً دون ما يبدعه الفكر البشري ويُـدَوَّنُ باللغات الأجنبية.

الترجمة وسيلة للتعريب وليست تعريباً. إنه أبعد من الترجمة مدى: الترجمة نقل والتعريب تمثل، الترجمة ازدياد كمي، والتعريب ازدياد كيفي، الترجمة إضافة، والتعريب تفاعل يتيح نقل المجتمع من مجتمع مقلد مستهلك إلى مجتمع منتج ومبدع في الحضارة المعاصرة على أساس المشاركة لا المماثلة.

٤ ــ التعريب جهد لغوي وثقافي يترك آثاراً ظاهرة ونافعة على جميع الأصعدة: الوطنية والقومية والاجتماعية.

أ ــ إنه يوطد الوحدة الوطنية بين أبناء الشعب في القطر الواحد، ويجعل الأقليات العرقية والدينية تزداد اندماجاً بالحياة الوطنية بقناة اللغة العربية، إذ عن طريق هذه القناة يصل المواطن الدارس إلى شتى مجالات الفكر العربي من آداب وعلوم وفنون.

ب ــ إنه يقوي الرابطة الهامة التي تربط بين أبناء الأمة العربية في أقطارهم المختلفة، ألا وهي رابطة اللغة.

إن أمتنا العربية تعيش في ظرف فريد من نوعه، إذ هي تتوزع في اثنتين وعشرين دولة، ولكل دولة سلطتها السياسية وخططها الثقافية والتربوية، وليس ثمة آصرة تجمع بينها أقوى من آصرة اللغة والثقافة.

ج ــ إنه يتيح للمواطنين العرب، على اختلاف مستوياتهم العلمية والثقافية أن يعملوا ويعيشوا هنا وهناك في الأقطار العربية، ويكون الوطن العربي كله ساحة عمالة يحقق فيها المواطنون أهدافهم وتربح الأقطار العربية جهودهم البناءة.

إن ذلك كله يحقق للأمة العربية والمجتمع العربي المزيد من الأمن والطمأنينة والازدهار.

سابعاً ـــ التعريب والمصطلح

إن بين التعريب والمصطلح صلة واشجة وترابطاً محكماً، ذلك أن التعريب الذي يعني، فيما يعني، أن تكون العربية أداة التفكير والتعبير في كل علم وفن، وفي كل منشط ذهني أو عملي، وعلى الأخص في مجال التعليم والبحث والتأليف، إنما يحتاج إلى المصطلح أي المقابل العربي للمصطلح الأجنبي، وعلى الأخص العلمي منه، لاستخدامه في الإفصاح عن المفاهيم الجديدة وتسمية الأشياء المستحدثة. ولسنا ننسى أننا نعيش في عصر هو «عصر التفجر المعرفي، عصر العلم والتكنولوجيا» وتدخل القاموسَ العلميَّ كلَ يوم مصطلحاتٌ جديدةٌ يضعها العلماء والمخترعون بلغاتهم القومية.

وثمة سؤال يلح: هل بتزامن اصطناع مقابلات عربية لهذه المصطلحات مع الحاجة إليها في التعليم والاطلاع والبحث؟

الواقع أن ثمة فجوة زمنية تفصل بين وقت وضع المصطلح باللغة الأجنبية، ووضع المصطلح المقابل له باللغة العربية، ومردّ ذلك ضعف التتبع وبطء العمل وتشتت الجهد. وهذا الواقع تدعو الضرورة إلى تبديله وتجاوزه بإيجاد طريقة تكفل لنا ملاحقة الجديد في مجال المصطلح للانتفاع العلمي العاجل به من جهة، وتجنباً لقيام غير العارفين بأصول اللغة بارتجال ألفاظ يغدو من العسير فيما بعد التخلص منها.

هذا ولسنا نقصد بهذا القول أن نعلق كلاً من التعريب والمصطلح على الآخر، فلا نشرع في التعريب ـــ ابتداءً أو استكمالاً ـــ حتى ننجز وضع المقابلات العربية للمصطلحات العلمية والتكنولوجية، أو بالمقابل لا نباشر البحث عن المصطلح ووضع المقابل العربي له إلا بعد أن نكون قد بدأنا التعريب وسرنا في دربه خطوات. إن هذين الأمرين مترابطان يكمل أحدهما الآخر، ومن الخير أن يباشر التعريب ووضع المصطلح ـــ وتنسيقه وتوحيده ـــ في وقت واحد فيدعم المصطلح عملية التعريب، ـــ وعلى الأخص في ميدان التعليم ـــ ويحض التعريب على الاهتمام بالمصطلح، حتى تُبْلَغَ الغايةُ دون وَهْن أو إبطاء.

والمشكلة اليوم في الوطن العربي ليست عدم وجود مصطلحات نحن بحاجة إليها بقدر ما هي اختلاف بشأنها بين قطر وآخر، بل بين جامعة وأخرى، وعدم التزام بما تقره وتصادق عليه مؤتمرات التعريب العربية، وعدم استخدام المصطلحات حتى المتفق عليها، لأن رياح التغريب ما زالت قوية،

ولم تتوفر لأولياء الأمور القناعة الكاملة بالتعريب والإرادة الصادقة لتذليل العقبات وتوفير المستلزمات كيما تنتصر العربية في ميدان العلوم والتقنيات.

ثامناً ــ معنى المصطلح

وما دمنا في صدد الحديث عن المصطلح فإنه ليحسن بنا أن نحدد معناه ونستجلي المقصود به.

إن الاصطلاح في اللغة هو التصالح، وتصالح القوم أي قام الصلح والسلام بينهم. وجاء في مستدرك التاج «الاصطلاح هو اتفاق طائفة مخصوصة على أمر مخصوص». وبهذا المعنى يستعمل اللفظ في هذا المجال، فإذا قلنا: إن الأطباء قد اصطلحوا على هذه الكلمة فتعني أنهم قد اتفقوا عليها، فتكون مصطلحات أي مصطلحات عليها.

ومن أمثلة المصطلحات الكلمات الآتية: التصعيد في الكيمياء، والهيولى في الفلسفة والجراحة في الطب والتطعيم في الزراعة.

ولكن كيف يتم اختيار اللفظة المناسبة للمفهوم الجديد؟ إن الأمر لا يجري اعتباطاً، بل لا بد من علاقة مشابهة أو مشاركة بين المعنى اللغوي الذي وضعت الكلمة للدلالة عليه، في الأصل، وبين المعنى الاصطلاحي الذي يراد تحميله لهذه الكلمة. ومثال ذلك أن كلمة السيارة إنما وضعت أصلاً للدلالة على الجماعة التي تسير أي القافلة، ولكنها في هذا العصر جرى استخدامها بمعنى اصطلاحي، للدلالة على الآلة المحدثة التي نركبها وننتفع بها، والعلاقة بين المعنيين واضحة وهي السير.

هذا والشرط الأساسي في المصطلحات العلمية أن يكون للمفهوم الواحد، سواء أكان اسم معنى أو اسم ذات، لفظة اصطلاحية واحدة يتفق عليها أهل الاختصاص، وأما إذا كان للمفهوم الواحد عدة ألفاظ أو دل اللفظ الواحد على عدة مفاهيم فإن التواصل الفكري يضطرب، بل يختلط الحابل بالنابل وينعدم التفاهم بين الناس!

تاسعاً ــ دور المصطلح

إن للمصطلح دوراً كبيراً في حياة الناس، فهو ناظم للتواصل بينهم، في شتى ميادين النظر

والعمل، لأن المفاهيم إنما تنتقل إلى الأذهان بالكلمات التي اتفق عليها لتكون دالة عليها، والتي ندعوها بالمصطلحات. ولكن ثمة وهماً ينبغي دفعه وهو قول القائلين بأن النص العلمي هو مجموعة مصطلحات، ويتخذون من هذا الزعم ذريعة لعرقلة تعريب العلوم. والواقع أن النص العلمي يشتمل على مصطلحات فنية تتكرر فيه، ولكنها ليست هي النص بكامله، بل إن أكثر النص يكون شرحاً وإيضاحاً وتفسيراً بألفاظ عادية ميسورة، ولذا فإن الادعاء الذي أشرت إليه إنما ينطوي على تهويل مقصود ولغاية معروفة.

هذا وإنه لجدير بالذكر والتنويه أننا لسنا نحن العرب وحدنا من يحتاج إلى المصطلح العلمي بلغته، بل إن الكثرة الكاثرة من لغات العالم تفتقر إلى ما تفتقر إليه اللغة العربية من ألفاظ فنية تدل على المعاني والأعيان المستحدثة.

والسبب في ذلك أن المصطلحات الجديدة إنما يضعها القائمون بالكشف والاختراع باللغة التي يستخدمونها، ويسعى أهل اللغات الأخرى بعد ذلك لإيجاد المقابلات لها في لغاتهم حسبما يصطلح عليها أهل الاختصاص منهم أو يقترضون هذه المصطلحات من اللغة التي وضعت بها، في الأصل.

ولا يقتصر الأمر على استحداث مصطلحات في ميدان العلوم البحتة والتطبيقية والاجتماعية والإنسانية والتقنيات المختلفة، بل يتعدى ذلك إلى استحداث ألفاظ واقتباس أخرى اقتراضاً، في نطاق الثقافة العامة والسياسة وشؤون الحضارة عامة، حتى ليمكن القول إن ثمة غزواً لغوياً تمارسه لغات البلدان المصنعة والمتقدمة في العالم على لغات الآخرين. وهذا الغزو اللغوي إنما يحمل في طياته غزواً ثقافياً من سماته تنميط الأفكار والمفاهيم الاجتماعية والعادات السلوكية والقيم الخلقية، لصالح الأقوياء.

إن هذه الظاهرة الخطرة والتي ضاعف خطرها تطور وسائل الإعلام الذي جعل العالم بأسره ساحة واحدة يتصل فيها الناس بيسر وسهولة من أربع جهات الأرض، والتي زادت الأقوياء قوة والضعفاء ضعفاً، قد اقتحمت على الشعوب والأمم أبوابها دون استئذان، وقلصت حريتها في التواصل والاقتباس والتفاعل والنمو الطبيعي في مجال الفكر واللغة والثقافة، وهذا ما حمل الغيارى على تراثهم وقوميتهم وثقافتهم على الوقوف في وجه هذا الغزو اللغوي الثقافي والدفاع عن ذاتيتهم وهويتهم الحضارية.

عاشراً ـ وضع المصطلح

إن وضع المصطلح هو إيجاد المقابل العربي للمصطلح العلمي باللغة الأجنبية، ويتم ذلك بطرائق تختص بها اللغة العربية وهي:

أ ـ **الترجمة**: وهي نقل اللفظ الأعجمي بمعناه إلى ما يقابله في اللغة العربية، Thermomètre: مقياس الحرارة.

ب ـ **الاشتقاق**: هو نزع كلمة من كلمة أخرى على أن يكون بينهما تناسب في اللفظ والمعنى: مِبْذَر من بَذَرَ.

ج ـ **المجاز**: وهو التوسع في المعنى اللغوي لكلمة ما لتحميلها معنى جديداً، الطيارة أصلاً تدل على الفرس الشديد ثم صارت تدل على آلة الطيران.

د ـ **النحت**: وهو انتزاع كلمة من كلمتين أو أكثر على أن يكون تناسب في اللفظ والمعنى بين المنحوت والمنحوت منه، عبشمي وكهرحراري بدل عبد شمسي وكهربائي حراري.

هـ ـ **التركيب المزجي**: وهو تركيب كلمتين مع المحافظة على حروفهما مثل: لاسلكي.

ومن المفيد أن نذكر أن اللغة العربية لم تواجه الحاجة إلى المصطلح للمرة الأولى في هذا العصر، بل سبق لها أن واجهت هذه الحاجة في القرن الثاني للهجرة، في عصر ازدهار الترجمة أيام العباسيين.

إن العرب آنذاك أيام الرشيد والمأمون، لم يخطر لهم البتة أن يهجروا لسانهم الذي كانوا يعتزون به أيما اعتزاز فصاحة لفظ وروعة بيان، ليطلبوا العلوم التي وجدوها متقدمة، قياساً على ما كانت عليه عندهم، بإحدى اللغات التي كانت تلك العلوم مدونة بها كاليونانية والفارسية والهندية، كما فعل بعض العرب في العصر الحديث الذين توهموا ومازالوا أن لغتهم تضيق بالعلم المعاصر، بل عمدوا دون تحرج أو تردد، ومن موقع الثقة بالنفس إلى نقل تلك العلوم من اللغات المختلفة إلى اللغة العربية.

وقد اتسعت العربية لتلك المعارف الجديدة، وأوجد النقلة والمترجمون والمؤلفون آنئذ ألوفاً مؤلفة من الألفاظ العربية لمقابلة المصطلحات الوافدة، كما أنهم اقتبسوا الألفاظ اقتراضاً ودعوها الألفاظ المعربة أو الدخيلة.

ولم يكن الأمر سهلاً ، ولا سيما أنهم خاضوه دون سابق تجربة ، والدليل على ذلك أن بعض الكتب قد ترجمت أكثر من مرة ، وعدل في كل مرة عن بعض ما استخدم في المرة السابقة من مصطلحات طلباً للأفضل من اللفظ والأصلح من العبارة .

لم تكن آنذاك مجامع لغوية أو لجان جامعية أو دوائر معاجم ، ولذا كان جِدُّ الجَادِّ من رجال العلم واللغة هو الذي سَدَّ المَسَدَّ فأغنى اللغة وأثرى الثقافة وفتح الباب عريضاً للتأليف والكشف والإبداع .

وفي العصر الحديث ، رافق النهضةَ العلميةَ والثقافيةَ في القرن ونصف القرن الأخيرين سعيٌ حثيثٌ لإيجاد المصطلحات التي تساعد على نقل العلوم العصرية إلى اللغة العربية ، وكان موضوع المصطلح مقترناً دوماً بموضوعي التعريب والترجمة ، ذلك أن التعريب يستدعي ترجمة الكتب والمؤلفات ولا سيما العلمية منها ، وأن الترجمة تستدعي أيضاً أن يكون للمصطلحات باللغات الأجنبية مقابلات عربية .

وقد ظهر في هذه الحقبة من الزمن رجال أفذاذ ، منهم من ترجم الكتب القيمة إلى العربية ، ومنهم من ألف في الموضوعات العلمية ، ومنهم من وضع المعجمات العامة والمتخصصة ، ومنهم من درس العلوم المختلفة في الجامعات بالعربية .

ولئن كان العمل قد بدأ في مرحلته الأولى بجهود أفراد ، فقد قامت بعد ذلك مؤسسات كان لها دور كبير وخدمات جلى في هذا المضمار ، وفي طليعتها مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩١٩ ، ومجمع اللغة العربية بالقاهرة ١٩٣٢ ، والمجمع العلمي العراقي ١٩٤٧ ، ومجمع اللغة العربية الأردني ١٩٧٦ . كما أسهمت في هذا المجهود اللغوي العلمي الكبير الجامعات العربية وأساتذتها ، ولا سيما من قام منهم بالترجمة والتأليف والتدريس بالعربية .

بيد أن الملاحظ أن وضع المصطلح غير منوط بأية هيئة من الهيئات ، بل هو عمل مشاع متروك لمبادرة الأساتذة الجامعيين ورجال العلم والثقافة والأدب والصحافة والترجمة ، وهذا ما يسبب التباين ويستدعي التنسيق والتوحيد .

ودرءاً للاختلاف قبل بدئه نعتقد أن مكتب تنسيق التعريب يمكن أن يكون المرجع الذي يقدم إليه الاقتراح بالجديد ، فيستنير بآراء أهل العلم في المجامع اللغوية والعلمية والجامعات ثم يقره

ويشيعه، بوصفه جهازاً قومياً متخصصاً، فيُحسِن الناس تقبلَه، وبذلك يَقِلُّ التشعب في الرأي والتشتت في العمل.

حادي عشر ـ تنسيق المصطلح

يتولى تنسيق التعريب في الوطن العربي «مكتب تنسيق التعريب» أحد أجهزة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ومقره الرباط بالمملكة المغربية.

وقد انبثق هذا المكتب من مؤتمر التعريب الأول الذي انعقد بالرباط عام ١٩٦١، وشكل هيئة مستقلة إدارياً ومالياً، ثم احتضنته جامعة الدول العربية عام ١٩٦٩، وتحول جهازاً تابعاً للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بعد نشأتها، عام ١٩٧٢.

وقد عني هذا المكتب، منذ نشأته بالمصطلح باعتباره أحد أدوات التعريب الأساسية، فأعد جملة من المعجمات في موضوعات مختلفة وعرضها على مؤتمرات التعريب التي تعقد دورياً وتتمثل فيها جميع الدول العربية والمجامع اللغوية والعلمية، فاقترنت بمصادقتها.

- المؤتمر الأول ـ الرباط ١٩٦١ ـ بحوث ودراسات.
- المؤتمر الثاني ـ الجزائر ١٩٧٣ ـ أقر ستة معجمات.
- *المؤتمر الثالث ـ طرابلس ١٩٧٧ ـ أقر ثمانية معجمات.*
- المؤتمر الرابع ـ طنجة ١٩٨١ ـ أقر عشرة معجمات.
- المؤتمر الخامس ـ عمان ١٩٨٥ ـ أقر عشرة معجمات.

ويجري العمل على إعداد عشرة معجمات للعرض على مؤتمر التعريب السادس القادم.

ويلاحظ أن مهمة المكتب، وفقاً لتسميته وأنظمته تقوم بالدرجة الأولى على تنسيق المصطلحات، أي جمع ما هو متوافر ومتداول منها في الدول العربية لدى المجامع اللغوية والعلمية والجامعات والمراكز المخصصة للبحوث والدراسات في حقل معرفي معين، ليصوغ منها بمعاونة أهل الاختصاص والخبرة مشروع معجم يعرض على اللجان الفنية وأصحاب الرأي، ثم يقدم إلى المؤتمرات الدورية للتعريب لإقراره.

ولكن التنسيق إنما اصطنع لإزالة اختلاف وترجيح رأي وتوحيد كلمة. وعندما يأتي دور

التنسيق ويحين حينه ، يكون الاختلاف في الاجتهاد قد ترسخ فيصعب التوفيق وتتكرس الفروق ويعسر التوحيد ، حتى إذا ما اتخذ المؤتمر قراراً فإن الاستعمال يظل متبايناً إذ يتمسك كل بما يعتقد أنه الأصوب والأصلح .

وتلافياً لهذا الواقع نرى أن يشمل التنسيق الذي يتولاه المكتب بحكم اختصاصه تتبعَ ما يستجد من مصطلحات في العالم ، في مختلف فروع العلم والمعرفة عن طريق مراجعة المعجمات التي تصدر باللغات الأجنبية ، ولا سيما ما كانت اللغة الانكليزية أساساً له ، والكتب والدوريات وسائر المنشورات المشهورة في العالم ، وجمعَه وعرضَه على المجامع والجامعات وعلى المنظمات والاتحادات حسب المادة والاختصاص لتقول هذه الهيئات رأيها فيه والاجتهاد بشأنه ، ثم ينسق المكتب بين الآراء ويعرضها على مختصين ثقات تمهيداً لإضافتها إلى معجماته أو إصدارها في نشرات خاصة أو نشرها في المجلة التي يصدرها ، ومن ثم عرضها على مؤتمرات التعريب لإقرارها .

إن هذا العمل تنسيق مُسَبَّق يدرأ إلى حد كبير الارتجال الحاصل في وضع المصطلح ويوفر جهود التنسيق اللاحق الذي يمارسه المكتب في الوقت الحاضر والذي لا نعتقد بكبير جدواه على الرغم من ضرورته .

ثاني عشر ــ توحيد المصطلح

تسكن الوطن العربي ، برقعته الواسعة ، أمة واحدة لعل أهم الصلات التي تربط بين أبنائها هي اللغة العربية التي تحمل تراثها الديني والأدبي والعلمي ، وتربط بين أقطارها الاثنين والعشرين برباط الثقافة الواحدة . ولذا فإنه من الواجب أن يُدرأ الاختلاف في المصطلحات لئلا يتجمع قدر من الألفاظ العلمية والحضارية في كل قطر يختلف عن مثيل له في قطر ثانٍ وثالث ورابع ، فنعرِّض العربية الجامعة للتحول إلى لغات إقليمية عدة .

إن استعمال عدة ألفاظ عربية متنوعة للتعبير عن معنى واحد أو شيء واحد ، لما يسبب البلبلة والاضطراب . إن كلمة Amibe جرى وضع عدة مقابلات لها : نغاضة ومتحورة وأميبة . وبعد فأيها أفضل من هذه الألفاظ الثلاث ، وما هي معايير الترجيح؟ ومَنِ الحَكَمُ فيه؟ ولهذا كان توحيد المصطلح أمراً لازباً لا مندوحة عنه . ولكننا نتساءل عن وسائل هذا التوحيد .

هل يكفي أن يصادق مؤتمر التعريب الذي يدعو إليه مكتب تنسيق التعريب التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، على المعجمات التي تعرض عليه حتى تكون المصطلحات المبثوثة فيها مقبولة عند رجال العلم والأدب والثقافة في الوطن العربي الكبير؟ كيف نوجد القناعة الكافية لدى جميع هؤلاء، ولدى المؤسسات التعليمية والعلمية والثقافية حتى يتم الالتزام بهذه المصطلحات؟ وإذا كان الالتزام صعب المنال بسبب اختلاف الآراء والأهواء، وتباين الرغبات والنزعات فهل لنا أن نفكر في الإلزام؟... وبعد فمن الذي يملك سلطة الإلزام؟

إن وفد الدولة الذي يحضر مؤتمر التعريب، أياً كان مستوى التمثيل فيه، ليس بصاحب القرار أو التشريع في بلده، ولا يتمتع إلا بسلطة رسمية محدودة وبقوة معنوية لا تمنح المعجمات إلا قدراً معيناً من القيمة العلمية. ومن هنا خطرت بحق مقولة أن توحيد المصطلح شأنه شأن تعريب التعليم لا يمكن بلوغه إلا بقرار من أعلى سلطة في الوطن العربي، وهي مؤتمر القمة، مؤتمر الملوك والرؤساء.

إنها مقولة على أية حال جديرة بالتأمل والبحث.

وفي انتظار ذلك نعتقد أن الأخذ ببعض التدابير التي أشارت إليها مؤتمرات التعريب مفيد بل جم الفائدة، وذلك عند اختيار المصطلح واستخدامه:

١ ــ تجنب استعمال عدة مصطلحات لمعنى علمي واحد.
٢ ــ تجنب استعمال الاصطلاح بلفظ واحد لمدلولات علمية مختلفة.
٣ ــ تفضيل استعمال المصطلح العربي على المصطلح المعرب.

هذا وينبغي العناية بنشر المعجمات التي صادقت عليها مؤتمرات التعريب على أوسع نطاق، والعمل على إغنائها وتحسينها وإثرائها بالشروح والتعريفات والصور والأشكال في طبعات قادمة.

ومن المفيد إحكام الصلات على أساس التعاون البناء بين مكتب التنسيق وبين المؤسسات المختصة: المجامع اللغوية والعلمية والجامعات ومراكز البحوث والدراسات، وبينه وبين المنظمات العربية والاتحادات المهنية والعلمية التي تستطيع أن تقدم لهذا الموضوع

الكثير، وهي، أساساً، صاحبة المصلحة في «وجود المصطلح الموحد» الذي يعين على الترجمة والتأليف، وعلى الاتصال بين الناس، عامة.

الخلاصة

إن موضوع «التعريب والمصطلح» من أهم الموضوعات الثقافية والقومية التي تتصل بحاضر الأمة العربية ومستقبلها المنشود، والمتمثل بوحدة قومية جامعة تقوم على قاعدة من التقدم الثقافي والتطور الحضاري، كيما تتمكن هذه الأمة من استعادة دورها التاريخي والإنساني التي هي به جديرة وعليه قديرة.

ولسنا نقصد بالتعريب ما يراد به أحياناً من اقتراض لفظة أجنبية لم نجد لها مقابلاً عربياً، أو ترجمة كلام ونقله إلى العربية، بل نقصد به جعل اللغة العربية لغة الإنسان العربي الأساسية في مختلف وجوه نشاطه الفكري والعملي.

إن الحكم الأجنبي الذي منيت به الأمة العربية، بعد عصر الازدهار، وما قام به ذلك الحكم من سعي حثيث لإضعاف اللغة العربية للوصول إلى إضعاف الأمة العربية التي تشكل اللغة العربية أهم مقومات وحدتها وركائز قوتها وعناصر شخصيتها، ومن محاولات متتالية لإحلال لغته محلها حَرْفاً لثقافتها وإرساءً لسياسة التغريب التي تخدم أغراضه في الهيمنة والتسلط، قد أوجد مشكلة لغوية في الوطن العربي يتفاوت حجمها من قطر إلى آخر، ويحتاج حلها، في أية حال، إلى كثير من الجهد المخلص والعمل الدؤوب.

ثمة بلد عربي يحتاج إلى عمل شامل لإشاعة اللغة العربية بين أبنائه، وثانٍ يتطلع للتخلص من ازدواجية لغوية فرضت عليه، وثالث يشكو من أن العربية لم تصطنع لغة للتعليم في معاهده وجامعاته ولا سيما في الفروع العلمية.

إن التعريب الذي تدعو إليه دواعٍ عديدة، وحسبه أنه تصحيح لوضع خاطىء منافٍ لطبيعة الأمور، لن يأتي أكله إذا لبث عملاً عشوائياً مرتجلاً أو مسعى آنياً عابراً، إذ لا بد من خطة تحكمه وتأخذ في حسابها ظروف القطر الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وتحدد فيها مجالات التعريب التي يحتاج إليها ذلك القطر والإمكانيات البشرية والمادية المتاحة له، على أن يباشر هذا العمل على أساس التنسيق والتعاون مع الأقطار الشقيقة والمنظمات والاتحادات العربية المتخصصة.

ولكن كل جهد يبذل في هذا السبيل جهد نافع يعود بالخير على العرب، أفراداً وجماعات لأنه يدخل في إطار بناء الإنسان العربي بناءً سوياً، ألم يقل العرب قديماً: المرء بأصغريه قلبه ولسانه؟!

وفي اعتقادنا أن كل خطوة نخطوها في مجال التعريب لا بد أن يرافقها جهد من أجل وضع المصطلح وتنسيقه وتوحيده، لأنه أحد أدوات التعلم والتعليم والنظر والعمل، وبه تتسلح اللغة وتغتني لتعبر عن حضارة هذا العصر المتنامية، ولا سيما في مجال العلوم والتقنيات.

وإذا كان المصطلح قد شُغِلَ بوضعه أفراد نابهون غيارى منذ قرن ونصف أو يزيد، وشغلت بدراسته وتوحيده مؤسسات عربية ثقافية كالمجامع اللغوية والعلمية والجامعات ومكتب تنسيق التعريب، فهو اليوم بحاجة إلى المزيد من الجهد المنظم لتدارك النقص ومتابعة المستجدات في أقرب الآجال، مع العناية بتعميم المصطلحات الموحدة والحث على استخدامها في كل مجال، ولا سيما في مجالات التعليم والترجمة وفي مختلف ميادين الثقافة والإعلام، كيما تستقر في الأذهان وتتداولها الألسن والأقلام.

إن العمل في مجال التعريب والمصطلح عمل جليل نافع يترك أثراً باقياً في حاضر العرب ومستقبلهم:

- يمكن اللغة العربية في ميدان المعارف، العلوم والآداب والفنون، خصوبة واغتناء.
- يمكن لها في أرضها وبين بنيها في الأقطار العربية كافة، توسعاً واقتداراً.
- يمكن لها خارج الوطن العربي، في أفريقيا وآسيا والعالم، إشعاعاً وانتشاراً.
- يمكن لها في الهيئات والمحافل الدولية والمنظمات العالمية والإقليمية رسوخاً واعتباراً.

واللغة العربية إذ تحمل في ثنايا ألفاظها وعباراتها ثقافة عميقة الجذور ممتدة الفروع، فإنها الوجه المشرق لأمة عريقة صنعت التاريخ في الماضي، وتطمح إلى المشاركة في صنعه اليوم وغداً: عدلاً وأمناً، ورخاء وسلماً لجميع بني الإنسان.

تعريب التعليم الطبي والصيدلي
في الوطن العربي

ملخص دراسة نشر في «المجلة العربية للثقافة» التي تصدرها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. العدد ١٢ سنة ١٩٨٧.

---

١ ــ واقع التعليم الطبي

إن ما يدفعنا إلى معالجة هذا الموضوع هو أنه مشكلة قائمة. وهذه المشكلة لم تجد لها حلاً على الرغم مما كتب بشأنها وما انعقد من أجلها من ندوات واجتماعات وما حبّر في شرحها ومعالجتها من بحوث ومقالات.

إن هذا التعليم ما زال يؤدى، في كليات الطب وطب الأسنان والصيدلة ومعاهدهما ومدارس التمريض في البلاد العربية بإحدى اللغتين الإنكليزية والفرنسية، ولا يؤدى باللغة العربية التي هي لغة المعلمين والمتعلمين في هذه الكليات والمعاهد والمدارس، ولغة الناس الذين وجد التعليم الطبي لتكوين أطباء وصيادلة وممرضين يعالجونهم ويداوون أسقامهم وأمراضهم.

وواقع الحال أن الأمر ليس واحداً في جميع الأقطار العربية: فثمة قطر عربي واحد، هو القطر العربي السوري، قد بدأ التعليم الطبي باللغة العربية عام ١٩١٩ ومازال مستمراً فيه حتى اليوم دون انقطاع.

بدأ أول الأمر في كلية الطب بدمشق ثم لحقت بها كليات الطب في الجامعات السورية الأخرى كما لحقت بها كليتا طب الأسنان والصيدلة بدمشق والمعاهد الطبية المتوسطة ومدارس التمريض في دمشق وغيرها من المدن... في حين أن كليات الطب ومعاهده ومدارسه في الأقطار العربية الأخرى ما تزال تعلم الطب والعلوم المتصلة به والمتفرعة عنه بإحدى اللغتين الانكليزية

والفرنسية : الانكليزية في الأقطار المشرقية ولا سيما في الأقطار التي كانت خلال فترة من الزمن تحت النفوذ البريطاني ، كالعراق والأردن ومصر والسودان وفلسطين وفي الكليات التي أحدثت في بلدان الجزيرة العربية ، والفرنسية في الأقطار المغربية ولا سيما في الأقطار التي كانت خلال فترة من الزمن تحت النفوذ الفرنسي كالمغرب والجزائر وتونس .

ومن المعروف أن بعض الدول العربية قد أخذت منذ سنوات تبذل الجهود المخلصة لتعريب التعليم الطبي لديها كالجمهورية العراقية . ونرى أن تعريبها التعليم الطبي هذا سيكون خاتمة عملها التعريبي كله وتتويجاً لسعيها المتصل لجعل العربية لغة العصر في ربوعها وبين أهلها وذويها .

٢ ــ قدرة اللغة العربية

ماذا يعني أن يُدرّس الطب والعلوم المتصلة به والمتفرعة عنه بغير اللغة العربية ، في الوطن العربي ؟

إنه يعني ، بكل بساطة وبكل وضوح ، ومن غير مواربة أو ريبة ، أن اللغة العربية لا تصلح في نظر بعضٍ من أهلها أن تكون لغة العلم في هذا العصر ، بَلْـهَ لغة التعليم والتعلم ، ولذا ينبغي أن يستعاض عنها بلغة أخرى ، بصرف النظر عما يحمل ذلك من أخطار نفسية وتربوية واجتماعية وحضارية ، وأضرار مادية ومعنوية للأمة العربية وأبنائها ، وما يحمل من إساءة إلى ماضي هذه الأمة ومستقبلها معاً .

وقد غاب عن بال المسؤولين عن هذه الغربة اللغوية أن الأمر لم يحدث مصادفة ، بل حدث في ظروف معينة وأن اختيار اللغة الأجنبية لتعليم الطب لم يكن من قبل العرب بل كانت هذه الظاهرة جزءاً من ظاهرة التغرب أو التغريب أي تقليد الضعيف للقوي المتسلط أو بالأحرى جعل الضعيف يقلد القوي المتسلط . قال المفكر العربي الدكتور محيي الدين صابر في هذه الظاهرة في محاضرة قيمة له ألقاها في بون بتاريخ ٧ / ١٠ / ١٩٨٢ « إن الثقافة الغربية قدمت نفسها إلى الوطن العربي في إطار التسلط الاستعماري باعتبارها فكر النظام الأجنبي الغالب ، وفرضت اللغات الأوربية على كل جوانب الحياة الحديثة التي ابتدعتها الإدارة الجديدة ، وأنشئت المؤسسات العامة على أساسها : المدارس والدواوين والمصالح والإدارات الحكومية في مختلف المرافق الفنية ، وأصبحت هي وسيلة الحراك الاجتماعي وخاصة بعد أن نصبت الحضارة الصناعية والتكنولوجية المعاصرة نفسها مثلاً

أعلى للتقدم البشري، فحوربت اللغة العربية، وتقلص نفوذها، وتحددت إقامتها في بعض المجالات الاجتماعية التقليدية».

ويزعم بعض من خطفت أبصارهم مظاهر المدنية الغربية دون لبابها، ولم يفرقوا بين العلم واللسان الذي يعبّـر عن العلم ولم يميزوا بين أن نخطف المعرفة لنجعلها من مشمولات ذاتنا وبين أن تتخطفنا المعرفة وتسلخنا من تربتنا وكينونتنا لنصبح غير ما نحن، إن اللغة العربية، إن صَلُحَتْ أن تكون لغة فقه وأدب وشعر، فإنها لا تصلح أن تكون لغة علم ولغة طب لافتقارها إلى الألفاظ العملية والتعابير الدقيقة التي تحتاج إليها العلوم والتكنولوجيا المعاصرة وفي مقدمتها العلوم الطبية.

إنه عَجْز في هؤلاء المدعين عن إثراء لغتهم العربية بل عن دراستها ومعرفتها، بيد أنهم يسقطون هذا العجز على اللغة العربية تبريراً لتقصيرهم إزاءها وقعودهم عن معالجتها واستخدامها وخدمتها مثلما يفعل المخلصون من أبناء الأمم الأخرى والغيارى على تراثهم ومستقبلهم.

٣ ــ التجارب الثلاث

إن تجارب ثلاثاً في التعليم الطبي بالعربية تحمل الإجابة الحاسمة حول إمكانية تعريب التعليم الطبي والصيدلي وصلوح اللغة العربية لهذا التعليم:

أ ــ الأولى هي التجربة التي تمت في القرن الثاني للهجرة وما تلاه، إذ استوعبت العربية الطب الذي ترجم إليها، ثم صارت لغة تعليمه والتأليف فيه، والإبداع في مجالاته المختلفة، زمناً طويلاً.

ب ــ الثانية هي التجربة التي تمت في العصر الحديث في مصر وبيروت إذ بدأ التعليم الطبي فيهما بالعربية واستمر مدة قبل أن يتحول إلى غيرها.

ج ــ والثالثة هي التجربة التي بدأت في دمشق بالمعهد الطبي العربي، في العهد الفيصلي والتي استمرت بنجاح حتى اليوم.

ونعرض هذه التجارب الثلاث بشيء من التفصيل:

أ ــ التجربة الأولى

كان الطب عند عرب الجاهلية يعتمد على تجارب بسيطة ويتناقله الناس تقليداً، وأشهر طرائقه الكي والفصد والحجامة.

وكان للغيبيات أثر في معالجتهم الطبية، فكانوا يتوسلون إلى الأصنام ويستعملون التمائم والتعاويذ، وكان للكهنة والعرافين والمنجمين والسحرة دور في مداواة المرضى.

وكذلك كانوا يعالجون مرضاهم بالأعشاب والنار والرماد واللبن والخرز وبول الإبل... وكانوا يرون الشفاء في ثلاثة أمور: شربة عسل وشرطة محجم وكيّـة نار. وقد عرفوا التكحل بالإثْـمِـد، وعُـنُوا بالجراح وتضميدها، وعرفوا ما سموه حمى القلب والجرب والكُبَاد.

قال الحرث بن كَلَدَةَ أحدُ أطبائهم المشهورين لكسرى أنو شروان، ملك الفرس «أصل التطبيب الأمر بالجوع والحمية، والرجوع بالأجسام إلى ما كانت قد تعودته في أيام صحتها من المأكل والمشرب والراحة... والداء الدوي هو إدخال الطعام على الطعام فهو الذي يفني البشرية ويهلك السباع في جوف البرية...».

ومن مشاهير أطبائهم صاحب القول المأثور السابق الحرث بن كلدة من بني ثقيف من الطائف، والنضر ابنه، وقد درسا كلاهما الطب في جُـنْـدَيْسابور، وابن أبي رمثة التميمي، وهؤلاء الثلاثة عاصروا ظهور الإسلام، ومنهم الشمردل النجراني، وضماد بن ثعلبة الأزْدي اللذان أسلما بعد فتح مكة الخ...

ولكن اتصال العرب، بعد قيام الدولة العربية الإسلامية بالحضارات القائمة آنذاك في العراق والشام وفارس ومصر قد حملهم على اقتباس ما لدى الأمم الأخرى من علوم ومعارف مختلفة كالفلك والرياضيات والكيمياء، وعلى الأخص الطب الذي يمثل حاجة أساسية من حاجات الإنسان إذ يتصل بصحته وقوته بل ووجوده وهو دريئته ضد الأمراض والأوجاع والموت.

وترجمت الكتب الطبية إلى العربية، وشجع الخلفاء على الترجمة ولا سيما هرون الرشيد وابنه المأمون، وإن كانت الترجمة قد بدأت قبلهما. ذكر ابن النديم في كتاب الفهرست في حديثه عن خالد بن يزيد الأموي مايلي «كان أول من ترجم له كتب الطب والنجوم وكتب الكيمياء»، وذكر محمد كرد علي رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق سابقاً في كتابه «خطط الشام» «أن خالداً قد استخدم أحد علماء مدرسة الاسكندرية «اصطفن» في نقل الكتب اليونانية الطبية إلى العربية»، وذكر القفطي في كتابه «أخبار الحكماء» أنه «في زمن مروان بن الحكم نقل أول كتاب طبي إلى اللغة العربية وهو كناش أهرن القس بن أعين، وقد احتوى على ثلاثين مقالة نقلها ماسرجويه الطبيب

البصري من السريانية إلى العربية وزاد عليه مقالتين .. » ويذكر ابن أبي أصيبعة في كتابه المذكور « أن الخليفة عمر بن عبد العزيز أمر بنشر الكتاب وقد وجده في خزائن الكتب بالشام » .

وتتالت الترجمات زمن العباسيين ، وكان « بيت الحكمة » ببغداد بمثابة أكاديمية علمية تنقسم إلى أقسام متعددة للنقل حسب اللغات ، وفيها قسم للتأليف وآخر للبحث . وقد بلغ عدد الكتب التي ترجمت إلى اللغة العربية حسبما ذكر ابن النديم في الفهرست حوالي (٤٠٠) كتاب منها في الطب (١٤٩) كتاباً ، وهي من تأليف الأطباء التالية أسماؤهم مع قليل لغيرهم : (٥٣) كتاباً لجالينوس و (٤٣) كتاباً لروفس و (١٠) كتب لأبوقراط و (٢) كتاب لديسقوريدس و (٢) كتاب لفولس الأجانيطي الخ ...

وكان من أهم من تصدى لترجمة الكتب الطبية يوحنا بن ماسويه والحجاج بن مطر وقسطا بن لوقا والكندي وحنين بن اسحق واسحق بن حنين وحبيش الأعسم ويحيى بن عدي الخ ...

ولم تكن الترجمة إلى العربية في ذلك الزمن ، شأنها في كل زمن ، بالأمر الهين اليسير . فقد كان على النقلة أن يستوعبوا معارف جديدة يؤدونها بألفاظ وعبارات ملائمة . قال الأب انسطاس الكرملي(٥) « إن علماء ذلك العهد عالجوا جميع العلوم والفنون حتى أنهم لم يبقوا كتاباً علمياً إلا نقلوه إلى لغتنا الضادية لا بل وضعوا بعض المصطلحات في الموضوعات المختلفة » .

والواقع أن المترجمين قد وضعوا آنذاك مصطلحات علمية دخلت اللغة العربية واندمجت في ألفاظها وأخذت مكانها في معاجمنا ، فقد قالوا : الجراحة والتشريح والصيدلة والكحالة ، وسموا بعض الأمراض مثل : السرطان والخانوق والذبحة والربو والاستسقاء وذات الجنب والبواسير والبردة والشترة والشعيرة واستخدموا ألفاظاً تدل على أعضاء الجسم وسواها فقالوا : الشبكية والعنبية والرطوبة والزجاجية والبيضية والقرنية والملتحمة وغير ذلك من الألفاظ .

ولا بد من القول : إن العرب لم يقفوا عند حدود الترجمة والنقل بل سرعان ما درسوا ودققوا وتمثلوا وأعملوا الفكر فيما دخل لغتهم من معارف وعلوم . يقول الدكتور محمد السويسي العالم البحاثة « إن العلماء العرب قد أكبوا على الكتب المنقولة ودرسوها درساً مدققاً عارضين كل رأي على محك العقل والنظر معددين التجارب والأرصاد ، وانطلقوا من ذلك نحو مرحلة الخلق والإبداع وأرسوا أسس الطريقة التجريبية » . وقال أحد أطبائهم عبد اللطيف البغدادي « إن جالينوس وإن كان في الدرجة العليا من

التحري والتحفظ فيما يباشره ويحكيه، فإن الحس أصدق منه» وقال ابن الهيثم «وتحروا في سائر ما يميزونه وينتقدونه طلب الحق لا الميل مع الآراء».

وبعد مرحلة الترجمة والدرس والتمثل، بدأت مرحلة الوضع والكشف والابداع. وهكذا كان أبو بكر الرازي (ت ٣١٥ هـ) صاحب الموسوعة الطبية المدعوة «الحاوي» والتي تقع في عشرين جزءاً والتي ترجمت إلى اللغة اللاتينية وظلت تدرس في جامعات أوروبا حتى القرن الخامس عشر، وابن سينا (ت ٤٢٣ هـ) صاحب كتاب القانون، الذي يعتبر موسوعة في الطب والصيدلة، وعلي بن العباس (ت ٣٨٤ هـ) صاحب كتاب «كامل الصناعة في الطب» وأبو القاسم الزهراوي القرطبي (ت ٤٠٤ هـ) أعظم جراحي الأندلس وصاحب كتاب (التصريف لمن عجز عن التأليف» وأبو مروان عبد الملك بن زهر الأندلسي (ت ٥٥٧ هـ) صاحب كتاب «التيسير في المداواة والتدبير» وهو من أشهر الكتب الطبية، وابن النفيس (ت ٦٨٧ هـ) الذي اكتشف الدورة الدموية الصغرى قبل هارفي بأربعة قرون، وابن الجزار القيرواني (ت ٣٦٩ هـ) صاحب كتاب «الاعتماد» و «زاد المسافر وقوت الحاضر» اللذين ترجما إلى لغات عديدة الخ...

ومثلما ألف الأطباء العلماء في الطب بالعربية، وبها علموا في مجالسهم ومشافيهم، فكذلك ظهرت التآليف الصيدلانية بالعربية، تارة مخالطة للمؤلفات الطبية كما في كتابي المنصوري والحاوي للرازي والفصل الخامس من كتاب القانون لابن سينا، وتارة منفردة مثل كتاب «حقائق الأدوية» للرازي وكتاب «الأدوية المفردة» لعبد الرحمن بن شهيد الأندلسي وكتاب «المغني في الأدوية المفردة» لابن البيطار... ويمر الزمن، ويأتي زمن العطاء فتترجم مؤلفات الأطباء العرب من اللغة العربية إلى لغات الغرب، فإذا هي الأساس في الطب الحديث.

وهكذا كانت التجربة نبراساً لقدرة اللغة العربية على التوسع والاغتناء وعلى التعبير عن دقائق العلم لتكون لغته ووعاءه قروناً عديدة من الزمن.

ب ــ التجربة الثانية

عندما تولى محمد علي الحكم في مصر، أدرك بثاقب ذكائه أنه ليس بقادر على بناء دولة متينة البنيان ثابتة الأركان يسوسها هو وأبناؤه من بعده، إلا إذا اقتبس أسباب المدنية الحديثة واستفاد من منجزات العلم في كل ميدان.

ومن أجل ذلك، فتح في مصر المدارس العسكرية ومدارس الهندسة والزراعة والطب والبيطرة،

وافتتح مدرسة الألسن الشهيرة، وأوجد جريدة مصرية وهي التي حملت اسم «الوقائع المصرية» وأوفد إلى الخارج مئات البعثات العلمية لتحصيل العلوم المختلفة في بلدان الغرب ولا سيما في فرنسا.

وكان من أهم المدارس التي أحدثها محمد علي المدرسة الطبية في أبي زعبل عام ١٨٢٦ ثم نقلت هذه المدرسة إلى قصر العيني بالقاهرة عام ١٨٣٧ وحملت هذا الاسم.

الذي يهمنا، بصورة خاصة، في هذا السياق من الحديث، أن جميع العلوم كانت تدرس في هذه المدارس باللغة العربية بما فيها مدرسة الطب، حتى أن الدروس التي كان يلقيها أساتذة فرنسيون كانت تترجم إلى العربية وتلقى على الطلاب.

وفي أيام الخديوي اسماعيل ظلت الأمور على حالها واستمر إرسال البعثات للدراسة إلى الخارج، ولبثت العربية اللغة الرسمية في الدولة ولغة التدريس في المدارس الرسمية.

وكان الاحتلال البريطاني لمصر عام ١٨٨٢ فحدث تغيير إثره ذو دلالة عميقة، ذلك أنه بحجة إصلاح التعليم، تم تحويل التدريس في مدرسة الطب بقصر العيني من اللغة العربية إلى اللغة الانكليزية وذلك عام ١٨٨٧، أي بعد الاحتلال البريطاني بخمس سنوات فقط، بعد أن لبثت اللغة العربية لغة التدريس في هذه المدرسة نحواً من سبعين عاماً. ولم تكن العربية لغة تدريس الطب فحسب بل لغة علوم أخرى إذ كانت هذه المدرسة أهم معهد لنقل العلوم الطبية والعلوم الأساسية معاً: الكيمياء والفيزياء والجيولوجيا وعلم النبات وعلم الحيوان إلى لغة الضاد، وفي رحابها نشأ أعظم نقلة هذه العلوم وصفوة المؤلفين فيها.

كتبت «بنت الشاطىء» الدكتورة عائشة عبد الرحمن تقول «مع بدء نكبتنا بالاحتلال عزلت اللغة العربية عزلاً تاماً عن تدريس العلوم الحديثة التي فرض المستعمر دراستها بلغته. وساير هذا الانقلاب ترسيخ لفكرة عجز العربية عن تدريس أي علم حديث وإنما حسبها أن تبقى في الكتاتيب والمعاهد الدينية والمدارس الأولية محجوبة تماماً عن الثقافة العلمية الحديثة».

لقد كانت الحقبة التي جرى فيها تدريس الطب باللغة العربية في المدرسة الطبية بمصر فترة حافلة بالنشاط العلمي أبداه أساتذة عرب وأساتذة أجانب جنباً إلى جنب، ترجمة وتأليفاً ومحاضرة وتعليماً.

يذكر الأمير مصطفى الشهابي «إن من أساتيذ هذه المدرسة الأوائل الذين خدموا العلم الدكتور كلوت الفرنسي وهو الذي أسس المدرسة وألف كتباً فرنسية للتدريس تولى التراجمة نقلها إلى

العربية، ثم الدكتور براون الذي كان عارفاً بالعربية وألف في الطبيعة والكيمياء، والدكتور فيجري الذي ألف كتاباً في النبات نقل إلى اللغة العربية».

ومن الأساتذة المصريين الذين مارسوا التأليف الطبي بالعربية والترجمة من اللغات الأجنبية إلى العربية محمد علي البقلي الذي كان جراحاً شهيراً وله مؤلفات في الجراحة، ومحمد الشافعي الذي وضع تآليف في الأمراض الباطنية، ومحمد ندى الذي كان أستاذاً للمواليد الثلاثة وصنف كتباً جيدة في الزراعة والنبات والحيوان والكيمياء والطبيعة والجيولوجيا.

ومن هؤلاء الأعلام علي رياض الذي كان صيدلياً ودرس الأقرباذين والسموم وصنف فيها، ومحمد الدري الذي ألف في الجراحة والأمراض الوبائية، وسالم سالم في الطب الباطني، ورفاعة الطهطاوي الذي ترجم وصنف في علوم مختلفة الخ...

ومن الجدير بالذكر أن محمد علي نفسه قد أمر بتأليف وترجمة كتابين لنشر الثقافة الطبية بين عامة الناس وهما: كتاب «كنوز الصحة ويواقيت المنحة» وكتاب «الدرر الغوال في معالجة أمراض الأطفال».

إن هذا الفريق من المؤلفين والمترجمين في المجال الطبي، قد احتاج فيما أخذ نفسه به من عمل إلى مصطلحات طبية فعمل على إيجادها، واهتم بعضهم بالمصطلح اهتماماً خاصاً فوضع محمد عمر التونسي معجماً طبياً سماه «الشذور الذهبية في الألفاظ الطبية».

وأما سبيلهم إلى ذلك، فإنهم قد رجعوا، للعثور على المصطلح، إلى الكتب الطبية العربية القديمة يستخرجون منها ما يجدون من ألفاظ ملائمة، وهذه المصطلحات التي توصلوا إليها جيدة في مجملها، ويمكن الاستفادة منها اليوم، وإن كان بعضها قد جرى استبداله.

وقد سلك هؤلاء مسلكاً رصيناً في الترجمة إذ خشوا الركاكة والضعف فعمدوا إلى تكليف من يقوم بعمل المراجعة أو الصياغة أو التصحيح إلى جانب المترجمين. ولكن الحركة العلمية والثقافية موصولة السبب بالسياسة نشوءاً واستمراراً وخموداً، فقد أغلقت مدرسة الألسن بعد وفاة محمد علي وتشتت خريجوها، وامتدت النكسة زمن عباس وسعيد، ثم استؤنفت النهضة مجدداً عندما أفسح لها في عهد اسماعيل، وعاد روادها إلى الترجمة والتأليف بالعربية... ولكن الرياح تجري بما لا تشتهي السفن إذ ما عتم أن حل المستعمر البريطاني بأرض الكنانة، وكان الاحتلال.

وفي بلاد الشام، وعلى وجه التحديد في ربوع لبنان المطل على البحر، أحدثت المدرسة

الأمريكية في قرية تدعى عبية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ثم نقلت إلى بيروت وحملت اسم الكلية الأمريكية، وكان الطب من العلوم التي تدرس في هذه الكلية بنجاح ظاهر.

وكان من أساتذة هذه الكلية ثلاثة أطباء أعلام أجانب أتقنوا اللغة العربية ومارسوا ترجمة الطب والعلوم المتصلة به إليها، وذلك في الفترة التي أعقبت النهضة في مصر.

وأشهر هؤلاء الأطباء الثلاثة الدكتور كرنيليوس فَنْدَيْك. لقد درس هذا الطبيب اللغة العربية على شيوخها في لبنان بطرس البستاني وناصيف اليازجي ويوسف الأسير، ودرّس في عبية ثم في بيروت علم الكيمياء وعلم الأمراض. ومن أهم مؤلفاته بالعربية كتاب «الباثولوجيا (علم الأمراض) في مبادىء الطب البشري» وكتاب «النقش في الحجر» في تسع مجلدات صغيرة في علوم الكيمياء والطبيعة والنبات والفلك والجغرافيا والجيولوجيا وغيرها...

وثاني هؤلاء الأطباء الدكتور جورج بوست الذي كان يدرس الجراحة والمواد الطبية والنبات في كلية بيروت، ومن مؤلفاته بالعربية: المصباح الوضاح في صناعة الجراح والأقرباذين والمواد الطبية ومبادىء التشريح والهيجين والفسيولوجيا وله كتاب مبادىء علم النبات وكتاب علم الحيوان في جزأين.

وثالثهما هو الدكتور يوحنا ورتبات الذي علم التشريح والفيسيولوجيا في الكلية المذكورة، وألف كتباً مفيدة مثل كتاب التشريح وكتاب الفسيولوجيا وكتاب حفظ الصحة وله رسائل عديدة في موضوعات طبية.

... ولكن التعليم بالعربية في هذه الكلية لم يدم طويلاً، وفي غفلة من الزمن جرى تحويله من العربية إلى الانكليزية.

ج ــ التجربة الثالثة

وهكذا أقصيت اللغة العربية عن التعليم الطبي حتى تأسست كلية الطب في دمشق (المعهد الطبي آنذاك) عام ١٩١٩ في عهد الملك فيصل، فاتخذت العربية لغة للتدريس خلفاً للقصر العيني بمصر والكلية الأمريكية في بيروت واستمرت بذلك حتى اليوم.

ومن هؤلاء الأعلام العلامة الدكتور حسني سبح ــ الرئيس السابق لمجمع اللغة العربية بدمشق ــ وقد ألف كتاباً في الأمراض الباطنة يقع في سبع مجلدات وأضاف إلى كل مجلدة رسالة في المصطلحات بالفرنسية والانكليزية.

هذا وقد أصدر المعهد الطبي العربي مجلة سمّاها « مجلة المعهد الطبي العربي » تولى رئاستها الدكتور مرشد خاطر مدة اثنين وعشرين عاماً (١٩٢٤ ـــ ١٩٤٦) وكانت هذه المجلة أداة صالحة لنشر البحوث الطبية وإذاعة المصطلح الطبي .

وعمدت هذه الجماعة ، استكمالاً لمهمتها العلمية واللغوية إلى العَمل المعجمي فتألفت عام ١٩٥٥ لجنة من الأساتذة : خاطر والخياط والكواكبي ، فجمعت ما وضعوا هم ورفاقهم من مصطلحات طبية ، وصنفوا نسخة عربية لمعجم كليرفيل المتعدد اللغات (الفرنسية والانكليزية والألمانية واللاتينية) ، ثم فوض كليرفيل صاحب المعجم الطبي المتعدد اللغات هذه اللجنة بأن تطبع على حدة نسخة من هذا المعجم باللغتين الفرنسية والعربية ، وبالفعل تم طبع المعجم عام ١٩٥٦ في مطبعة الجامعة السورية ووقع في ٩٦٠ صفحة وضم ١٤٥٠٠ مصطلح . ولئن كانت بعض المصطلحات التي اشتمل عليها يحتاج إلى استبدال فإن إخراجه بالعربية والفرنسية يمثل جهداً علمياً كبيراً .

هذا وحذت حذو كلية الطب بدمشق كلية طب الأسنان بدمشق ١٩٥٩ وكلية الطب بحلب ١٩٦٧ وكلية الطب في جامعة تشرين (اللاذقية) ١٩٧٤ وكلية طب الأسنان بجامعة حلب ١٩٧٩ وكلية طب الأسنان بحمص ١٩٧٩ وثلاثة معاهد متوسطة صحية في نطاق جامعات دمشق وحلب وتشرين ومعهد طب الأسنان في نطاق جامعة دمشق ، ومدرسة التمريض بدمشق ومدرسة التمريض بحلب .

وحرصاً على تسجيل أهم الكتب الطبية التي صدرت بدمشق في متن هذا البحث نذكر من الكتب المؤلفة ، على سبيل المثال :

١ ـــ كتاب الجراثيم الطفيلية للدكتور أحمد حمد الخياط .
٢ ـــ كتاب علم النسج المقارن وضع الدكتور محمد أبو حرب .
٣ ـــ كتاب الكيمياء الحيوية للدكتور اسماعيل عزة والدكتور محمد هيثم الخياط .
٤ ـــ كتاب علم تشخيص العقاقير للدكتور زهير البابا .

ومن الكتب المترجمة :

١ ـــ كتاب « معالجة الأمراض الباطنة » تأليف كوستريني وتومبسون وترجمة الدكتور طليع بشور وآخرين (٨١٦) صفحة إصدار وزارة التعليم العالي السورية .

٢ ــ كتاب مبادىء الطب الباطني ، تأليف هاريسون وترجمة مجموعة من أساتذة كلية الطب بدمشق يبلغ عددهم (٢٣) طبيباً بإشراف الدكتور فيصل الصباغ ، وأصدرته وزارة التعليم العالي في ثلاث مجلدات : الأولى تقع في (٨٣٨) صفحة والثانية في (١١٩٠) صفحة والثالثة في (٨٧٠) صفحة .

لقد مرّ على هذه التجربة الفريدة (٦٥) عاماً ، وهي ثابتة لا تتغير ، وقد كانت البرهان العلمي الساطع على قدرة اللغة العربية على التعبير عن العلوم العصرية مهما دقت واتسعت .

وقد تخرج من كلية الطب بدمشق خاصة وكليات الطب السورية عامة ألوف من الأطباء الذين يعملون بنجاح داخل سورية وخارجها في أقطار الوطن العربي ، ومنهم عدد كبير أتم دراسته العليا في البلدان الغربية والشرقية على السواء : فرنسا وبريطانيا وألمانيا والاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الأمريكية بلغات تلك البلدان دون عناء ولم يكلفه ذلك سوى دراسة جادة لا تمتد أكثر من أشهر معدودات لإتقان اللغة التي يحتاج إليها ، ولكن العربية تظل منطلقه الأساسي في التفكير والتعبير .

٤ ــ دواعي تعريب التعليم الطبي

١ ــ إن الجامعات حيث يتم تكوين الأطباء والصيادلة مدعوة لإقامة توازن إيجابي بين المعرفة واللغة ليكون ما يحصِّله المتعلم قابلاً لسرعة التمثل ومعيناً على الكشف والابتكار . ليس التعلم باللغة الأم شرطاً كافياً للإبداع ولكنه شرط مساعد .

٢ ــ إن الطبيب والصيدلي يمارسان مهنتهما على الناس ومعهم ، وجسر التفاهم بينهما وبين الناس إنما هو اللغة القومية . إن المريض الذي يشرح حاله لطبيب تعلم بلغة أجنبية يجد صعوبة في الإفهام والفهم وكذلك الطبيب يجد عسراً في تعامله مع هذا المريض وتكون عملية المعالجة بالتالي منقوصة .

٣ ــ إن التعليم إذا كان بلغة أجنبية ما أوجب أن يكون جميع الأساتذة قد أتموا تعلمهم بتلك اللغة . ففي كلية طبية تعلّم بالإنكليزية يجب أن يكون جميع مدرسيها من خريجي البلدان الناطقة بالإنكليزية . ولكن أليس من الأفضل أن نعدد بلدان الاختصاص كي نحصل على خير ما لدى البلدان المتقدمة ؟ في حال تعدد اللغات يصبح التعليم بالعربية ضرورة لا مفر منها .

وثمة أمر لا بد من التنويه به وهو أثر الحال القائمة في نفوس الأجيال الحاضرة والقادمة. إن الشباب الذي يدرس الطب في جامعة عربية وفي أرض عربية بلغة أجنبية لا بد أن يقر في ذهنه أن اللغة العربية قاصرة ولا تصلح أداة للتعليم والتعلم فإذا بينه وبينها حجاب: تضعف محبته لها وثقته بها ثم ينسحب ذلك على تراثه الأدبي والعلمي عامة، وهذا هو الانبتات عن الجذور والانقطاع عن الأصل والضياع الذي يزعزع كيان الأمة.

إن تدارك ما نشكو منه اليوم خير من إرجاء تداركه إلى الغد، ولذا كان تعريب التعليم الطبي والتعليم العالي عامة هو مهمة عاجلة تستحق أن تحشد لها القدرات وتبذل من أجلها الجهود.

٥ ــ مشكلات التعريب

إن تعريب التعليم الطبي قضية بالغة الأهمية، وإذا وجدت حلاً فإنها ستكون مقدمة لتعريب تعليم سائر العلوم الأساسية والتطبيقية، لأن الطب هو نقطة الدائرة بين العلوم وصلته بعدد منها صلة واشجة.

وإذا كانت التجارب الثلاث التي أتينا على ذكرها بما لا يدع مجالاً للشك أن تعريب التعليم الطبي ممكن فإن هذا لا يعني أنه سهل الارتياد بعد أن مرت عشرات السنين على تعليم المواد الطبية باللغة الأجنبية في جميع كليات الطب والصيدلة ومعاهدهما ومدارسهما في الوطن العربي ما عدا قطراً واحداً.

إن العادة ترسخ البادرة، والزمن يضفي على الحدث ثبوتاً ولو كان حدثاً جدّ في ظرف طارىء وبإرادة غالبة.

ومن المفيد أن نعرف الأسباب الكامنة وراء استمرار تعليم الطب بغير اللغة العربية كيما يتسنى إيجاد الحلول المناسبة لإزالة هذه الأسباب:

١ ــ إن أكثر مدرسي الطب يتلقون تعليمهم العالي أو تخصصهم بلغة أجنبية فيسهل عليهم التعليم بها.

٢ ــ إن بعض الجامعات العربية حديثة العهد، وتعتمد على مدرسين أجانب يعلّمون بلغتهم لا بالعربية.

٣ ــ إن التطور العلمي المذهل وكثرة المصطلحات التي تدخل في ميدان الطب لا يقابلهما جهد يوازيهما لاستيعابهما.

٤ ــــ عدم الالتزام من قبل المسؤولين السياسيين في الدول العربية والمسؤولين عن التعليم الطبي بما تتخذه الاجتماعات والندوات والمؤتمرات من قرارات وتوصيات بشأن تعريب التعليم ولا سيما العالي منه.

ومن هنا يجدر بنا أن نستعرض المشكلات التي تعترض تعريب التعليم الطبي، ونتمثلها في أربعة أمور:

أ ــــ المصطلح الطبي

يزعم المعارضون لتعريب التعليم الطبي أنه لا تتوافر في اللغة العربية جميع المصطلحات الطبية، بل قد تتضارب المصطلحات بين قطر وآخر.

وإزاء هذا الرأي ينبغي إيضاح النقاط التالية:

١ ــــ إن تراثنا الطبي العربي القديم يشتمل على مصطلحات طبية كثيرة لم نفد منها حتى الآن في مجالات التأليف والترجمة. صحيح أن الأساتذة الأطباء الكبار في مصر وبيروت ودمشق قد رجعوا إلى أمهات الكتب الطبية العربية للغرف من معينها ولكن ما تشتمل عليه تلك الأمهات لم يستنفد بكامله، ومن الممكن الرجوع إليه من أجل إيجاد مصطلحات جديدة.

٢ ــــ إن الكتب التي ألفت في الحقبة الأخيرة أو ترجمت عن اللغات الأجنبية، والمجلات الطبية العربية التي تصدر في أقطار عربية عديدة، وما تشتمل عليه هذه الكتب والمجلات لتدل بوضوح على أن وضع المصطلح ليس أمراً مستعصياً وإن كان ذلك يحتاج إلى جهد مستمر.

٣ ــــ وأخيراً لا يخفى علينا الجهود الطيبة التي بذلت من أجل وضع المعاجم الطبية. فإن هذه المعاجم الطبية التي ظهرت في القرن الأخير موزعة كما يلي:

٣ معاجم قبل عام ١٩٠٠
٤ معاجم بين عامي ١٩١٤ و ١٩٥٠
١٥ معجماً بين عامي ١٩٥١ و ١٩٦٠
١٢ معجماً بين عامي ١٩٦١ و ١٩٧٠
١٨ معجماً بين عامي ١٩٧١ و ١٩٨٠

وآخر هذه المعاجم صدوراً وربما أوسعها وأتقنها هو المعجم الطبي الموحد في طبعته المزيدة والمنقحة والمطبوعة في ميد لفانت بسويسرا ١٩٨٣ .

ب ــ المدرس الطبي

يدعي المدعون أن أساتذة الطب والصيدلة في الجامعات العربية قد أتم أكثرهم ، إن لم يكن جميعهم ، اختصاصهم في البلدان الأوربية والأمريكية ، بإحدى اللغتين الانكليزية أو الفرنسية ، وإنه من الطبيعي بالتالي أن يعلّموا باللغة التي أجروا بها التخصص ، وإنه ليس بمقدورهم أصلاً أن يدرسوه بالعربية .

إزاء هذا الرأي نوضح الأمور التالية :

١ ــ إن أساتذة الطب الذين أتموا اختصاصهم في البلدان المذكورة الناطقة بالإنكليزية أو الفرنسية ما كانوا يؤثرون التعليم بلغة أجنبية لو أن دراستهم الطبية الأولى كانت بالعربية بل لفضلوا أن يعلّموا الطب بالعربية ، وهذه هي الحال بالذات في سورية .

٢ ــ إن تعليم الطب بالانكليزية يقضي بإرسال الموفدين للتخصص كيما يعودوا مدرسين جامعيين في كليات الطب والصيدلة ومعاهدهما ، إلى بلد غربي لغته الانكليزية مثل بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية وكندا ، وتعليمه بالفرنسية يقضي بإرسال الموفدين إلى بلد غربي لغته الفرنسية مثل فرنسا وبلجيكا ، وهذا يقود إلى أن تكون كلية طب عربية حكراً لمتخصصين في بلد لغته الانكليزية ، وكلية أخرى حكراً لمتخصصين في بلد لغته الفرنسية .

إن هذه الحال تمنع استفادة كلية عربية ما من خريجي بلدين أحدهما لغته الانكليزية والثاني لغته الفرنسية ، وتمنع جميع الكليات من الاستفادة من خريجي البلدان التي لغتها غير هاتين اللغتين مثل ألمانيا والاتحاد السوفييتي وإيطاليا واسبانيا الخ ...

فهل نرضى أن تكون كل كلية طبية في البلدان العربية مكبلة بقيود التبعية اللغوية والعلمية لبلد واحد ، ولو كان متقدماً ؟ إن المنطق السليم يقضي بأن نسعى نحن العرب ، في هذه الفترة من الزمن للاستفادة من جميع البلدان المتقدمة ونعدد جهات التخصص لنأخذ من كل جهة خير ما لديها ونحصل على مزايا كل بلد في العلم النظري والتطبيقي فيصب ذلك كله في حوض ثقافتنا العلمية وفي ذلك غنم كبير .

٣ ــ إننا نقول بوحدة الأمة العربية ونطمح إلى وحدة سياسية تجمعها في دولة واحدة وطيدة الأركان، فيجسن بنا أن نشيد اللبنة الأولى في وحدة الأمة السياسية بل والثقافية أيضاً ألا وهو التعليم باللغة القومية. ولنفترض أننا نقيم ندوة طبية أو اجتماعاً طبياً عربياً، فبأية لغة تلقى البحوث العلمية وتدور المناقشات العامة؟ إن الأطباء العرب الناطقين بالانكليزية لا يفهمون الفرنسية والعكس صحيح فهل تعتمد اللغتان الأجنبيتان وسيلتي تعبير علمي لأطباء عرب، وتظل اللغة العربية يتيمة بين أهلها وغريبة في دارها، ولا ذنب اقترفت ولا تقصير بدر منها.

هذا وأود أن أقف قليلاً عند موضوع تحويل المدرس الطبيب من التدريس بلغة أجنبية إلى التدريس باللغة العربية.

قد يظن ظان أن هذا التحويل أمر مستحيل وأنه من غير اللائق أن نطلب من أستاذ جامعي طبيب أن يغير اللغة التي بها يحاضر ويؤلف. ولكنني أقول إن هذا التحويل ليس من لغة أجنبية إلى أخرى، بل هو عودة منها إلى اللغة الأم، والمدرس أصلاً ملمّ بهذه قليلاً أو كثيراً وليس عليه إلا أن يتوسع ويتعمق، قدر ما يحتاج إليه لممارسة التعليم بها، في مفرداتها وتراكيبها وقواعدها. وفي اعتقادي أن هذه العودة مفخرة له ما بعدها مفخرة وخدمة جلى لأمته العربية، وإن تدريسه بلغة أجنبية في الأصل، لم يكن من اختياره بل هو أمر أملته ظروف شديدة الوطأة.

ج ــ الطالب الطبي

قال بعض المعارضين للتعليم الطبي باللغة العربية إن هذا التعليم يعزل الطالب عن مصادر الطب ويجعل من العسير عليه أن يتابع دراسته العليا في بلد أجنبي.

إن هذا القول ليس من المسلمات بل هو قول تعوزه الدقة ويقبل المناقشة والرد.

١ ــ نعود إلى أصل المسألة: هل يفضل الطالب أن يتعلم الطب بلغته الأم أم بلغة أجنبية؟ إنه مع التعلم بلغته لو استطاع أن يختار، وهذا أمر بديهي من الوجهة النفسية.

ثم هناك مسألة اليسر والعسر والسهولة والصعوبة.

إنْ دَرَسَ بلغة أجنبية فإن مفردة واحدة لا يعرف معناها تعوقه عن فهم المعنى بالنسبة لجملة مفصلة في بضعة أسطر، وعليه أن يستعين بالمعاجم ليتخطى العقبات.

٢ ـــ وثمة مسألة تربوية تعليمية ذات بال : هل يستوعب الطالب مادة التعلم بلغة أجنبية مثلما يستوعبها بلغته الأم؟ لقد أجريت تجربة في الجامعة الأمريكية في بيروت في أواسط الستينيات ، وجرى تشكيل مجموعتين من الطلاب احداهما تلقت دروساً في علم من العلوم باللغة الانكليزية والأخرى باللغة العربية ، ثم قدمت المجموعتان اختباراً في تلك المادة ، فوجد أن المجموعة الأولى استوعبت حوالي ٦٠ ٪ من المادة المدروسة في حين أن المجموعة الثانية استوعبت حوالي ٧٦ ٪ من المادة نفسها . وأعيدت التجربة بالقراءة فطلب من المجموعتين قراءة نصوص مكتوبة ثم اختبرت المجموعتان لمعرفة استيعاب المقروء فكانت النتائج مقاربة للتجربة الأولى .

وفي تقرير شامل أعده خبراء منظمة اليونسكو عن قضية استخدام اللغات الوطنية في التعليم أوصى واضعو التقرير باستخدام اللغة الأم في التعليم لأعلى مرحلة ممكنة .

٣ ـــ وثمة أمر آخر ، هو أن تعليم الطب بلغة أجنبية في بلد عربي يتعارض مع مبدأ تكافؤ الفرص وديمقراطية التعليم . ذلك أنَّ هذا التعليم لا يتيسر إلا للطالب الذي استطاع أن يدرس اللغة الأجنبية في المرحلة الابتدائية والمرحلتين الاعدادية والثانوية في مدارس خاصة ، والطلاب الذين يستطيعون ذلك قلة من أبناء الميسورين ، وأما سواهم من الطلاب الذين يملكون استعداداً طبياً لدراسة الطب ولم يتح لهم إتقان اللغة الأجنبية فليس أمامهم فرصة دراسته .

إن باب كلية الطب ينبغي أن يفتح لمن يملكون الموهبة والميل والقدرة ، وهذا لا يتم إلا إذا كان تدريس الطب بالعربية .

٤ ـــ هذا وإذا قلنا ما قلنا ، فلا نريد أن يُفهم من كلامنا أننا ندعو إلى هجر تعليم اللغات الأجنبية والاكتفاء باللغة العربية بل الصحيح أننا نريد أن لا تحل اللغة الأجنبية محل العربية بل نريد أن تكون لها رديفاً ومعيناً ومكملاً .

د ـــ الكتاب الطبي

يعترض على الدعوة إلى تعريب التعليم الطبي بأن الكتب الطبية غير متوفرة باللغة العربية سواء منها التدريسي المنهجي أو المرجعي الموسع ، ومثل ذلك الدوريات الطبية المتخصصة والبحوث والدراسات الحديثة والأصيلة ، في حين أن هذا كله متوفر في لغات الدول المتقدمة علمياً ولا سيما باللغتين الانكليزية والفرنسية .

١ ـــ إن هذا الاعتراض صحيح من جهة ومغالىً فيه من جهة أخرى . هو صحيح ، إلى حد

كبير، في الحال الراهنة إذ لا تتوفر الكتب الطبية بالعربية، بالقدر المطلوب، وهذا طبيعي ما دام تعليم الطب يتم بلغة غير العربية، إذ لمن ولأي غرض تؤلف الكتب الطبية بالعربية أو تترجم إليها ما دام التعليم جارياً بالانكليزية أو الفرنسية؟!

إن التأليف والترجمة ركنان أساسيان في عملية التعليم الطبي ولكنهما لا ينشطان مادام هذا التعليم يتم بغير العربية. ثمة ترابط بين الأمرين: النقص في الكتب والبحوث الطبية باللغة العربية الذي يمثل في نظر بعض الناس سبباً في الإبقاء على التعليم بغير العربية هو في الحقيقة نتيجة لذلك التعليم.

٢ ــ وثمة ظاهرة بليغة الدلالة، عميقة المعنى، وهي أنه على الرغم من أن التعليم الطبي ما زال يؤدى بلغة أجنبية في جميع الأقطار العربية ما عدا قطراً واحداً، فإن كتباً طبية تؤلف وكتباً طبية تترجم ودوريات طبية تصدر وتروج وتقرأ، وذلك كله باللغة العربية.

وقد بينت الدراسة البيبليوغرافية التي أجرتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم عن الكتب المترجمة خلال أحد عشر عاماً من مطلع عام ١٩٧٠ ولغاية ١٩٨٠ إن عدد الكتب الطبية التي ترجمت خلال هذه المدة بلغ (٦٦) كتاباً بين كتب صغيرة يقل عدد صفحاتها عن مائة وكتب يتراوح عدد صفحاتها بين مائة ومائتين وكتب يصل عدد صفحاتها إلى ستمائة أو ثمانمائة صفحة.

أما توزيع هذه الكتب بين الدول العربية التي صدرت فيها فهو التالي:

جمهورية مصر	٣٩ كتاباً
الجمهورية العربية السورية	١٤ كتاباً
الجمهورية العراقية	٨ كتب
الجماهيرية الليبية	٣
الجمهورية اللبنانية	١
المملكة المغربية	١
المجموع	٦٦

فعلى أي شيء يدل هذا؟ إنه يدل على أنه ثمة قراء للكتب الطبية المترجمة.

إننا نتصور أن هؤلاء القراء يتألفون من الفئات التالية الثلاث: طلاب كليات الطب الذين

يدرسون بلغة أجنبية، وأساتذة الكليات الطبية الذين يعلمون الطب بلغة أجنبية، وأفراد متعلمين يرغبون في الحصول على ثقافة طبية واكتساب معلومات صحية.

والمغزى الذي يعنينا أنه على الرغم من الواقع الراهن، فإن ثمة من يقرأ الطب بالعربية، ويطلب الكتاب والدورية اللذين يقدمان له بحوثاً طبية مفيدة بلغته.

الخاتمة

إن قضية تعريب التعليم العالي ومنه التعليم الطبي ليست قضية لغوية فحسب وينبغي ألا تفهم كذلك، بل هي أوسع شمولاً وأبعد مدى إذ تتصل بهوية الأمة، وبذاتيتها الثقافية، ولذا كان إيجاد حل لها مهمة خطيرة وعاجلة. وقد أكد ذلك الدكتور محيي الدين صابر المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في دراسة كتبها عام ١٩٨١ عن «دور التعليم العالي في تنمية الذاتية الثقافية» بقوله «... إن تحقيق الذاتية الثقافية يتوقف على سيادة اللغة العربية في مجال الإعداد والبحوث في التعليم العالي ومؤسساته وإن كل الجهود الصالحة يجب أن تبذل للتغلب على المشكلات التي تواجه الأقطار العربية المختلفة في هذا الشأن سواء في التعليم العام أو في التعليم العالي».

إن تعريب التعليم الطبي وجه من أوجه التحرر العربي، التحرر السياسي والتحرر الثقافي، وتأكيد للذات العربية، واللغة جوهرها، في معركة الوجود والحضارة والتقدم.

آفاق التعاون بين الدول العربية والمنظمات والاتحادات العربية في وضع المصطلحات ومعالجتها وتعميم استخدامها

دراسة قدمت في ندوة التعاون العربي في مجال المصطلحات علماً وتطبيقاً التي أقيمت في تونس من ٧ ــ ١٠ | ٧ | ١٩٨٦.



المقدمة

المصطلح، وضعاً وتوحيداً واستخداماً، موضوع طالما تناوله رجال الفكر والثقافة وأهل اللغة والعلم بالبحث والتدقيق، واتخذته المؤتمرات والندوات مادة للدراسة والمناقشة، وصدرت بشأنه التوصيات والقرارات.

ولا غرابة، فالمصطلح هو العنصر الذي يضاف إلى الرصيد اللغوي، فيغني اللغة العربية بالجديد، ويجعلها تتسع لكل مستحدث في ميادين الفكر والحضارة، وعلى الأخص، ميدان العلوم والتقنيات، لتكون واسطة التعليم والتعلم في جميع المراحل والتخصصات، وأداة التفكير والتعبير في كل مجال من مجالات العمل والحياة.

إن اللغة العربية التي هي جوهر الهوية القومية، والرابطة المتينة التي تربط بين أبناء الأمة، والجسر الذي يصل بين ماضيها وحاضرها ومستقبلها، لا تقوى على الحياة والاستمرار، إلا إذا لبت حاجات الإنسان العربي في هذا العصر الذي نعيش فيه والذي تتفجر فيه المعرفة تفجراً، «عصر الثورة العلمية والتكنولوجية»، والمصطلح، قبل هذا وبعده، بذرة حياة للغة وعنصر استمرار.

لقد استطاعت اللغة العربية في القرن الثاني للهجرة وما تلاه من زمن أن تواجه العلوم القديمة، علوم الفرس والهند واليونان، من طب وهندسة ورياضيات وفلك وكيمياء، بكل ما فيها من مصطلح

لم تألفه ، فاتسعت العربية لها جميعاً واستوعبت معانيها وألفاظها معاً ، توليداً حيناً وتعريباً حيناً آخر ، حتى انعقدت لها الريادة والأسبقية بضعة قرون ، وكانت لغة العلم والتأليف والكشف والإبداع ردحاً طويلاً من الزمن.

وفي عصر النهضة الحديثة رافق النهضة العلمية والأدبية ، ولا سيما في مصر وبلاد الشام ، سعيٌ حثيث لإيجاد المصطلح لاستخدامه في الترجمة والتأليف والتدريس وفي شتى وجوه الحياة الأخرى ، تعبيراً عن المعاني المستجدة والدلالة على المبتكرات المستحدثة التي كانت وليدة التقدم العلمي والتطور الحضاري في العالم.

لقد بدأ هذا العمل في المرحلة الأولى بجهود أفراد ، وظهر في هذه الحقبة رجال أفذاذ أمثال رفاعة الطهطاوي وبطرس البستاني وإبراهيم اليازجي وأحمد فارس الشدياق ومصطفى الشهابي : فمنهم من نقل الكتب القيمة إلى العربية من اللغات الأجنبية ، ومنهم من ألف في الموضوعات العلمية ، ومنهم من وضع المصطلحات الجديدة أو صنف المعاجم العامة والمتخصصة ، ومنهم من درّس العلوم المختلفة بالعربية في المعاهد والجامعات.

ولا يتسع المجال هنا للتوسع في بيان هذه المجهودات الفردية في خدمة المصطلح العربي ووضع المعاجم المتخصصة والمتنوعة ، فذلك شأن يحتاج إلى دراسة معمقة خاصة تكشف عن هذه المجهودات بالتفصيل وتحللها وتقيّمها . وحسبي أن أذكر للدلالة على حجم هذا العمل أن مجموع الأعمال المعجمية ، خلال السنوات المائة الأخيرة التي نهض بها أفراد قد بلغت (٢٨٤) عملاً ، وهذا جهد في غاية الجسامة والأهمية ، وأن أشير إلى أن هذا المجهود لم ينقطع ، ومن الخير ألا ينقطع ، بدليل ما أصدرته وتصدره دائرة المعاجم في مكتبة لبنان ببيروت من معجمات علمية متنوعة في غاية الأهمية ، وما يثابر على تقديمه النابهون المجدون أمثال الدكتور عبد السلام المسدي الذي أصدر مؤخراً ، في تونس ، « قاموس اللسانيات ».

ولكن ، لئن كان وضع المصطلح قد بدأ عملاً فردياً ، فقد أخذت تقوم به بعدئذٍ ، مؤسسات وهيئات وطنية في الدول العربية ، ومؤسسات وهيئات قومية على صعيد جامعة الدول العربية وإداراتها ومنظماتها وأجهزة هذه المنظمات ، كما أسهمت في هذا العمل هيئات ومؤسسات دولية وأجنبية.

أولاً ـــ المؤسسات والهيئات الوطنية

إن العمل اللغوي الذي قامت به الدول العربية تمثل، بصورة خاصة، في نشاطات المجامع اللغوية والعلمية العربية والجامعات والمجالس والمراكز العلمية والأدبية.

لقد أنشيء مجمع اللغة العربية بدمشق عام ١٩١٩ وتلاه مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١٩٣٢، فالمجمع العلمي العراقي ١٩٤٧، ثم مجمع اللغة العربي الأردني عام ١٩٧٦، وبعدها أنشأت هذه المجامع اللغوية والعلمية اتحاداً لها ينسق جهودها ويصل بين نشاطاتها المختلفة.

إن جميع هذه المجامع إنما غايتها الحفاظ على اللغة العربية وسلامتها، وإثراؤها والاهتمام بالتراث العربي، وصيانة المخطوطات العربية وتحقيقها ونشرها الخ... وكان لكل منها مآثر لغوية وعلمية كبيرة، وأخص بالذكر مجمع القاهرة الذي كان حصاده في تقعيد التجديد اللغوي وإقراره المصطلح وافراً وغزيراً.

وقد أصدرت هذه المجامع جملة صالحة من المعاجم والمجموعات الاصطلاحية.

وكذلك فقد حملت الجامعات في الوطن العربي ومازالت تبعة جسيمة، في وضع المصطلح واستخدامه، وكان لها مبادرات طيبة في هذا الموضوع. ولا غرابة، فالأساتذة الجامعيون هم المستهلكون للمصطلح أكثر من أية فئة أخرى، لحاجتهم إليه في التأليف والترجمة والتدريس والبحث العلمي. وقد كان لفريق منهم فضل الاجتهاد في إيجاد المصطلح، وما زال بعضهم يتابع الخطوات بجد واهتمام.

وجدير بالذكر أن الجامعات العربية السورية تدرج في خواتيم الكتب التي تصدرها مسارد بالمصطلحات المبثوثة فيها، وأن وزارة التعليم العالي السورية ومجمع اللغة العربية الأردني قد قاما بترجمة كتب علمية، مرجعية ومنهجية، ذات مستوى رفيع ومزودة بالمصطلحات المبثوثة فيها مع مقابلاتها العربيات، وأن مؤسسة الكويت للتقدم العلمي قد أصدرت، منذ وقت قريب، معاجم في الرياضيات والكيمياء والطبيعيات وغيرها.

وكذلك فإن للمجالس العليا للعلوم والآداب والفنون في الوطن العربي نشاطاً مرموقاً في حقل المصطلح وفي ميدان الترجمة العلمية والأدبية، وتشجيع المبادرات الفردية في هذا المضمار.

ويقدر عدد ما أنجزته المؤسسات والهيئات الوطنية من الأعمال المعجمية خلال الحقبة الزمنية التي تمتد نحواً من قرن ، بـ (١٥٠) عملاً متفاوت الحجم ، وهذا إنجاز كبير يحتاج إلى دراسة توثيقية وتحليلية خاصة .

ثانياً ــ المؤسسات والهيئات القومية

وعلى الصعيد العربي العام ، في المستوى القومي ، أبدت جامعة الدول العربية وإداراتها والمنظمات المتخصصة المتصلة بها ، وكذلك الاتحادات المهنية العربية اهتماماً ملحوظاً بالمصطلح ، وكان لها يد طولى في خدمة العربية ورعايتها . وقد بلغ ما أصدرته من أعمال معجمية منذ قيامها حتى اليوم نحواً من (٧٧) معجماً وهو جهد جدير بالإعجاب .

١ ــ جامعة الدول العربية

لقد تنبه المسؤولون ، منذ وقت مبكر ، إلى أهمية وضع المصطلح وتوحيده ، إغناءً للغة العربية لجعلها لغة التفكير والتعبير في هذا العصر الحافل بالتقدم العلمي والتطور الاجتماعي .

فقد ورد في النصوص الأولى التي وضعت في النطاق القومي ، ذكر للمصطلح ودعوة لتوحيده ، كما هو الحال في المعاهدة الثقافية بين الدول الأعضاء في جامعة الدول العربية ، التي وافق عليها مجلس الجامعة بتاريخ ٢٧ / ١١ / ١٩٤٥ . وأما ميثاق الوحدة الثقافية الذي وافق عليه مجلس الجامعة في ٢١ / ٥ / ١٩٦٤ ، فقد نصت المادة (١٧) منه على ما يلي « توافق الدول العربية على أن تسعى إلى توحيد المصطلحات العلمية والحضارية ، وعلى أن تساعد حركة التعريب بما يحقق إغناء اللغة العربية مع المحافظة على مقوماتها » .

وإذا كانت جامعة الدول العربية قد بادرت إلى الاهتمام بالثقافة عامة ، وبالمصطلح خاصة ، عن طريق إداراتها مباشرة ، فإن هذا الاهتمام قد انتقل بمعظمه إلى المنظمات المتخصصة وعلى الأخص المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم .

ونخص بالذكر هنا بعض الأعمال التي قامت بها جامعة الدول العربية مباشرة في ميدان المصطلح والمعجمات :

أ ـــ الأمانة العامة للجامعة

أحسّت بعض الدول العربية ، قبل قيام الوحدة بين سورية ومصر عام ١٩٥٨ ، بالحاجة إلى معجم عسكري يجمع المصطلحات العسكرية مع مقابلاتها العربية ، فعهد الجيش السوري بذلك إلى لجنة عسكرية ـــ لغوية برئاسة المرحوم الأستاذ مصطفى الشهابي .

وصدر هذا المعجم أيام الجمهورية العربية المتحدة عام ١٩٦١ ، مشتملاً على (٤٠) ألف مصطلح تخص الألفاظ العسكرية وألفاظ العلوم المتصلة بالعلوم العسكرية ، وجعل في قسمين : فرنسي ـــ عربي ، وإنجليزي ـــ عربي .

وبعدئذ تطور هذا العمل على يد الجامعة العربية التي أدركت شدة الحاجة إلى توحيد المصطلحات العسكرية في مختلف البلاد العربية ، وعهدت بذلك إلى لجنة عام ١٩٦٨ ، فأصدرت المعجم بعد سنتين بأربعة أقسام : انجليزي ـــ عربي ، عربي ـــ إنجليزي ، فرنسي ـــ عربي ، عربي ـــ فرنسي .

إن هذا المعجم إنجاز علمي ولغوي كبير ، ويمثل الجهد العربي المشترك والموحد في إطار الجامعة العربية .

ب ـــ الأمانة العامة لجامعة الدول العربية ـــ الإدارة الثقافية

اهتمت الإدارة الثقافية في الجامعة العربية بموضوع المصطلح العلمي في وقت مبكر . وقد وجدت أن معجم الألفاظ الزراعية الذي كان العلامة الكبير مصطفى الشهابي قد وضعه منذ كان عضواً ورئيساً لمجمع اللغة العربية بدمشق ، جدير بأن ينشر ويوضع بين أيدي المحتاجين إليه فعمدت إلى إعادة طبعه عام ١٩٥٧ .

جـ ـــ الأمانة العامة لجامعة الدول العربية ـــ الإدارة العامة للشؤون الاجتماعية والثقافية ـــ إدارة العمل الاجتماعي

كلفت إدارة العمل الاجتماعي في الجامعة العربية لجنة لوضع معجم يتضمن المصطلحات التي تتعلق بالتنمية الاجتماعية والعلوم المتصلة بها ، فقامت اللجنة بهذا العمل ثم عرضت حصيلة ما

قامت به على الدكتور عبد الكريم اليافي الأستاذ بجامعة دمشق وعضو مجمع اللغة العربية بدمشق، فتولى مراجعة مشروع المعجم ودرسه درساً وافياً.

وبعدها أصدرت الإدارة المعجم عام ١٩٨٣ باسم «معجم مصطلحات التنمية الاجتماعية والعلوم المتصلة بها»، ويضم في جزئه الأول (٩٤٢) مصطلحاً وفي جزئه الثاني (٢٥٠) مصطلحاً وباللغات الثلاث (انجليزي — فرنسي — عربي) مع شرح وافٍ.

د — الأمانة العامة لجامعة الدول العربية — مجلس الوحدة الاقتصادية — المكتب المركزي للإحصاء والتوثيق

أصدر المكتب المركزي العربي للإحصاء والتوثيق بعمان «الدليل العربي الموحد للمصطلحات المالية والضريبية» عام ١٩٨٣ بثلاث لغات (عربي — انجليزي — فرنسي).

وأصدر الجزء الأول من «المعجم العربي للمصطلحات والتعاريف الإحصائية والديموغرافية باسم «معجم المصطلحات والتعاريف الإحصائية» بثلاث لغات (انجليزي — فرنسي — عربي) مع شروح وتعليقات، وهو يضم (٢٣٥٧) مصطلحاً مع مقدمة تعريفية. وقد قدم من قبل مكتب تنسيق التعريب إلى مؤتمر التعريب الخامس فتمت الموافقة عليه.

وأما الجزء الثاني فما زال قيد العمل والاستكمال، ويضم المصطلحات والتعاريف الديموغرافية.

- تم الانتهاء من المداخل الإنجليزية والفرنسية للجزء الأول من المعجم العربي للمصطلحات والتعاريف الإحصائية والديموغرافية.
- وتم الانتهاء من إعداد دليل المصطلحات والتعاريف المستخدمة في مجال الحسابات القومية.
- ويقوم المكتب بتوحيد التصانيف والأدلة ذات العلاقة بالعمل الإحصائي، وذلك من خلال اللجنة الفنية للتصانيف التي تعمل في نطاق الأمانة العامة. وتدرس اللجنة في الوقت الحاضر، التصنيف العربي الموحد للنشاط الاقتصادي والدليل العربي الموحد للسلع والخدمات.

هـ ــ الأمانة العامة لجامعة الدول العربيةــ إدارة النقل والمواصلات

أصدرت هذه الإدارة معجماً دعته «مصطلحات الطرق والنقل البري» (انجليزي ــ فرنسي ــ عربي) ويشتمل على (١٢٣٨) مصطلحاً.

٢ ــ المنظمات العربية في جامعة الدول العربية

بذلت المنظمات العربية المتخصصة مجهودات طيبة في ميدان المصطلح تلبية لحاجة كل منها في مجال عملها، وقد شكلت من أجل ذلك اللجان الفنية واستعانت بالخبراء المختصين، فكان لإسهامها أثر حميد في وضع المصطلح وإشاعة تداوله.

وإني سأسرد ما استطعت الحصول عليه من معلومات عن نشاطات هذه المنظمات بقصد التنويه لاستخلاص العبرة، لا على سبيل الحصر والإحاطة، على أمل أن يصار في المستقبل القريب إلى إجراء مسح شامل لهذه النشاطات.

١ ــ المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ــ مكتب تنسيق التعريب

انبثق المكتب عن مؤتمر التعريب الأول الذي عقد بالرباط عام ١٩٦١ للنهوض بتنسيق جهود الدول العربية في هذا الميدان، وكان إذ ذاك هيئة مستقلة إدارياً ومالياً. وفي عام ١٩٦٩ احتضنت جامعة الدول العربية المكتب وصادقت على نظام أساسي له وميزانية عامة. وفي عام ١٩٧٢ أصبح جهازاً من أجهزة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ينفذ خططها في مجال تنسيق المصطلح. وكان لا بد أن يسبب تحول المكتب من هيئة محلية قطرية إلى جهاز قومي مصاعب في إدارته ونشاطه ومردود عمله.

ونذكر فيمايلي أهم منجزاته:

١ ــ في الفترة الأولى ١٩٦١ ــ ١٩٧٢ أصدر قوائم بمصطلحات علمية زود بها الهيئات العامة وبخاصة في دول المغرب العربي، ونظم اجتماعات وندوات وشُكِّلت لجان للتعريب والمصطلح في الدول العربية بناء على طلبه، وهَيَّأ ثمانية وأربعين مشروع معجم أو قائمة مصطلحات.

٢ ــ في الفترة الثانية ١٩٧٢ ــ ١٩٨٦ وضع برامج تتمثل بمشروعات معاجم محددة تقترحها

جهات متعددة وتقرر وضعها لجنته الاستشارية، وتتدرج من معاجم للتعليم العام والتقني والمهني إلى معاجم للتعليم العالي، وتعرض على مؤتمرات التعريب للمصادقة عليها، وهذه المؤتمرات هي:

أ ــ المؤتمر الأول: عقد عام ١٩٦١ في الرباط، ونوقشت فيه قضايا اللغة والتعريب والمصطلح.
ب ــ المؤتمر الثاني: عقد عام ١٩٧٣ في الجزائر، وتمت فيه المصادقة على ستة معاجم للتعليم العام.
ج ــ المؤتمر الثالث: عقد عام ١٩٧٧ في طرابلس وتمت فيه المصادقة على ثمانية معاجم: خمسة منها للتعليم العام وثلاثة للتعليم العالي.
د ــ المؤتمر الرابع: عقد عام ١٩٨١ في طنجة ونظر في عشرة معاجم للتعليم التقني والمهني والعالي، وأوصى بعرضها على لجان متابعة لتدقيقها قبل الطبع.
هـ ــ المؤتمر الخامس: عقد عام ١٩٨٥ في عمان ــ وتمت فيه المصادقة على عشرة معاجم للتعليم العالي.
و ــ المؤتمر السادس: يجري إعداد ثمانية معاجم للتعليم العالي لعرضها عليه حين انعقاده.

ويصدر المكتب مجلة «اللسان العربي» التي بلغت عددها السادس والعشرين متضمنة بحوثاً في التعريب والمصطلح والترجمة واللغة العربية ومشروعات معاجم للنظر والدرس.

وكذلك عقد المكتب عدة ندوات تتصل باختصاصه أهمها ندوة توحيد منهجيات وضع المصطلحات العلمية عام ١٩٨١ الخ...

٢ ــ المنظمة العربية للمواصفات والمقاييس

المواصفة بيان دقيق لمجموعة متطلبات لتحديد خواص السلع والمنتجات والمواد وطرق فحصها بشروط ونسب وأبعاد معينة، وهي وثيقة يستفيد منها كل من الصناعي والتاجر والفلاح والمستهلك.

وحرصاً على إمداد هؤلاء بمفاهيم موحدة ومصطلحات دقيقة، وتسهيل عملية التواصل بين

الخبراء والفنيين ، يجب الاهتمام بتقييس المفاهيم والمواصفات وإيجاد المبادىء والقواعد التي ينبغي اتباعها عند وضع المصطلحات للمفاهيم العلمية والتكنولوجية وتوحيدها .

ومن هنا نشأ علم المصطلح الذي يهتم بإيجاد الأساليب والطرق العلمية التي تمكن من وضع المقابلات للألفاظ الأجنبية التي تغزو اللغات عموماً ، كما يهتم بقضية الجذاذات وتخزين المصطلحات .

إن إصدار مواصفات بلغة عربية فصيحة لمختلف أنواع السلع والمنتجات والمواد ، يعني تعريب كل أوجه العلوم والتكنولوجيات ، لأن لتلك السلع والمنتجات والمواد صلة بجميع الفروع العلمية والتقنية الحديثة .

ومن هنا كان اهتمام المنظمة العربية للمقاييس والمواصفات بالمصطلحات العلمية ، وحرصها على توفرها وتوحيدها بين الأقطار العربية ، إذ إن عدم توفرها نقص بيّن ، واختلافها يبعث الاضطراب في التفاهم بين الأطراف وهم كثر في ميادين الإنتاج والتسويق والاستهلاك .

وقد أصدرت الأمانة العامة للمنظمة ترجمة لمعجم المصطلحات المترولوجية الأساسية المستخدمة في علم القياس بشكل عام ، والتي تشترك فيها جميع أدوات القياس ، هذا المعجم الذي أعدته بالفرنسية المنظمة الدولية للمترولوجيا القانونية OIML ، وقام معهد المواصفات البريطاني B S I والمختبر الفيزيائي الوطني N P L بترجمته إلى الانجليزية ، ويبلغ عدد مصطلحاته ٣٣٢ مصطلحاً مشروحة وموزعة على عشرة فصول حسب الموضوعات (انجليزي — فرنسي — عربي) .

وكذلك نشرت في مجلة اللسان العربي « دليل مصطلحات المواصفات القياسية العربية » المشتمل على ١٩٣٥ مصطلحاً (عربي — انجليزي — فرنسي) ، ومعجم جودة الإنتاج (عربي — انجليزي) بتعاريف .

٣ — المنظمة العربية للعلوم الإدارية

قامت المنظمة العربية للعلوم الإدارية بعدة مشروعات :

• نشرت كتاب « دليل المصطلحات العربية الموحدة في العلوم الإدارية » (انجليزي — عربي) ، عام ١٩٧٤ وقد ضم اثني عشر قسماً من أقسام العلوم الإدارية : التنظيم والإدارة ، التمويل ، إدارة

الإنتاج، بحوث التسويق، المشتريات، التسويق، العلوم السلوكية، إدارة الأفراد والعلاقات الصناعية، الإدارة العامة والإدارة المركزية والمحلية الخ...

• قامت بوضع مشروع المعجم العربي الموحد في مصطلحات العلوم الإدارية (انجليزي — فرنسي — عربي) أنجزت منه الحرف الأول A من مصطلحات أصول الإدارة والتنظيم، وعقدت ندوة لمناقشته بدمشق بالتعاون مع مجمع اللغة العربية ونقابة المحامين عام ١٩٧٩.

• قامت عام ١٩٨١ بإعداد «المعجم العربي الموحد لمصطلحات الحاسبات الالكترونية». ويتألف هذا المعجم من ثلاثة أجزاء بحدود ثلاثة آلاف مصطلح مع شرح للمفردات (عربي — فرنسي — انجليزي) و(فرنسي — انجليزي — عربي) و(انجليزي — فرنسي — عربي) والغاية منه تزويد الأجهزة الإدارية والمؤسسات العلمية بهذا المعجم.

٤ — المنظمة العربية للتنمية الزراعية

نهضت المنظمة العربية للتنمية الزراعية (السودان) بمشروع يرمي إلى حصر وتوحيد المصطلحات الزراعية في الوطن العربي.

وقد صدرت تسعة مجلدات إضافة إلى أربعة مجلدات تحت الطبع، احتوت قرابة ثلاثة عشر ألف مصطلح باللغات الثلاث: الانجليزية والفرنسية مع تعريب علمي لكل مصطلح.

وقد قدمت المنظمة إلى مكتب تنسيق التعريب مشروع «المعجم العربي الزراعي» أو معجم ألفاظ العلوم الزراعية ومصطلحاتها، وهو ثلاثي اللغة (عربي — انجليزي — فرنسي) مع شروح وتعريفات. وهو يتألف من جزأين، الأول يختص بالإنتاج النباتي والثاني بالإنتاج الحيواني — وقد عرض هذا المشروع على المؤتمر الخامس للتعريب المنعقد بعمان وتمت الموافقة عليه.

٥ — المنظمة العربية للتنمية الصناعية

أدرجت المنظمة العربية للتنمية الصناعية في برنامجها لعامي ١٩٨٥ — ١٩٨٦ مشروع تعريب مكنز لها يستخرج من المكنز الشامل للمصطلحات في مجال التنمية الصناعية والاجتماعية الذي أصدرته منظمة التعاون الاقتصادي والاجتماعي، ومن المكنز الذي أصدرته منظمة الأمم المتحدة

للتنمية الصناعية (اليونيدو)، مع إضافة المصطلحات التي تهتم بالتنمية الصناعية ولم ترد في هذه المكنزين.

وشكلت هذه المنظمة العربية لجنة فنية داخلية للتعريب، وستعرض نتائج عملها في إعداد مشروع المكنز على اللجنة الاستشارية للتوثيق والمعلومات الصناعية.

٦ ــ المنظمة العربية للثروة المعدنية

قامت المنظمة العربية للثروة المعدنية، بحكم اختصاصها واهتمامها بالمصطلح، بإعداد مكنز ــ معجم ثلاثي اللغات ــ مستفيدة مما هو متوافر في المعاجم من المصطلحات المتعلقة بالمعادن. وقد استعانت في إعداد هذا المكنز ــ المعجم بمكتب تنسيق التعريب بالرباط وببعض المختصين بعلوم الأرض. وهذا المشروع هو قيد الإعداد للطبع والنشر.

٧ ــ منظمة الأقطار العربية المصدرة للبترول (أوابك)

أصدرت هذه المنظمة معجماً في جزأين وبثلاث لغات: العربية والإنجليزية والفرنسية وهو «معجم مصطلحات الطاقة». وكانت لجنة مصطلحات الطاقة التابعة لمؤتمر الطاقة العالمي التي تشارك منظمة الأوابك في عضويتها، قد أعدت هذا المعجم باللغات الأربع: الإنجليزية والفرنسية والألمانية والاسبانية سنة ١٩٨٣ في حدود ألف مصطلح، ويضم مصطلحات في: حفظ الطاقة، الطاقة الشمسية، طاقة الكتلة الحيوية، طاقة الرياح، طاقة المحيطات، طاقة الحرارة الجوفية، الاندماج النووي، صناعة الكهرباء، صناعة الغاز، استخدام الوقود السائل وتكريره، تعدين الوقود الجامد ومعالجته.

ويضم المعجم ثلاثة فهارس باللغات العربية والانجليزية والفرنسية.

٨ ــ مجلس الطيران المدني

أصدر مجلس التعاون المدني التابع للجامعة العربية معجماً دعاه «معجم مصطلحات الطيران المدني»، وقد طبع هذا المعجم بالقاهرة عام ١٩٧٤ وهو باللغات الثلاث: الانجليزية والفرنسية والعربية، ويقع في (٣٢٠) صفحة.

٣ ـــ الاتحادات المهنيـة

كان للاتحادات المهنية المتخصصة اهتمام ظاهر بموضوع المصطلح من خلال سعيها للنهوض بمستوى المهنة في مجالاتها المختلفة: التدريس والتدريب والممارسة والترجمة والتأليف.

وتتميز هذه الاتحادات بأنها تمثل التجمعات المهنية في الأقطار العربية، وبأنها تملك قدرات بشرية ومادية، وفي مقدورها، بالتالي، أن تقدم للغة العربية خدمات جلى ولا سيما في ميدان المصطلح.

١ ـــ اتحاد الأطباء العرب

لعل هذا الاتحاد أقدم الاتحادات المهنية في الوطن العربي، كما أن نشاطه في مجال المصطلح من أوائل النشاطات التي تصدت لها هيئات غير حكومية، فكانت له الريادة والسبق.

بدأ عمله في هذا الباب بقيام بعض أعضائه بوضع جملة من قوائم المصطلحات. ولكن العمل الجاد بدأ عندما اتفق الاتحاد مع منظمة الصحة العالمية على وضع معجم طبي، وألف لذلك لجنة من الأطباء العرب القادرين على العمل في هذا المجال.

وقد أثمر الجهد بعد سبع سنوات من العلم بوضع «المعجم الطبي الموحد» بثلاث لغات (انجليزي ـــ عربي ـــ فرنسي)، وصدرت طبعته الأولى عن مطبعة المجمع العلمي العراقي ببغداد عام ١٩٧٣، ثم أعيد طبعه بالأوفست بالقاهرة عام ١٩٧٧، وصدرت الطبعة الثانية من مطبعة جامعة الموصل ـــ مصححة بالأوفست عام ١٩٧٨، ثم أعيد تشكيل اللجنة من أحد عشر عضواً فعملت أربع سنوات تعديلاً وتنقيحاً فأصدرته في طبعة ثالثة باللغات الثلاث (انجليزي ـــ عربي ـــ فرنسي) و (عربي ـــ انجليزي ـــ فرنسي) منقحاً ومعدلاً عن ميدلفنت بسويسرا عام ١٩٨٣ بالتعاون بين الهيئات التالية: مجلس وزراء الصحة العرب، منظمة الصحة العالمية، اتحاد الأطباء العرب، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

إنجاز كبير لم يسبق له مثيل، وهو يضم حوالي (٢٥) ألف مصطلح في العلوم الطبية.

٢ ـــ اتحاد الكيميائيين العرب

قام مكتب تنسيق التعريب بوضع مشروع «معجم الكيمياء العامة»، ودعا المكتب بعد

ذلك إلى عقد ندوة خبراء، بالاشتراك مع إدارة التربية في المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ووزارة التربية والتعليم بالأردن، واتحاد الكيميائيين العرب، فانعقدت عام ١٩٨٣، باشتراك أحد عشر خبيراً، ويضم هذا المشروع (٢٨٧٥) مصطلحاً بثلاث لغات (انجليزي ــ فرنسي ــ عربي).

وقد عرض المكتب هذا المشروع على المؤتمر الخامس للتعريب المنعقد في عمان عام ١٩٨٥ فتمت مصادقة المؤتمر عليه.

وقد شكل المجلس الأعلى لاتحاد الكيميائيين العرب لجنة تعريب تقوم حالياً بوضع معجم المصطلحات الكيميائية باللغات الثلاث: الإنجليزية والفرنسية والعربية، وقد أوشك هذا العمل على نهايته، وسيرسل هذا المعجم إلى مكتب تنسيق التعريب لاعتماده من قبل المؤتمر القادم.

٣ ــ اتحاد المهندسين العرب

وضع اتحاد المهندسين معجماً دعاه «المعجم الموحد الشامل للمصطلحات الفنية للهندسة والتكنولوجيا والعلوم» وهو معجم ثلاثي اللغات (عربي ــ فرنسي ــ انجليزي)، وتولت إعداده لجنة من المهندسين القادرين على هذا العمل.

٤ ــ الاتحاد العربي للسكك الحديدية.

وضع هذا الاتحاد مشروع معجم رباعي اللغة (فرنسي ــ ألماني ــ انجليزي ــ عربي) يتألف من (١١٦٧٩) مصطلحاً ويقع في أربعة أجزاء، بلا تعريفات ولا شروح.

وقد قدم هذا المشروع من قبل مكتب تنسيق التعريب بالرباط إلى المؤتمر الخامس للتعريب المنعقد في عمان عام ١٩٨٥ فصادق عليه المؤتمر.

٥ ــ الاتحاد البريدي العربي

وضع الاتحاد معجماً بالمصطلحات البريدية باللغات الثلاث: الفرنسية والانجليزية والعربية.

٦ ــ اتحاد المحامين العرب

قام اتحاد المحامين العرب بالعملين التاليين في حقل المصطلحات:

١ ــ وضع مصطلحات تشريع العمل الموحد التي وضعتها نقابة المحامين بدمشق، وأقرها المؤتمر الثالث للاتحاد، ونشرها مكتب التنسيق مرتبة حسب الحروف الهجائية الفرنسية.

٢ ــ مصطلحات قانونية صدرت تحت هذا العنوان ضمن منشورات اتحاد المجامع العلمية العربية عام ١٩٧٣ إثر الندوة التي عقدت بدمشق وشاركت فيها نقابة المحامين بدمشق.

٧ ــ الاتحاد العربي للألعاب الرياضية

أعد مكتب التنسيق مشروع «معجم الألعاب الرياضية» مستعيناً بمجموعة القوائم الصادرة عن المفوضية السامية للشبيبة والرياضة وأوقات الفراغ في كندا «كوبيك»، ثم دعا إلى عقد ندوة تقوم بدراسة مشروع المعجم بالتعاون مع الأمانة العامة للاتحاد العربي للألعاب الرياضية، فانعقدت عام ١٩٨٣ وشارك فيها أربعة خبراء. ويتألف هذا المشروع من (٢٦٢٧) مصطلحاً باللغات الثلاث (انجليزي ــ فرنسي ــ عربي) ويشمل عشرة ألعاب رياضية.

وقد عرض مكتب التنسيق هذا المشروع على المؤتمر الخامس للتعريب المنعقد عام ١٩٨٥ بعمان فوافق المؤتمر عليه.

ثالثاً ــ المؤسسات والهيئات العالمية والأجنبية

إن لبعض الهيئات والمؤسسات الدولية مشاركة في الاهتمام بالمصطلحات ووضع قوائم أو معاجم بالعربية، وذلك خدمة لمتطلبات العمل فيها، ولا سيما عبد أن اعتبرت اللغة العربية لغة رسمية في المنظمات الدولية: هيئة الأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة.

ومن هذه الهيئات والمؤسسات نذكر التالية:

١ ــ المنظمة العالمية للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو)

أصدرت منظمة اليونسكو معجماً دعته «معجم مصطلحات المؤتمرات» بثلاث لغات هي: العربية والفرنسية والانجليزية، بتعاريف، ويتألف من (١١٧) صفحة.

٢ ــ المنظمة العالمية للملكية الفكرية (الايبو)

أصدرت هذه المنظمة معجماً هو معجم «مصطلحات الملكية الصناعية» وقد نشرته في

مجلة اللسان العربي » بأربع لغات هي : الانجليزية والفرنسية والاسبانية والعربية ، ويتألف من (٣٢٦) مصطلحاً .

٣ ــ المنظمة العالمية للتنمية الصناعية (اليونيدو)

صدر عن وحدة الترجمة في منظمة الأمم المتحدة للتنمية الصناعية في فيينا بالنمسا ، كتاب بعنوان « دليل المترجم » يتضمن قوائم بالمصطلحات المستخدمة في منظمة « اليونيدو والاونكتاد ووكالات منظومة الأمم المتحدة » في موضوعات : الميزانية والمخدرات والشؤون القانونية ، إلى جانب مصطلحات أخرى ومختصرات ورموز ومفاهيم اصطلاحية خاصة بالمنظومة الأممية . ومن شأن هذا الكتاب أن يساعد مترجمي الأمم المتحدة بأجهزتها المتعددة وأفراد المنظمات الأخرى ، في التعامل المشترك من خلال لغة اصطلاحية واحدة في التراسل والتخاطب وترجمة الوثائق والترجمة الفورية .

وصدرت في نشرة « مصطلحات » التي تعدها وحدة الترجمة العربية في منظمة اليونيدو قائمة مطولة ، باللغتين الانجليزية والعربية ، بالمصطلحات والتعابير الاصطلاحي التي تستخدمها المنظمة الأممية في مؤلفاتها ووثائقها .

٤ ــ اتحاد المترجمين الدولي في فارصوفيا (بولونيا)

أصدر اتحاد المترجمين الدولي معجماً في موضوع « مصطلحات الفلك والكترونيات » ونشره في مجلة « اللسان العربي » في اثنتي عشرة صفحة (انجليزي ــ عربي) عام ١٩٧٩ .

٥ ــ جامعة لومومبا في الاتحاد السوفييتي

أصدرت جامعة لومومبا بموسكو :

- المعجم الطبي : عام ١٩٧٣ من وضع كيرييف وميناجيان بثلاث لغات (روسي ــ انجليزي ــ عربي) بتعاريف ، ويقع في (٤٥٥) صفحة .

- معجم الهندسة الميكانيكية : عام ١٩٦٨ من وضع ميناجيان كيفوك بلغتين (روسي ــ عربي) ويقع في (٣٤٧) صفحة .

٦ ـــ شركة شل البريطانية بالقاهرة ـــ إدارة العلاقات العامة

أصدرت شركة شل بالقاهرة معجماً دعته « قاموس شل للمصطلحات البترولية » باللغتين الانجليزية والعربية ويقع في (٦٦) صفحة، وتم طبعه في القاهرة.

٧ ـــ المؤسسة الشعبية للتأليف في لايبزيغ بألمانيا الشرقية بالتعاون مع مؤسسة الأهرام بمصر

أصدرت هذه المؤسسة في سلسلة « المعاجم التكنولوجية المتخصصة » وبإشراف المهندس الدكتور أنو محمود عبد الواحد مجموعة من المعاجم، بأربع لغات: الانجليزية والفرنسية والألمانية والعربية، مع تعاريف ورسوم، في الموضوعات التالية: هندسة السيارات، التبريد وتكييف الهواء، تكنولوجيا اللحام، مصطلحات الحديد والصلب، التكنولوجيا الكيميائية، هندسة الاتصالات السلكية واللاسلكية، هندسة الطيران، مصطلحات الهندسة الكهربائية، الهندسة الزراعية، تشكيل المعادن، آلات الورش، تكنولوجيا الطباعة، الجرارات والأفران الصناعية، تكنولوجيا البلاستيك، مصطلحات الصناعات النسيجية، العمارة وإنشاء المباني، مصطلحات التكنولوجيا الأساسية، الراديو والتلفزيون والفيديو.

٨ ـــ مشروع راب لترجمة مصطلحات الاتصالات وتعريبها

ثمة مشروع على غاية الأهمية هو مشروع « راب » لترجمة مصطلحات الاتصالات السلكية واللاسلكية التابعة للاتحاد الدولي للاتصالات في جنيف. ويقدر عدد هذه المصطلحات بـ (٣٢) ألف مصطلح ومقر المشروع بالرباط.

إن الجهات المسؤولة عن المشروع هي: برنامج الأمم المتحدة للإنماء، الجامعة العربية، الاتحاد العربي للمواصلات السلكية واللاسلكية، الاتحاد الدولي للاتصالات، اتحاد إذاعات الدول العربية، مكتب تنسيق التعريب، وثماني إدارات عربية وإدارة المشروع ـــ ومن هذه الهيئات تتكون اللجنة التنفيذية للمشروع أو لجنة التنسيق.

وغاية المشروع نقل مصطلحات الاتحاد الدولي للاتصالات من الانجليزية والفرنسية والاسبانية إلى العربية، تطبيقاً لقرار مؤتمر نيروبي لعام ١٩٨٢ باستعمال اللغة العربية لغة رسمية في الاتحاد الدولي للاتصالات لترجمة وثائقه الرسمية إلى العربية، ومساندة الترجمة الكتابية أو الفورية

بالندوات المختصة الدولية والعربية والوطنية، واعتماد الترجمة الموضوعة في التدريس بالعربية في المعاهد العربية المختصة بالاتصالات السلكي واللاسلكية، وفي التأليف بالعربية والمساهمة في وضع المعجم العلمي والتقني الخ...

وقد قطع المشروع خطوات مهمة في طريق الإنجاز والنجاح.

تقييم وملاحظات وآراء

إن من يمعن النظر في المجهودات التي بذلت في وضع المصطلح العربي وتنسيقه وتوحيده، داخل الوطن العربي وخارجه، من بداية عصر النهضة الحديثة حتى اليوم، ولنقل خلال قرن من الزمن، يستطيع أن يتبين السمات الأساسية لهذا العمل الكبير، وهي التالية:

١ ـ تعدد الجهات[1]

لقد قامت بوضع قوائم المصطلحات والمعاجم جهات عديدة:

• أفراد نابهون يملكون قدرات لغوية وعلمية، تصدوا لوضع معاجم عامة أو متخصصة، ودور نشر كرست جانباً من نشاطها لهذا العمل.

• هيئات ومؤسسات وطنية، على رأسها المجامع اللغوية والعلمية والجامعات والمجالس العلمية والأدبية.

---

(١) يتبين من بيبليوغرافيا المعاجم المتخصصة في مصطلحات العلوم والآداب والفنون (معجم، قائمة، مسرد) التي نشرها السيدان الدكتور علي القاسمي والأستاذ جواد عبد الرحيم في مجلة اللسان العربي العددين ٢٠ و ٢١ لعام ١٩٨٣، أن الجهات التي قامت بهذا العمل المصطلحي هي التالية، وإزاء كل منها عدد الأعمال التي وضعتها:

الجهة	العدد
الجامعة العربية (الإدارات في الأمانة العامة)	٠٦
المنظمات العربية المتخصصات	٠٩
المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (مكتب تنسيق التعريب)	٥٥
الاتحادات المهنية العربية	٠٧
الهيئات والمؤسسات الوطنية (المجامع والجامعات والمجالس)	١٥٠
الهيئات والمؤسسات العالمية والأجنبية وأفراد أجانب	٢٠
الأفراد العرب	٢٨٤
المجموع	٥٣١

• هيئات ومؤسسات قومية ، وفي طليعتها الأمانة العامة لجامعة الدول العربية وإداراتها والمنظمات المتخصصة التابعة لها والاتحادات المهنية العربية.

• هيئات ومؤسسات عالمية وأجنبية دفعتها الحاجة إلى تدارك ما يلزمها في عملها فقامت بوضع قوائم أو معاجم في مجال اختصاصها.

إن هذا التعدد قد أعطى وفرة كبيرة في عدد الأعمال المعجمية وعدد المصطلحات ولكن العمل انطلق من مواقع متباينة في مقاصدها ومراميها ، واعتمد على طرائق وأساليب مختلفة مما شكل في نهاية المطاف خريطة غنية ولكنها متداخلة الخطوط ومتشابكة الألوان.

٢ ــ التباين الكمّي

لقد اتخذت المجهودات التي بذلت في هذا الميدان أشكالاً مختلفة : من مسارد للمصطلحات بلغتين أو أكثر أُثبتت في نهايات الكتب المؤلفة أو المترجمة ، إلى قوائم وضعت في ميدان معرفي معين ثم وزعت على الجهات التي تحتاج إليها للانتفاع بها ، ومعاجم مختلفة الحجم بلغتين أو ثلاث أو أكثر ، مع شروح وتعريفات بالمصطلحات أو بدونها ، في موضوعات محددة كالطب والزراعة والتربية وعلم النفس وعلم الاجتماع الخ...

إن بعضاً من هذه الأعمال لا تزيد عن عدة صفحات تشتمل على مئات من الألفاظ ، والبعض الآخر يشتمل على ألوف من المصطلحات : المعجم العسكري يشتمل على (٤٠) ألف مصطلح ، والمعجم الطبي الموحد يضم نحو (٢٥) ألف مصطلح ، ومعجم كليرفيل الطبي (١٤٥٠٠) مصطلح ، ومعجم العلوم الطبية وضع د. أحمد حمدي الخياط و د. مرشد خاطر وتنقيح وزيادة وتعديل د. محمد هيثم الخياط ــ الجزء الأول (١٥٢٢٨) مصطلحاً الخ...

إن الحصيلة في الجملة كبيرة ، فلدى مكتب التنسيق وحده (٣٥٠) ألف مصطلح تزداد بمعدل ٢٥ ــ ٥٠ ألفاً كل عام.

٣ ــ الاختلاف المنهجي

لم يتبع جميع من تصدوا لوضع المصطلحات وتأليف المعاجم منهجية واحدة في وضع المعاجم ، فقد تفاوت أخذهم بمعطيات التراث ، وأسلوبي التعريب والنحت ، فثمة من نزع إلى التشدد إزاء الدخيل والعامي ومنهم من مال إلى التساهل.

وحرصاً على اطلاع المنتفعين بالمعجم على الأصول والقواعد التي اعتمد عليها في تصنيفه، ذكرت بعض المعاجم مثل «المعجم الطبي الموحد» الأسس التي جرى عليها العمل في اختيار المصطلحات.

٤ ــ عدم التوازن[٢]

يلاحظ أن الجهود كانت تتسع في حقل معرفي وتضيق في حقل معرفي آخر. لم يكن ثمة

---

(٢) يتبين من بيبليوغرافيا المعاجم المتخصصة في مصطلحات العلوم والآداب والفنون (معجم، قائمة، مسود) التي نشرها السيدان الدكتور علي القاسمي والأستاذ جواد عبد الرحيم في مجلة اللسان العربي العددين ٢٠ و ٢١ لعام ١٩٨٣ أن عدد الأعمال المعجمية في حقول المعرفة هي كما يلي، توزيعاً وعدداً، وعددها في الجملة (٥٣١) عملاً:

الحقل	العدد	الحقل	العدد	الحقل	العدد
المعارف العامة	٠٤	الإحصاء	٠٤	التربية والتعليم	٠٩
المكتبات	٠٦	السياسة	٢١	التربية الرياضية	٠٩
الإعلام	٠٢	الاقتصاد	٢٦	التجارة	٢٥
الفلسفة	١٣	القانون	٣٨	المحاسبة والمالية	٠٢
علم النفس	١٥	ع. العسكرية	١٢	المواصلات	١١
علم الاجتماع	١٧	الإدارة	١٢	الفولكلور	٠١
الديانات	٠٧	الخدمة الاجتماعية	٠٦	اللغات	١١
	٥٤		١١٩		٦٨

الحقل	العدد	الحقل	العدد	الحقل	العدد
التقنيات	١٦	ع. تطبيقية	٠١	الصناعات	٠٧
الرياضيات	١٠	الطب	٥٣	الزراعة	٠٨
الفلك	٠٩	الهندسة	٠٥	ع. المنزلية	٠٥
الفيزياء	١٦	هـ. الكترونية	١٠	بناء	٠٣
الكيمياء	١٥	هـ. ميكانيكية	١٥	حرف ومهن	٠٤
الجيولوجيا	١٩	هـ. مدنية	٠٧	فنون جميلة	١٢
الأحياء	٠١	هـ. كهربائية	٠٨	آداب	٠٩
	٨٦		٩٩	تاريخ	٠٩
				جغرافيا	١٣
					٧٠

توازن في العمل إذ كان للرغبات الشخصية والمصادفات والاجتهادات الفردية الدور الحاسم في اختيار الحقل المعرفي ثم المادة المعجمية نفسها.

نجد أن الأعمال المعجمية في حقل الطب وافرة وبلغ مجموعها (٥٣) عملاً في حين أنها في الرياضيات لم تزد عن عشرة أعمال، وفي المالية والمحاسبة لم تتعدَ عملين اثنين.

٥ ــ تشتت الجهد

لقد نهض بهذه الأعمال أشخاص وهيئات لا علم لأحدهم بالآخر، في أغلب الأحيان، وقلما استفاد واحد مما قصر به الآخر، أو أكملت هيئة ما بدأته هيئة أخرى، فكأن كل عمل من هذه الأعمال كان ينطلق من العدم ويبدأ صاحبه كأن أحداً لم يقدم على مثل عمله قبله؛ أضف إلى ذلك أن الدارس أو الباحث قلما يعثر على هذه الأعمال مجتمعة في مكتبة عامة أو خاصة. وهذا كله قد أورث العمل المعجمي العربي تشتتاً مريعاً فلا يدري قطر بما في قطر آخر، ولا تعرف جامعة بما لدى الأخرى، إلى حد كبير، وتولد عنه ضياع كثير من الجهد والمال والوقت.

يصف الأديب العلامة المرحوم شكري فيصل أمين مجمع اللغة العربية بدمشق هذه الحال بقوله «إن عملنا يقترب من أن يكون واحات منفصلة متباعدة على الأرض العربية العريضة لا تتواصل ولا تتكامل، تبدو خضراء ناضرة إن أنت نظرت إليها وحدها في إطار الصحراء الصفراء التي تحيط بها، ولكن يعجزك أن تقيم بينها هذا التكامل وأن تجد لها هذه الوحدة».

٦ ــ التخلف الزمني والتقني

إن ما يعالجه واضع المعجم إنما يقتصر على ما بلغ علمه، أو ما وقع بين يديه، أو ما تمكن من الحصول عليه من مفردات مبثوثة في المعاجم الصادرة باللغات الأجنبية، وقد يكون تاريخ ذلك كله سابقاً لتاريخ وضع المعجم أو صدوره ببضع سنوات.

وليس، فيما أعلم، جهة ما من الجهات تتلقف ما يطرح يومياً في ساحة المعرفة وسوق العلم من مصطلحات جديدة لتتدبرها بوضع مقابلات عربية لها. وينتج من ذلك أننا نظل متخلفين في ميدان المصطلح من جهة، ويتصدى لوضع المقابلات العربية للمصطلحات أفراد يعتمدون على اجتهادهم الشخصي، فيقع الاختلاف وتبرز الحاجة ملحة إلى التنسيق والتوحيد.

هذا وإن وضع المعاجم ما يزال يعتمد على الطرائق التقليدية في جمع المفردات وإعداد البطاقات واستنطاق المراجع، في حين أن من شأن التقنيات الحديثة أن توفر الكثير من الجهد والوقت.

إننا في عصر التقدم العلمي الذي تتفجر فيه المعلومات تفجراً وتظهر سنوياً أربعة آلاف من المصطلحات العلمية والتقنية، ولا مندوحة لنا من استخدام الوسائل العصرية لمعالجة المصطلحات.

إن برنامج (المُـعْـربي) لقاعدة المعطيات المعجمية في معهد الدراسات والأبحاث للتعريب بالرباط، وبرنامج (باسم) البنك الآلي السعودي للمصطلحات في المركز الوطني السعودي للعلوم والتكنولوجيا بالرياض، وبرنامج (فارابي) بنك المعلومات لدى المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، هي طلائع المكننة اللازمة في حقل المصطلحات جمعاً ومعالجة وخزناً واسترجاعاً، وتوثيقاً وانتفاعاً.

تصور جديد لشبكة مصطلحاتية

إن كل تصور جديد لمعالجة الوضع القائم في ميدان المصطلح في الوطن العربي ينبغي أن يقوم على الأسس التالية:

١ ـــ اعتبار الوضع الراهن في الوطن العربي من حيث تعدد الأقطار وتعدد الهيئات والمؤسسات المتماثلة الهدف والوسيلة، حقيقة لا غنى عن التعامل معها للحصول على أكبر قدر ممكن من النفع للغة العربية والثقافة العربية، إزاء ما تحاوله اللغة الأجنبية من هيمنة، واللهجة العامية من سيطرة بالغة الخطر.

٢ ـــ الأخذ بالتعاون بين الأفراد والجهات المعنية بالمصطلح، وتحقيق الترابط والاتصال بينهم تجنباً لتكرار الجهد وإضاعة الوقت، ومشاركة أهل اللغة وأهل الاختصاص في موضوع المصطلح واعتمادهم معاً منهجية ثابتة في وضعه.

٣ ـــ الربط بين موضوع المصطلح، أداةً لغوية صالحة وضرورية، وبين الشؤون الأخرى التي تتصل به مثل تعريب التعليم العالي والتطور الثقافي وتنمية المجتمع العربي بصورة عامة.

٤ ـــ زيادة اهتمام الهيئات والمؤسسات القومية كالمنظمات العربية المتخصصة والاتحادات المهنية، بموضوع المصطلح إلى جانب الهيئات والمؤسسات العلمية واللغوية، لأنها تضم

المنتفعين بالمصطلح وتملك قدرات بشرية ومالية للإسهام في إنتاجه، ويكون مكتب تنسيق التعريب بالرباط مركز الدائرة لكل النشاطات المتعلقة بالمصطلح.

٥ ـ استخدام التقنيات الحديثة في موضوع المصطلح، دون تأخير.

وحرصاً على رسم ملامح الشبكة المصطلحاتية، أتطرق إلى الجوانب التالية في موضوع المصطلح: وضعه، تنسيقه، ثم توحيده واستخدامه.

أولاً ـ وضع المصطلح

إن مهمة المصطلح كانت وما زالت غير منوطة بهيئة من الهيئات، بل هي عمل مشاع متروك لمبادرات يقوم بها الأساتذة الجامعيون ورجال العلم والثقافة والأدب، إذا ما دفعهم إلى ذلك احتياج في التدريس أو الترجمة أو التأليف أو البحث، بل قد يتصدى له مترجمون عرب يعملون في المنظمات الدولية أو البلدان الأجنبية، وعاملون في المجلات والصحف، وهم إذ يضعون هذه المصطلحات فإنهم يستخدمونها دون عرضها على جهات الاختصاص، وكثيراً ما يضع غيرهم مصطلحات أخرى مغايرة لها.

والذي يحدث بالفعل، أن الزمن يعمل على ترسيخ الاختلاف ويتمسك كل بما يظن أنه الأصلح والأصوب. وعندما يأتي دور التنسيق يكون الاختلاف قد تجذر فيصعب التوفيق ويعسر التوحيد، حتى إذا ما اتخذ مؤتمر التعريب قراراً، فإن الاستعمال يظل متبايناً إذ ليس ثمة إلزام في الأمر!

وتلافياً لهذا التناقض والخلاف، نعتقد أنه من الممكن والمفيد أن تُستبَقَ الأحداث فيتتبع مكتب تنسيق التعريب، بوصفه جهازَ التنسيق القومي، ما يستجد من مصطلحات في العالم في مختلف فروع المعرفة والعلم عن طريق مراجعة المعاجم التي تصدر باللغات الأجنبية، ولا سيما التي تكون اللغة الانجليزية أساساً لها، والكتب والدوريات وسائر المنشورات المشهورة في العالم، وجمعه وعرضه على المجامع اللغوية والعلمية والجامعات والمراكز العلمية والأدبية والمنظمات المتخصصة والاتحادات المهنية حسب المادة والاختصاص، مشفوعاً بآراء خبرائه ومقترحاتهم بشأن المقابلات العربية لتلك المصطلحات، لتقول هذه الهيئات رأيها فيه والاجتهاد بشأنه ثم ينسق المكتب بين الآراء ويعرضها على مختصين ثقات ولجان فنية، ومن ثـمّ يعرضها على مؤتمرات التعريب لإقرارها.

إن هذا العمل هو تنسيق مُسَبَّق يدرأ إلى حد كبير الارتجال في وضع المصطلح، ويوفر جهود التنسيق اللاحق الذي يمارسه المكتب في الوقت الحاضر، إلى حد كبير. إن هذا الرأي إذا ما أخذ به لا يتنافى مع استمرار المبادرة الفردية والقدرة على الاجتهاد اللتين يمارسهما أهل اللغة والاختصاص حيثما كانت مواقعهم، شريطة أن يبلغوا اقتراحاتهم مكتب تنسيق التعريب، ليتخذ بشأنها ما يتخذه بشأن المقابلات التي يقترحها خبراؤه للمصطلحات التي يجمعها من المصادر المختلفة.

ثانياً ــ تنسيق المصطلح

يحدد مكتب تنسيق التعريب مشروعاته المعجمية من خلال مقترحات الدول العربية أو لجنته الاستشارية أو إحدى المنظمات العربية أو أحد أجهزة التربية والثقافة والعلوم، أو من خلال ما يلمسه من الحاجة الملحة إلى إعداد مشروع معجم جديد.

إنه من الضروري ألا يكتفي المكتب بهذه الأصول، بل يحسن به أن يضع دراسة موضوعية ينتهي فيها إلى تحديد موضوعات المعاجم التي يتولى إعدادها، وذلك وفق سلم أولويات وعلى أساس الحاجات الأساسية للمجتمع العربي: حاجات تعريب التعليم بكل مراحله وأنواعه، حاجات تعريب الإدارة والقضاء والمصارف الخ... تقديم مصطلحات العلوم والتقنيات على سواها في المرحلة الحاضرة، وأما المقترحات التي ترده فيستأنس بها في وضع خططه وبرامجه.

ويعتمد المكتب في إعداد المعجم على ما تمده به الدول العربية من قوائم ومسارد ومعاجم وكتب مترجمة ومؤلفة في الموضوع المقصود.

إن هذه المادة، على الرغم من أهميتها، قد لا تكون كافية، ولذا يحسن به أن يضم إلى مصادر المعجم المراد إعداده، مصادر أجنبية: معاجم وقوائم في الموضوع نفسه كيما يكون المعجم المعد أكثر سعة وحداثة.

كذلك ينبغي العناية بإيراد شرح أو تفسير أو تعريف بالمصطلح الخ...

هنا وقد آن الوقت لاستخدام الآلية ومكننة العمل لتحقيق السرعة والنجاعة في الإنجاز والقدرة على العطاء والإفادة بأيسر السبل وأقربها.

لقد حدد النظام الداخلي للمكتب مهمته بتنسيق الجهود التي تبذل لإغناء اللغة العربية بالمصطلحات الحديثة، ولتوحيد المصطلح العلمي والحضاري في الوطن العربي بكل الوسائل الممكنة والإعداد للمؤتمرات الدورية للتعريب.

إن المشرِّع لم يشأ أن يحصر إعداد المعاجم بالمكتب، الذي جعله منسقاً فقط للجهود التي تبذل لإغناء اللغة العربية بالمصطلحات الحديثة، ولتوحيد المصطلح العلمي والحضاري.

فإذا كان المكتب هو المُنَسِّق، فمن هو الذي يبذل الجهود الأساسية، ومن الذي يبادر ويبتدع المصطلح ويعد المعجم؟

إنه كل قادر على هذا العمل دون تحديد أو تعيين، سواءً أباشره منفرداً أو من خلال المجمع الذي هو عضو فيه، أو الجامعة التي يدرس فيها، أو الإدارة التي يتولى شؤونها.

وواقع الحال أن ما حصل منذ ربع قرن حتى اليوم، أن المكتب كان يجمع مادة عمله من الدول العربية: مجامعها وجامعاتها ومراكزها ورجال الفكر والعلم فيها، فيصوغ من ذلك مشروعات معجمية يعرضها على اللجان الفنية ثم على مؤتمرات التعريب.

وقد بدأ منذ سنوات قليلة يتلقى من بعض المنظمات المتخصصة والاتحادات المهنية بعض المشروعات المعجمية، ليكون وسيطاً في عرضها على مؤتمرات التعريب. إنها بادرة حسنة، ولكن هل يصح أن ينتظر المكتب حتى تمده المنظمة أو الاتحاد بمشروع معجم؟ كم يكون حسناً ومفيداً بل مهمّاً وضرورياً أن ينتقل المكتب في تعامله مع هذه المنظمات والاتحادات من موقف التلقي وهو موقف سلبي، إلى موقف أكثر إيجابية فيرسي تعامله معها على ثلاثة أسس:

١ ــ يدعو المنظمات والاتحادات إلى العمل لإعداد المعاجم المتصلة باختصاصاتها ولا سيما إذا كانت هذه المعاجم تتصل بخططه المعجمية.

٢ ــ يشارك في جهود هذه المنظمات والاتحادات بالخبرة التي يملكها والإمكانات المتاحة له: بتقديم المشورة الفنية لها، أو يتعامل معها على أساس المشاركة العلمية والمالية، أي يكون إعداد المعجمات هذه بمثابة مشروعات مشتركة.

٣ ــ يشترط فيما يتلقاه من مشروعات معاجم تعدها المنظمات والاتحادات أو التي يشاركها في إعدادها، بالمشورة الفنية أو المساهمة العلمية والمالية، أن تكون متوافقة مع المنهجية التي يتبعها في وضع المصطلح أو إعداد المعجم.

إن هذا الاتجاه في عمل المكتب والمنظمات المتخصصة والاتحادات المهنية، إذا تحقق، يشكل منعطفاً في العمل المعجمي، ويهيىء له أسباب النجاح. إن هذه الهيئات هي صاحبة المصلحة في المعجم، فحق عليها أن تسهم في حمل العبء في صنعه وإيجاده.

إنه مطلوب في هاتين المرحلتين: الوضع والتنسيق، التعاون كذلك مع الهيئات والمؤسسات العالمية والأجنبية التي تهتم بالمصطلح العربي وبالمصطلح عامة، أو بالترجمة والنشر، للاستعانة بتجاربها وقدراتها اللغوية والفنية.

ثالثاً ــ توحيد المصطلح واستخدامه

إن مؤتمر التعريب هو المخول بإقرار المصطلحات التي تعرض عليه وتصديقها. وينص نظام المكتب على دعوة المؤتمر للانعقاد كل ثلاث سنوات مرة على الأقل في إحدى الدول العربية بدعوة من المدير العام للمنظمة، لدراسة ما يقدم إليه المكتب من أبحاث ومقترحات تتعلق بالتعريب وتطور اللغة العربية العلمية والحضارية واتخاذ القرارات بشأنها.

ويدعى للاشتراك في المؤتمر ممثلون عن حكومات الدول العربية، وممثلون عن المجامع اللغوية والعلمية والجامعات العربية واتحاد المجامع واتحاد الجامعات والاتحاد العلمي العربي، وكذلك تدعى للحضور المنظمات والاتحادات والهيئات المعنية بالموضوعات المعروضة على المؤتمر، ويحضره العلماء واللغويون الذين يدعوهم المدير العام بصفتهم الشخصية.

وقد درج المكتب على أن يشكل المؤتمر لجاناً من أعضائه بعدد مشروعات المعاجم المطروحة عليه. وبما أن المؤتمر ينعقد لمدة وجيزة لا تتجاوز أربعة أيام، فإنه من الواجب ألا تعرض على لجانه إلا الملاحظات التي ترد من الدول العربية والهيئات والأفراد المختصين حول مشروعات المعاجم، مع المفردات التي تتعلق بها تلك الملاحظات لاتخاذ القرار الملائم بشأنها.

ولكننا نتساءل كما يتساءل كثيرون، هل يكفي أن يوافق مؤتمر التعريب على المعاجم المعروضة عليه حتى يتم الالتزام بما تضم من المصطلحات؟

وإذا كان الالتزام صعب المنال بسبب اختلاف الآراء والأهواء، وتباين الرغبات والنزعات فهل نفكر بالإلزام سبيلاً إلى إشاعة المصطلحات؟

إن وفد الحكومة التي يحضر المؤتمر ليس مفوضاً بالموافقة على مصطلحات ملزمة لحكومته وهيئاتها ومؤسساتها العلمية والثقافية، فهل نتجه هذا الاتجاه فيطلب من وفود الحكومات الحصول على تفويض من السلطات المختصة في بلدانها بالموافقة الملزمة لها، أم نتجه وجهة أخرى للحصول من مؤتمر القمة على قرار بإلزامية ما توافق عليه مؤتمرات التعريب؟

هذه مسألة جديرة بالدراسة ولكنها من المسائل الأساسية التي يتعلق بها استخدام المصطلح في مختلف وجوه الاستخدام: في التأليف والترجمة والتدريس وفي مجمل النشاط الاجتماعي والاقتصادي والثقافي في الوطن العربي.

إننا بعد هذا العرض، يمكن أن نستطلع ملامح الشبكة المصطلحاتية للوطن العربي التي، وإن كانت قائمة بالفعل هيكلاً وعملاً، فإنها بحاجة إلى المزيد من الترابط والفعالية، وتتلخص بالنقاط التالية:

• إن المجال ميسور ومتسع للاجتهاد في وضع المصطلح أو بالأحرى اقتراحه للأفراد والهيئات (المجامع والجامعات والمعاهد والمراكز والمجالس العلمية والأدبية ...) داخل البلاد العربية وخارجها.

وهذه الجهات تبلغ مكتب التنسيق حصائل عملها ليدرجها في المعاجم المتخصصة التي يعدها ثم يعرضها على مؤتمرات التعريب للإقرار والمصادقة.

• يتولى مكتب التنسيق وضع وتنفيذ الخطة المعجمية التي تقترحها لجنته الاستشارية في ضوء الحاجات الأساسية للمجتمع، ويجمع حصيلة عمل الهيئات والأفراد في الوطن العربي وخارجه، ويتتبع المصطلح في مصادره باللغات الأجنبية، ويستعين باللجان الفنية والخبراء اللغويين والعلميين، ويعتمد على الوسائل الآلية الحديثة في الخزن والمعالجة والاسترجاع، ويقدم للمستهلك حصيلة العمل بما يطبعه من معاجم ونشرات ومجلات وبما يستطيع أن يبلغه آلياً.

• إن مؤتمرات التعريب الدورية هي التي يناط بها دراسة مشروعات المعاجم المعدة من قبل المكتب، في لجان فنية تشكلها من المشاركين فيها وتعطي قرارها بالإقرار والمصادقة.

ويمكن لهذه المؤتمرات أن تبحث في موضوع الالتزام والإلزام وتتخذ لهما الصيغ التنظيمية والإجرائية اللازمة.

• ونظراً للخصوصية الواضحة في عمل المنظمة العربية للمواصفات والمقاييس والإدارات الوطنية

المرتبطة بها ، في ميدان المصطلح ، علماً وتطبيقاً ، تتألف لجنة دائمة منها ومن مكتب تنسيق التعريب بالرباط تعقد اجتماعات دورية لتبادل الآراء والمشورات والخبرات وتنظيم مشروعات مشتركة بينهما .

ويمكن أن تنظم اتفاقية تعقد بينهما أسس هذا التعاون وأشكاله وطرقه .

مـراجــع الـكـتـاب

١ ـ **كتاب الفهرست** ابن النديم .

٢ ـ **كتاب أخبار الحكماء** القفطي .

٣ ـ **عيون الأنباء** ابن أبي أصيبعة .

٤ ـ **فجر الإسلام** أحمد أمين .

٥ ـ **قصة الحضارة** ديورانت .

٦ ـ **شمس العرب تسطع على الغرب** زيغريد هونكه .

٧ ـ **المصطلحات العلمية في اللغة العربية** مصطفى الشهابي .

٨ ـ **حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي** جلال الدين مظهر .

٩ ـ **اللغة العربية في التعليم العالي** د. مازن المبارك .

١٠ ـ **دور التعليم العالي في تنمية الذاتية الثقافية (دراسة)** د. محيي الدين صابر .

١١ ـ **الترجمة والإبداع عند العرب** (دراسة) د. محمد السويسي .

١٢ ـ **المؤتمرات والندوات التي عقدتها المؤتمرات والهيئات العربية حول تعريب التعليم العالي (دراسة)** د. شكري فيصل .

١٣ ـ **اللغة العربية والهوية الثقافية وتجارب التعريب (دراسة)** عبد العزيز عاشوري .

١٤ ـ **مجلة أعداد من مجلة «اللسان العربي»** التي يصدرها مكتب تنسيق التعريب بالرباط .

للمؤلف

١ ــ كتاب «حول المرأة» بالاشتراك ــ طبع في دمشق عام ١٩٤٧ (طبعة أولى) ثم طبع بدمشق أيضاً عام ١٩٧٧ (طبعة ثانية) عدد صفحاته (١٣٦) صفحة.

٢ ــ كتاب «الأدب في الميدان» طبع بدمشق عام ١٩٥٠، عدد صفحاته (١٧٨) صفحة.

٣ ــ كتاب «فصول في الأدب والاجتماع والتربية والثقافة والحياة العامة» طبع في دمشق عام ١٩٥٦ وعدد صفحاته (١٧٦) صفحة.

٤ ــ كتاب «تاريخ الأمة العربية من الجاهلية حتى اليوم وتاريخ المخترعات» بالاشتراك، طبع في حلب عام ١٩٤٨ وعدد صفحاته (١٥٠) صفحة.

٥ ــ ترجمة كتاب «الحرس الفتي» تأليف الروائي الكسندر فادييف بالاشتراك ــ طبع في جزأين من قبل دار الفارابي في بيروت عامي ١٩٥٤ و ١٩٥٥ وعدد صفحاته (٧٢٠) صفحة.

٦ ــ ترجمة فصول من كتاب «الاتجاهات الرئيسية للبحث في العلوم الاجتماعية والإنسانية» المجلد الأول ــ العلوم الاجتماعية ــ من منشورات اليونسكو، أصدرته وزارة التعليم العالي السورية عام ١٩٧٧.

٧ ــ ترجمة كتاب «التجديد في تدريس العلوم» من منشورات اليونسكو، بالاشتراك، أصدرته وزارة التعليم العالي السورية عام ١٩٨٤.

٨ ــ كتاب «الترجمة قديماً وحديثاً» إصدار دار المعارف بسوسة في تونس ١٩٨٧.

٩ ــ دراسة حول «تعريب تدريس الطب والصيدلة في الوطن العربي» اصدار دار الرائد العربي في بيروت ــ لبنان ١٩٨٧.

١٠ ــ دراسات ومقالات كثيرة متنوعة في الأدب والاجتماع والترجمة والتعريب منشورة في مجلات سورية وعربية عديدة.

بطاقة تعريف بالكاتب

- ولد الأستاذ شحادة الخوري في بلدة صيدنايا قرب دمشق عام ١٩٢٤ .
- تلقى العلم في مدرسة صيدنايا الابتدائية ، ثم تابع دروسه الإعدادية والثانوية في مدارس الآسية الأرثوذكسية بدمشق ، ونال الشهادتين الثانويتين السورية والفرنسية عام ١٩٤٢ والقسم الثاني من الثانوية السورية « فلسفة » عام ١٩٤٣ .
- درس الحقوق في معهد الحقوق بدمشق وحصل على الإجازة عام ١٩٤٧ ، ثم درس اللغة العربية وآدابها في كلية الآداب بجامعة دمشق وحصل على الإجازة عام ١٩٥٧ .
- عمل مدرساً للتاريخ والتربية المدنية ثم للغة العربية وآدابها في المدارس الثانوية السورية من عام ١٩٤٨ حتى عام ١٩٦٠ كما درس في المدارس الأهلية والخاصة .
- تولى عدة وظائف في وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل السورية من عام ١٩٦١ حتى عام ١٩٦٩ كان في آخرها ، على التوالي ، مديراً للعلاقات الدولية ثم التخطيط ثم التنمية الريفية (انعاش الريف) .
- عمل من أواخر عام ١٩٦٩ حتى منتصف عام ١٩٨١ مديراً للترجمة والنشر والمصطلحات العلمية في وزارة التعليم العالي السورية ، حيث أشرف على تنفيذ برنامج ترجمة ونشر مراجع جامعية ترفد وتدعم تدريس العلوم باللغة العربية في جامعات القطر العربي السوري ومعاهده والوطن العربي .
- تم اختياره خبيراً لوحدة الترجمة ، بإدارة الثقافة في المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بتونس « اليونسكو العربية » منذ منتصف عام ١٩٨١ وما زال حتى الآن . وقد أنجز وضع « الخطة القومية للترجمة » ووضع دراسة حول انشاء « المعهد العربي للترجمة » وأخرى حول انشاء « المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر » ونشر بحوثاً عديدة عن التعريب والترجمة والمصطلح .
- ألف وترجم عدة كتب أهمها كتاب « الأدب في الميدان » وكتاب « حول المرأة » وكتاب « فصول في الأدب والاجتماع » ونشر في الصحف والمجلات ما يقارب مائة دراسة ومقال حول قضايا تربوية واجتماعية وقومية وأدبية الخ ..
- شارك في العديد من المؤتمرات والندوات والاجتماعات الثقافية والفكرية وقدم فيها دراسات وبحوثاً ثقافية وتراثية ، منها أسبوع العلم بدمشق ١٩٧٦ الذي قدم فيه بحثاً عن « المدينة الفاضلة عند الفارابي » ونال عليه براءة تقدير .
- عضو في اتحاد الكتاب العرب في سورية ، منذ تأسيسه .

الفهرس

دراسات في الترجمة والمصطلح والتعريب / شحادة الخوري . ــ ط. ١ . ــ دمشق : دار طلاس ، ١٩٨٩ . ــ ٢٤٠ص ؛ ٢٥ سم .

قدم له عبد الكريم اليافي .

١ ــ ٢٠٫٤١٨ خ و ر   د ٢ ــ العنوان ٣ ــ الخوري

مكتبة الأسد

رقم الإيداع ــ ٢٨/١/١٩٨٩

رقم الإصدار ٤١١


طلاس
للدراسات والترجمة والنشر